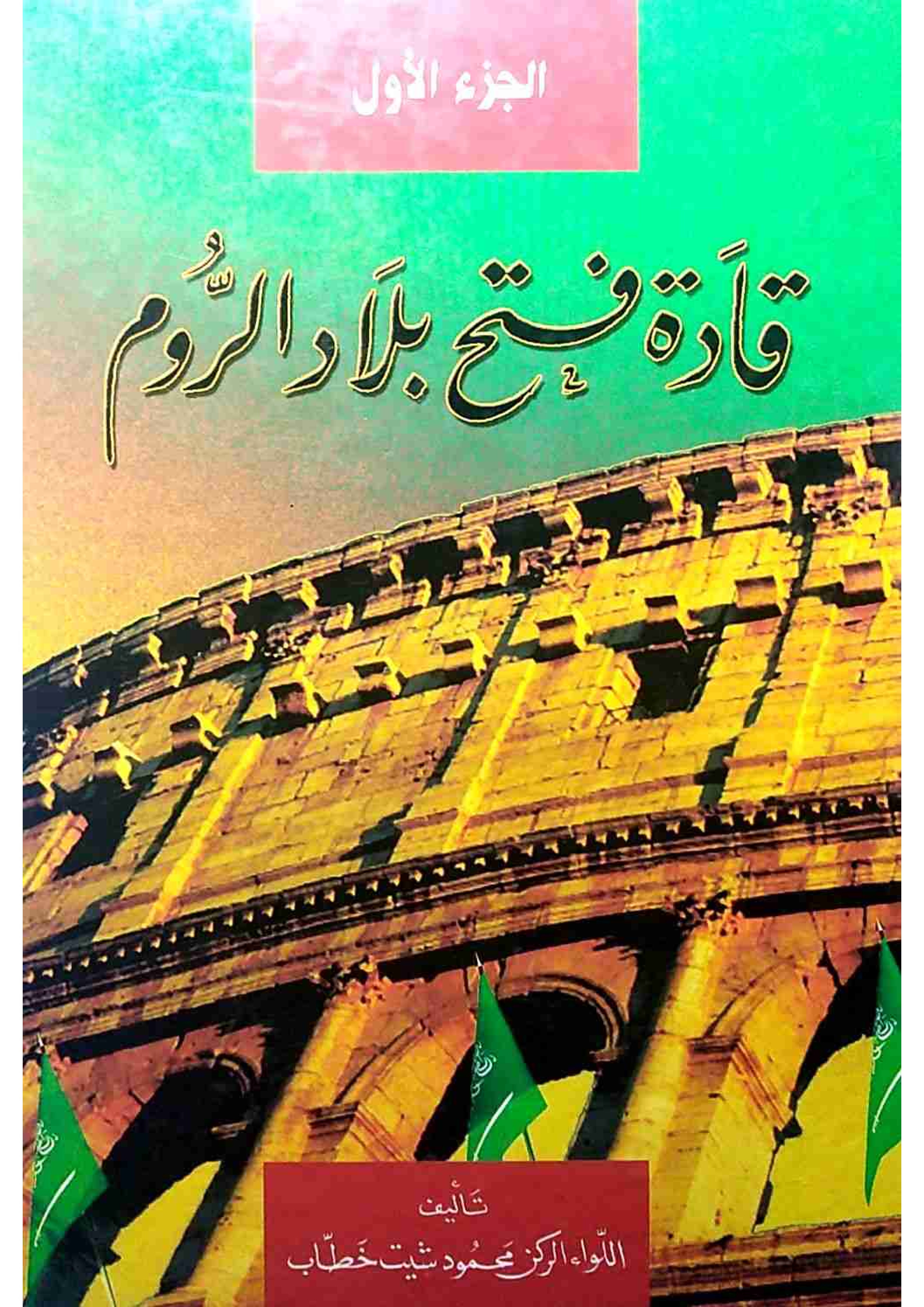

الجزء الأول
قادة فتح بلاد الرُّوم
تأليف
اللّواء الركن محمود شيت خطّاب

قَادَةُ فَتْحِ بِلَادِ الرُّومِ

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

الجزء الأول

قادة فتح بلاد الرُّوم

تأليف

اللّواء الركن محمود شيت خطّاب



بسم الله الرحمن الرحيم

ـ من دعائه صلوات اللّه وسلامه عليه ـ

(ـ ربِّ اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري كلِّه، وما أنت أعلمُ به مني.

ـ اللَّهمَّ اغفر لي خطئي وعَمْدي، وجَهْلي وهَزْلي، وكل ذلك عندي.

ـ اللهم اغْفر لي ما قدَّمت وما أخَّرت، وما أسررت وما أعلنت . . .

أنت المقدِّم، وأنت المؤخِّر، إنك على كل شيء قدير . .)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⑤﴾ [الروم: ١ ـ ٥].

يقول صاحب الظلال الشهيد سيد قطب ـ رحمه اللَّه تعالى ـ في تفسير هذه الآية الكريمة: «.... جاءت النبوءة الصادقة الخاصة بغلبة الروم في بضع سنين. وقد روى ابن جرير بإسناده عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: كانت فارس ظاهرة على الروم. وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأنهم أهل كتاب، وهم أقرب إلى دينهم. فلما نزلت: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَۗ﴾. قالوا: يا أبا بكر. إن صاحبك يقول: إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين؟ قال: صدق. قالوا: هل لك أن نقامرك؟ فبايعوه على أربع قلانص إلى سبع سنين. فمضت[1] السبع ولم يكن شيء. ففرح المشركون بذلك، فشقَّ على المسلمين». فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «ما بضع سنين عندكم؟» قالوا: دون العشر. قال: «اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل». قال: فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس. ففرح المؤمنون بذلك.

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات (٦٣٩٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وقد وردت في هذا الحادث روايات كثيرة، اخترنا منها رواية الإمام ابن جرير. وقبل أن نتجاوز الحادث إلى ما وراءه في السورة من التوجيهات نحب أن نقف أمام بعض إيحاءاته القوية **وأول هذه الإيحاءات:**

ذلك الترابط بين الشرك والكفر في كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والإيمان.

ومع أن الدول قديماً لم تكن شديدة الاتِّصال، والأمم لم تكن وثيقة الارتباط كما هو الشأن في عصرنا الحاضر. مع هذا فإن المشركين في مكة كانوا يحسُّون أنَّ انتصار المشركين في أيِّ مكان على أهل الكتاب هو انتصار لهم؛ وكان المسلمون كذلك يحسُّون أن هناك ما يربطهم بأهل الكتاب، وكان يسوؤهم أن ينتصر المشركون في أيِّ مكان؛ وكانوا يدركون أنَّ دعوتهم وأنَّ قضيتهم ليست في عزلة عمَّا يجري في أنحاء العالم من حولهم، ويؤثر في قضية الكفر والإيمان.

وهذه الحقيقة البارزة هي التي يغفل عنها الكثيرون من أهل زماننا؛ ولا ينتبهون إليها كما انتبه المسلمون والمشركون في عصر رسول اللَّه ﷺ. منذ حوالي أربعة عشر قرناً. ومن ثم ينحصرون داخل حدود جغرافية أو جنسية؛ ولا يدركون أن القضية في حقيقتها هي قضية الكفر والإيمان؛ وأن المعركة في صميمها هي المعركة بين حزب اللَّه وحزب الشيطان.

وما أحوج المسلمين اليوم في جميع بقاع الأرض أن يدركوا طبيعة المعركة، وحقيقة القضية؛ فلا تلهيهم عنها تلك الأعلام الزائفة التي تتستر بها أحزاب الشرك والكفر، فإنهم لا يحاربون المسلمين إلا على العقيدة، مهما تنوعت العلل والأسباب.

والإيحاء الآخر: هو تلك الثقة المطلقة في وعد اللَّه، كما تبدو في قولة أبي بكر رضي الله عنه في غير تلعثم ولا تردد. والمشركون يعجبونه من قول صاحبه: فما يزيد على أن يقول: صدق. ويراهنونه فيراهن وهو واثق. ثم يتحقق وعد اللَّه، في الأجل الذي حدده: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾.. وهذه الثقة المطلقة على هذا النَّحو الرائع هي التي ملأت قلوب المسلمين قوة

ويقيناً وثباتاً في وجه العقبات والآلام والمحن، حتى تمت كلمة اللّه وحق وعد اللّه. وهي عدّة كل ذي عقيدة في الجهاد الشاق الطويل.

والإيحاء الثالث: هو في تلك الجملة المعترضة في مساق الخبر، من قول اللّه سبحانه: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾.. والمسارعة بردِّ الأمر كله للّه. في هذا الحادث وفي سواه. وتقرير هذه الحقيقة الكليَّة، لتكون ميزان الموقف وميزان كل موقف. فالنصر والهزيمة، وظهور الدول ودثورها، وضعفها وقوتها. شأنه شأن سائر ما يقع في هذ الكون من أحداث ومن أحوال، مردُّه كلُّه إلى اللّه، يُصرِّفه كيف شاء، وَفْق حكمته وَوَفْق مراده. وما الأحداث إلا آثار لهذه الإرادة المطلقة، التي ليس عليها من سلطان؛ ولا يدري أحد ما وراءها من الحكمة؛ ولا يعرف مصادرها ومواردها إلا اللّه، وإذن فالتسليم والاستسلام هو أقصى ما يملكه البشر أمام الأحوال والأحداث التي يجريها اللّه وفق قدر مرسوم.

من مُبشِّرات
المصطفى الصادق الصدوق صلوات اللَّه وسلامه عليه

* روى مسلم[1] عن ابن نافع بن عتبة قال: كنا مع رسول اللَّه - ﷺ - في غزوة، قال: فأتى النبيَّ - ﷺ - قوم من قبل المغرب عليهم ثياب الصوف، فوافقوه عند أكَمَة، فإنهم لقيام ورسول اللَّه - ﷺ - قاعد، قال: فقالت لي نفسي: إئتِهِم، فقم بينهم وبينه يغتالونه، قال: ثم قلت: لعله نجي معهم، فأتيتهم، فقمت بينهم وبينه قال: فحفظت منه أربع كلمات، أعدهنّ في يدي، قال: «تَغزون جزيرة العرب فيفتحها اللَّه، ثم فارس فيفتحها اللَّه، ثم تَغزون الرّوم فيفتحها اللَّه، ثم تَغزون الدجّال فيفتحه اللَّه»؛ فقال نافع: يا جابر لا نرى الدجَّال يخرج حتى تفتح الروم».

* عن ذي مَخْمر[2] رجل من أصحاب النبي - ﷺ - وهو ابن أخي النَّجاشي، أنه سمع رسول اللَّه - ﷺ - يقول: «تُصَالحون الرّومَ صُلحاً آمناً، حتى تغزوا أنتم وهم عدواً من ورائهم، فتُنصَرون وتفتحون وتنصرفون حتى تنزلوا بمرج ذي تلول، فيقول قائل من الروم: غلب الصليب، ويقول قائل من المسلمين: بل اللَّه غَلَب، فيتداولانها بينهم، فيثور المسلم إلى صليبهم، ومنهم غير بعيد فيدقُّه، ويثور الرّوم إلى كاسر صليبهم فيقتلونه، ويثور المسلمون إلى أسلحتهم فيُقتلون، فيكرم اللَّه عز

(١) في كتاب الفتن وأشراط الساعة (٢٩٠٠).
(٢) روى الإمام أحمد في «مسنده» (١٦٨٢٦) بإسناد صحيح.

وجل العصابة من المسلمين بالشهادة...».

* روى مسلم (٢٨٩٩) في كتاب الفتن عن المستورد القرشي عن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول اللّه - ﷺ - يقول: «تقوم الساعة والرّوم أكثر الناس». فقال عمرو: أبصر ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسول اللّه - ﷺ - قال: لئن قلتَ ذلك، إنَّ فيهم لخصالاً أربع: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرَّةً بعد فرَّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة، وأمنعهم من ظلم الملوك).

بين يدي الكتاب... شكر وعرفان وتقدير

بقلم الناشر الأستاذ محمد فاروق البطل
أستاذ في قسم الدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز سابقاً
وكيل المؤلف وأسرته في طباعة كتبه ونشر تراثه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى»[1]

اللَّهمَّ لك الحمد كلّه، ولك الشكر كلّه، ولك الثناء الجميل، لا أُحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.. فقد وفَّقتني وأعَنْتَني ويسَّرت لي الأمور، لأنهض بمهمة ثقيلة، وأؤديَ حق أمانة عظيمة وهي أن اللواء الركن محمود شيت خطاب[2] ـ رحمه اللّه تعالى ـ قد منحني ثقته الغالية التي أعتز بها ففوَّضني تفويضاً كاملاً بتاريخ ٤/٦/١٤١١هـ و٢١/١٢/١٩٩٠م بطباعة مخطوطاته التي لم تُنشَر، وإعادة طباعة كتبه التي نُشِرَت من قبلُ، وأن أُوَقِّع العقود نيابةً عنه مع دور النشر الأمينة والوفية، وبالنِسبة المالية الكريمة التي تليق بالمؤلف وعلمه ومكانته[3]، ثم جاء تفويض السيدة المصون سميرة عبد الرؤوف زوجة الراحل الكريم، وتفويض بناته الأربع ـ حفظهنَّ اللّه تعالى ـ بتاريخ ٢١/٨/١٩٩٩م بعد وفاة المؤلف رحمه اللّه تعالى بتاريخ ٢٤/٨/١٤١٩هـ.

لقد كان العالم الجليل والمؤرخ العظيم أشد ما يكون ألماً وغضباً حين لقيتُه في منزله في حي اليرموك ببغداد سنة ١٩٨٩م لسوء استغلاله دور النشر التي طَبَعَتْ كتبه السابقة، فلم تحترم له عُقْداً، ولم تُؤَدِّ له حقاً، مستغلّة أبشع الاستغلال مرضه وشيخوخته، وعدم تمكنه من السفر خارج العراق للخطر الأمني الذي فرضه نظام البعث الحاكم في العراق، والذي

---

(١) الآية الكريمة في سورة النمل (٢٧: ٥٩).

(٢) ولد في مدينة الموصل سنة ١٣٣٨هـ ـ ١٩١٩م وتوفي في بغداد بتاريخ ٢٤ شعبان ١٤١٩ه، و١٣/١٢/١٩٩٨م.

(٣) نسبة أتعاب المؤلف التي طلبها ٢٠٪ والتي وقّعتُ عليها مع دور النشر التي نشرت الكتب التي أشرفتُ عليها.

كان يرأسه صدام حسين. . . . لقد كانت كتبه رائجة ومطلوبة يومئذ، وطَبَعت هذه الدور من هذه الكتب عشرات الطبعات وآلاف النسخ، ولم تذكره البتة في أداء حقوقه وأتعابه، وحق جهده، وحق عينيه. ووالله لقد كان يدعو عليهم من أعماق قلبه، يشهد على ذلك الأخوان الكريمان الشاعر الأديب الأستاذ محمد الحسناوي[1]، والأديب الكبير الأستاذ عبد الله الطنطاوي، ويزداد الألم حين نعلم أن الراتب التقاعدي الشهري لهذا القائد العسكري الكبير، والوزير السابق، والعلامة المؤرخ، وعضو المجامع العلمية العربيَّة، والأمين المساعد للشؤون العسكريَّة في الجامعة العربيَّة. . . كان راتبه ستمائة دينار عراقي، أي ربع دولار فقط (إذ كان سعر الدولار لدى غزو العراق ٢٠٠٠ دينار عراقي) وقالت لي زوجته: لقد انخفض الراتب إلى خمسمائة دينار بعد وفاة زوجها ـ رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جناته ـ وجعل قبره روضة من رياض الجنة.

في المقابل. . . يسَّر الله لي دور نشر كريمة أمينة وفية في المملكة العربيَّة السعودية حيث أُقيم وأعمل[2].

* نَشَرَت دار القلم والدَّار الشَّاميَّة (دمشق) وبإشراف الأستاذ محمد علي دولت كتابين هما: قادة النبي ـ ﷺ ـ وقد طُبع طبعتان الأولى كانت سنة ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م. أما الكتاب الثاني فهو (بين العقيدة والقيادة) طُبع سنة ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م.

* ونَشَرَت دار الأندلس الخضراء (جدة): الكتب التالية وهي تُطبَع لأول مرة:

١ ـ سفراء النبي ـ ﷺ ـ يقع في جزأين. صدر في طبعته الأولى سنة ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م.

---

(١) توفي رحمه الله تعالى بتاريخ ١٤/٢/١٤٢٨هـ الموافق ٤/٣/٢٠٠٧م في مدينة عمان إثر مرض عضال تعامل معه بكل صبر ورضى من الله تعالى.

(٢) أقيم في مدينة جدَّة منذ عام ١٤٠١هـ ـ ١٩٨٠م ولا زلت وكنت مدرساً في جامعة الملك عبد العزيز ـ كلية الآداب.

٢ ـ قادة فتح السند وأفغانستان، صدر في طبعته الأولى سنة ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م.

٣ ـ قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النَّهر، صدر في طبعته الأولى سنة ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م.

٤ ـ قادة الفتح الإسلامي في إرمينيا، صدر في طبعته الأولى سنة ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م.

٥ ـ طريق النصر في معركة الثأر... صدر في طبعته الأولى سنة ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤ م.

* ونشرت دار القبلة للثقافة الإسلاميَّة بجدة ومؤسسة علوم القرآن (بيروت) وبإشراف الأستاذ أديب كاتبة كتابين هما:

١ ـ الشورى العسكريَّة في عهد الرسالة، صدر في طبعته الأولى سنة ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م.

٢ ـ قادة فتح الأندلس ـ جزءان ـ صدر في طبعته الأولى سنة ١٤٠٤ هـ ـ ٢٠٠٣ م.

وبحمد اللَّه تعالى فقد أدت دور النشر هذه الحقوق كاملة ووفق العقود المبرمة، وأدت حقوق المؤلف بما يليق بمكانته وعلمه وريادته[1]، وقرَّت عيون المؤلف بذلك، وعيون أسرته من بعده، فكانت إيرادات هذه الكتب سنداً لهم في مواجهة حال الشيخوخة والمرض، وضعف الراتب التقاعدي، بل وأزمة الحصار الإقتصادي التي فُرِضت على شعب العراق. وأخيراً أزمة الاحتلال الأميركي المتحالف مع الميليشيات الطائفية التي استهدفت أهل السنة وعلى رأسهم منزل اللواء الخطّاب ممّا اضطرّ أسرته على التشتّت، منهم من غادر إلى مصر، ومنهم من عاد إلى الموصل،

---

(١) كانت بحمد الله تعالى عشرين في المائة و(١٥٠) نسخة من الكتاب هدية للمؤلف.

ومنهم مَن بقي في بغداد. وعليَّ أن أوزِّع إيرادات كتبه على هذه الجهات الثلاث باعتبارها جزءاً من الميراث.

كان بإمكان المؤلف الزاهد الصابر أن يغادر العراق في ظل هذه الظروف القاسية القاهرة، ووُجِّهت له دعوات... ولو قَبِل واحدة منها لاستقبله ملوكٌ ورؤساء وقادة، ولاستقبلَتْه جامعات ومعاهد ومؤسسات ومجامع علمية، بل لو استجاب لإحدى هذه الدعوات لنزل خير منزل في قلوب الشعوب العربيَّة والإسلاميَّة وخاصة العلماء والدعاة والمثقفين والقادة العسكريين، فقد كان للرجل مكانة كبيرة في نفوس هؤلاء جميعاً، يعرفون علمه وفضله وخلقه وزهده وتواضعه وإخلاصه وكرامته التي لا يساوم عليها، وعزته التي لم يسبق لأحد أن تجرأ على جرحها أو التعريض بها. لقد كان قائداً عسكريّاً شهماً شجاعاً، وكان رجلاً مسلماً معتزاً بدينه وقرآنه، وكان واثقاً من علمه ومؤلفاته، وكان زاهداً متواضعاً عفاً وقوراً ـ رحمه اللَّه تعالى ـ.

٣ ـ كنتُ قد كتبتُ في الترجمة الموجزة[١] للواء الركن محمود شيت خطاب ـ رحمه اللَّه تعالى ـ والتي صدَّرتُ بها كتاب قادة فتح الأندلس، مناشداً دور النشر وأهل الفضل، قلت فيها: (بحكم الأمانة والمسؤولية التي حُمِّلْتها، أمانة التفويض التي شُرِّفتُ بها في حياة الراحل الكريمة، وأسرته من بعده، ومسؤولية الدَّيْن الثقيل تجاه هذه الأسرة.. أتطلَّع إلى دار نشر أو مجموعة دور نشر لتأخذ على عاتقها نشر تراث القائد الأديب المؤرخ الخطَّاب ـ رحمه اللَّه تعالى ـ كاملاً ـ كما كان الفقيد يطمح ويتمنى ـ في طباعة جديدة وأنيقة تليق بقدر هذا العالم الجليل، وتليق بإنتاجه، وستبقى الأمة العربيَّة والإسلاميَّة وأجيالها المتلاحقة بحاجة إلى قراءة هذه الصفحات المشرقة من عصرها الذهبي، وحضارتها الزاهرة، وتاريخها

---

(١) انظر مقدمة كتاب قادة فتح الأندلس ـ الجزء الأول/ ٥ ـ ١٥.

التليد، وعظمائها الأماجد. . . فهل من مجيب؟ وهل من رائد خير يموِّل مثل هذا المشروع؟ بالتأكيد لن تعدم الأمة مثل هؤلاء الرجال الأخيار. . وإنا لمنتظرون[1] . . .

٤ ـ وكان أول الغيث أن استجاب لهذا الرجاء رجل كبير من رجالات الكويت الكرام، هو معالي الأخ الكريم الأستاذ الشيخ يوسف جاسم الحجي (العم أبو يعقوب)[2] رئيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية ـ حفظه اللَّه تعالى ـ وأمتعنا بصحّته، وأمدّ في عمره. وأدامه ذخراً للإسلام والمسلمين ـ فقد أبلغني مندوبه عبر الهاتف بتاريخ ١٧/٢/١٤٢٨هـ و٧/٣/٢٠٠٧م موافقة الشيخ الجليل على نشر المخطوط الأخير للواء الخطّاب وهو: «قادة فتح بلاد الروم» على نفقته الشخصية، وقد قرَّت عينيَّ بذلك، وشعرت بسعادة بالغة، إذ تأخر نشر هذا المخطوط، وكنت أكابد همًّا كبيراً، إذ هو البقية الأخيرة من الأمانة الثقيلة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[3] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[4] فالحمد للَّه الذي أعانني على حمل الأمانة، والشكر للعم أبي يعقوب الذي ساعدني على حملها، أسأل اللَّه سبحانه أن يعوضه على ما بذل ويبذل.

٥ ـ غفر اللَّه للأخ الأستاذ يوسف محمد عبد الرحمٰن مدير إدارة الإعلام والعلاقات العامة في الهيئة الخيرية الإسلاميَّة العالمية. فقد وجهت له رسالة بتاريخ ٩/٤/١٤٢٨ هـ الموافق ٢٦/٤/٢٠٠٧ أعاتبه فيها على تعجله بطباعة هذا الكتاب الطبعة الأولى، وعدم التزامه بما سبق أن طلبته

---

(١) قادة فتح الأندلس ـ الجزء الأول (ص٤٧).
(٢) هكذا اعتاد شعب الكويت الوفي أن يخاطب رجاله الكبار وشيوخه الأفاضل ـ ونعمت هذه الصلاة.
(٣) الآية الكريمة في سورة الأحزاب (٣٣: ٧٢).
(٤) الآية الكريمة في سورة النساء (٤: ٥٨).

منه في رسالة خطية. وكانت مآخذي على طبعة الكويت ما يلي:

١ ـ طباعته في مجلد واحد خلاف طلب المؤلف ـ رحمه اللّه ـ.

٢ ـ عدم تزويد الكتاب بالخرائط اللازمة.

٣ ـ حرف الطباعة صغير ولا يكاد يُقرَأ.

٤ ـ أخطاء مطبعية في مقدمة معالي الشيخ يوسف الحجي ـ حفظه اللّه تعالى ـ.

٥ ـ عدم ترك هامش في جانبي الورقة، أو في الأسفل.

٦ ـ سوء نوع الورق الذي طُبِعَ عليه الكتاب.

٧ ـ عدم تجليد الكتاب بشكل فنّي، وعدم خياطة الملازم.

٨ ـ عدم نشره مقدمتي التي أرسلتها له بصفتي الناشر لهذا الكتاب والوكيل الوحيد عن المؤلف وأسرته.

٩ ـ في الصفحة الثالثة من تلك الطبعة أشير إلى الجزء الأول فأين الجزء الثاني؟

١٠ ـ في صفحة /٥٢٥/ حيث بدأ الفهرس من صفحة ٩٥ فأين فهارس صفحات (١ ـ ٩٤) ثم قفزت الفهرسة من ص ١٨١ إلى ص ٥٢٨.

١١ ـ عدم وضع صفحات بيضاء بين الغلاف ومحتوى الكتاب لا في البداية ولا في النهاية.

١٢ ـ من أجل هذه الملاحظات استأذنت معالي الشيخ يوسف الحجي ـ حفظه اللّه ـ بإعادة طباعة الكتاب من جديد في بيروت وبالشكل الذي يليق بمقام اللواء الركن محمود شيت خطاب ـ رحمه اللّه تعالى ـ ويليق بموضوع الكتاب، ويتفق مع سلسلة قادة الفتح للمؤلف نفسه.

٦ ـ هذا الكتاب (قادة فتح بلاد الروم) الذي يوضع اليوم بين أيدي الباحثين والمؤرخين والقراء الكرام هو آخر ما يُطبع من سلسلة قادة الفتح الإسلامي للراحل الكريم التي بلغت تسماً، لكن المؤلف قد رتبها[1] على النحو التالي:

١ ـ قادة فتح العراق والجزيرة، صدر عام ١٩٦٤م،جزء واحد ـ عدد صفحاته/ ٥٠٠/ .

٢ ـ قادة فتح بلاد فارس، صدر عام ١٩٦٤م، جزء واحد ـ عدد صفحاته/ ٥٢٠/ .

٣ ـ قادة فتح بلاد الشَّام ومصر، صدر عام ١٩٦٤م، جزء واحد ـ عدد صفحاته/ ٥٤٠/ .

٤ ـ قادة فتح بلاد المغرب العربي، صدر عام ١٩٦٥م، جزء واحد/ ـ عدد صفحاته/ ٥٦٠/ .

٥ ـ قادة فتح السند وأفغانستان، صدر في جدَّة عام ١٩٩٨م، جزء واحد ـ عدد صفحاته/ ٤٢٢/ .

٦ ـ قادة فتح إرمينيا، صدر في الكويت عام ١٩٩٨م، جزء واحد ـ عدد صفحاته/ ٥٠٤/ .

٧ ـ قادة فتح بلاد الروم[2]، صدر عام في الكويت ٢٠٠٧م ـ وهذه الطبعة الثانية.

٨ ـ قادة فتح بلاد ما وراء النَّهر، صدر في جدَّة عام ١٩٩٨م، جزء واحد ـ عدد صفحاته/ ٥٢٤/ .

---

(١) من سيرة اللواء الخطّاب بخط يده والتي لم تُطبَع بعد. أرجو أن أنشرها قريباً إتماماً للأمانة.

(٢) كتب المؤلف في سيرته أن الكتاب يقع في جزأين.

٩ ـ قادة فتح الأندلس، صدر في جدَّة عام ٢٠٠٣م، جزءان ـ عدد صفحاته/ ٨٩٧/ .

٧ ـ قدَّم المؤلف ـ رحمه اللَّه تعالى ـ للمكتبة العربيَّة والإسلاميَّة / ٣٥٤/[١] إنجازاً علمياً منها / ١٢٦/ كتاباً و/ ٢٢٨/ بحثاً، أما البحوث فقد نُشِرت في مختلف المجلات العلمية والدِّينية والتربوية والعسكريَّة المتخصصة، وأما كتبه فكلها بحمد اللَّه قد طُبِعت، وهذا الكتاب (قادة بلاد الروم) تمامها، ولكن يؤسفني أن كتاباً واحداً حملتُهُ معي من بغداد، لأطبعه، واسمه (الصديق القائد) والذي يقع في / ٣٢٠/ صفحة، وسلمتُه لمدير إحدى دور النشر في جدة، لكن إفتقده، ثم أنكر استلامه، وأنا أناشد الإخوة الناشرين في جدة إن كان أحدهم قد وجده أن يردَّه عليَّ مشكوراً. لِأَفِيَ للمؤلف حق الأمانة، وليقرأ الناس سيرة الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ من الناحية العسكريَّة.

٨ ـ لقد سدَّ المؤلف اللواء الخطَّاب بمؤلفاته هذه وغيرها ـ ممَّا كتب ـ فقرة هامة في التاريخ العسكري الإسلامي، وخاصة في التأريخ العسكري لحركة الفتح الإسلامي بأسلوب عسكري متخصص، وبتحليل تاريخي أمين، وبتوثيق دقيق، تشهد لذلك عشرات المصادر والمراجع العربيَّة والأجنبيَّة التي استند إليها واقتبس منها، وقد عُني المؤرخ القائد اللواء الركن الخطَّاب؛ أن يبرز ما أُخفي من صفحات مضيئة مشرقة في حركة الفتح الإسلامي أيام الخلافة الإسلاميَّة الأموية ـ كما كتب في مقدمة هذا الكتاب ـ ولا يخفى على الباحثين والسادة القراء الأسباب التي أدَّت إلى إغفال دور الأمويين في حركة الفتح الإسلامي إلا في جوانب محدودة، لأنها تروي ظمأ الباحث والمؤرخ والقارىء.

٩ ـ على أن اللواء الركن الخطَّاب ـ رحمه اللَّه تعالى، وأجزل

---

(١) السيرة الذاتية للواء الخطّاب (ص١٦).

مثوبته، وأسكنه فسيح جناته ـ لم يقتصر في جهده العلمي على الجانب العسكري، وإنما كتب في كل ما يخدم دينه وعقيدته وأمته، كتب في السيرة النبوية، وتراجم الصحابة، وقادة الفتح، والتاريخ، والدعوة، والأدب، واللغة، وغيرها... وقد صنَّف المؤلف ما كتب في خمسة محاور هي:

١ ـ محور التاريخ العربي الإسلامي من الناحية العسكريَّة بدءاً من الرسول القائد ﷺ[١]....

٢ ـ محور اللغة العسكريَّة....

٣ ـ محور العدو الصهيوني ليعرف المسلمون والعرب عدوهم على حقيقته....

٤ ـ محور الدعوة الإسلاميَّة والدِّفاع عن الإسلام ديناً والعربيَّة لغة... يقول ـ رحمه اللَّه تعالى ـ والواقع أن المحاور الأربعة هي في واقعها تنصبُّ في محور الدعوة، فمحور التاريخ العسكري العربي الإسلامي، هو لاستعادة معنويات العرب والمسلمين إليهم، واستعادة ثقتهم بدينهم الذي يقودهم إلى النصر، كما قاد أجدادهم إلى النصر، ومحور كشف العدو الصهيوني للعرب والمسلمين، هو دعوة إلى اللَّه أيضاً ليستعيد العرب والمسلمون أسباب النصر على عدوهم، لأن العزة للَّه ولرسوله والمؤمنين، ومحور[٢] اللغة العسكريَّة هو الاعتزاز بلغة القرآن الكريم والإثبات عملياً أنها صالحة لغةً للعلم في

---

(١) لقد كان أمل المؤلف رحمه الله تعالى أن يُعاد نشر هذا الكتاب بطبعة جديدة وخرائط وصور، وعسى أن يُحقق أحد الكرام الأخيار رغبة المؤلف وأن يُعيد طباعة الكتاب كما كان يرغب المؤلف رحمه الله تعالى.

(٢) لعل المحور الخامس هو توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية، وقد أصدر أربعة معجمات عسكرية.

مختلف الظروف والأحوال والأمكنة والأزمنة[1].

١٠ ـ وختاماً فإنني أستأذن الإخوة القراء في أن أقتطف شهادتين كريمتين، تبيِّنان قيمة الجهد العلمي والريادي للواء الخطَّاب، وأهمية ما قدَّمه للمكتبة العربيَّة والإسلاميَّة. . . .

أما الشهادة الأولى: فللعلامة الفقيه الشيخ محمد أبو زهرة ـ رحمه اللَّه تعالى ـ حيث يقول في تقديمه لكتاب اللواء الخطَّاب (بين العقيدة والقيادة): « . . كانت (لنا) مجالس نتبادل فيها الحديث على نور من اللَّه وروحانية نفوس، واستقامة قلوب بيننا، فكنتُ أتذكرُ في هذه الصحبة قول النبي ـ ﷺ ـ: «إن للَّه ناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء لمكانهم من اللَّه». قيل: من هم يا رسول اللَّه؟ قال: «قوم تحابوا بروح من اللَّه، على غير أرحام تربطهم، ولا أموال يتعاطونها، واللَّه إنهم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم تلا قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾»[2] تذكرتُ هذا الأثر النبوي إذ اكتمل بالعمل جمعنا، لكني لستُ ممن يتسامى إلى هذه المكانة، وأحسب أن صاحبي يتسامى إليها، أو إني لأرجو له ذلك. . . وقد جمع اللَّه لصديقنا اللواء الخطَّاب من الصفات، ما تسمو به واحدة منها عن سفاسف الأمور، وتتجه به إلى معاليها. . .

أولاً: الإخلاص في القول والعمل، والإخلاص إذ كان في قلب أشرق، وقذف اللَّه تعالى فيه بنور الحكمة وكان تفكيره مستقيماً، ولسانه قويماً، وعمله حكيماً، فلا يكون التواء ولا عوج. . .

---

(١) انظر السيرة الذاتية للواء الخطّاب (ص١٤ و١٥).

(٢) الآية الكريمة في سورة يونس (١٠: ٦٢).

ثانياً: الإدراك الواسع، والعلم بما حوله، وتعرُّف الأمور من وجوهها، وإدراكها من مصادرها، فقلمه نقي، وفكره ألمعي.

ثالثاً: إيمان صادق باللَّه ورسوله النبي الأمين، ولذلك يتتبَّع سيرة السالفين، ويجعل منهم نوراً يهتدى به، ويعلم منهم أعلام الهداية... ويكمل هذه الصفات التي هي بمنزلة السجايا والملكات، همة عالية، وتجربة ماضية، وخبرة بالعلم والحروب، وخصوصاً ما كان بين العرب واليهود... وهو عالم في العربيَّة، ومُلِمٌ إلماساً عظيماً بشؤون الدِّين، وقارىء يتقصَّى الحقائق فيما يقرأ... ينفر من تقليد الفرنجة، ويؤثر ما في القرآن والسنة وما كان عليه السلف الصالح، وهو ممن يؤثرون الاتباع، ولا يرضون عن الابتداع، سلفي في إيمانه وعمله، قوي في تفكيره، يهضم ما جدَّ في العصر بما في قلبه من إيمان راسخ، واتباع مستقيم...)[1].

أما الشهادة الثانية: فللأخ الكريم الباحث المجد الأستاذ عمر عبيد حسنة - وفقه اللَّه تعالى - تقديماً لكتاب الخطَّاب (العسكريَّة العربيَّة الإسلاميَّة) يقول فيها: «تأتي ميزة الكاتب اللواء الركن محمود شيت خطاب الذي قدَّم للمكتبة الإسلاميَّة نحو مائة وستة وعشرين[2] كتاباً وبحثاً، بجهوده الفردية في هذا المجال، وذلك ما لم تستطع تقديمه كثير من المؤسسات والجامعات والجماعات... لقد بدأ خطوة رائدة على طريق تدوين سيرة الرسول - ﷺ - وسِيَر قادة الفتح الإسلامي، من خلال تصور إسلامي واضح لعوامل النصر والهزيمة الماديَّة والمعنوية، وتخصص عسكري رفيع، ولغة عربية مطواعة... اللواء الركن محمود شيت خطاب من العسكريين الذين نعتزُّ بهم، لأنه أبى السقوط في تربية الاستعمار والتزام منهجه... تتميَّز كتاباته بأنها ليست كتابات تراثية فقط، يعيش فيها

---

(١) انظر كتاب بين العقيدة والقيادة الصادر عن در القلم.

(٢) الصحيح كما تقدم بخط الراحل الكريم، في سيرته الذاتية أنها / ٣٥٤/ ما بين كتاب وبحث.

الماضي، دون أن يكون قادراً على التعامل مع الواقع الحاضر، ومتابعة رحلة المستقبل من خلال رؤياه الإسلاميَّة... كَتَب دراسات حديثة كثيرة، حاول فيها أن يجاهد بقلمه دفاعاً عن الأمة المَسْلَمَة، وتبصيراً لها...»[1].

وملاحظة في الختام لا بدَّ منها: هي أن خدمتي لهذا الكتاب وغيره ممَّا نشرتُهُ، اقتصرت على اختيار دور النشر الأمينة والمناسبة لإصدار هذه المؤلفات الهامة، إضافة إلى أنني كنت أصحح مسودات (بروفات) بعض الكتب، أو أراجع تصحيح المختصين في دور النشر لبعضها الآخر.

ولما كنت غير مختص في التاريخ، فقد رجوت أن أستعين بأكثر من مختص لإعادة النظر من الناحية التاريخية أو الجغرافية فيما يتعلق بالتَّرتيب والتدقيق بأسماء الأعلام والمدن وتاريخ الوقائع، وخاصة في كتابي (قادة فتح الأندلس وقادة فتح أوروبا) حيث تساءل بعض القراء عن دقة الترجمة لأسماء المدن والأعلام... لكني والحق يقال، قد فشلت، حيث لم يسعفني أحد، رغم الوعود الكثيرة، ورغم الانتظار الطويل، بل ورغم إعلامهم مسبقاً، أنني على استعداد لدفع المكافأة المناسبة لأتعابهم، باستثناء الأخ الشهيد د. رياض الراوي - رحمه اللّه تعالى - رئيس رابطة أساتذة الجامعات في العراق - والذي زارني في جدة حج عام ١٤٢٤هـ[2] والذي تحمَّس لهذه الفكرة، ووعدني بالبحث الجاد عن أحد المختصين في تاريخ الفتح الإسلامي لأوروبا. وحمل معه القرص المدمَج، واتصلت به هاتفياً إلى بغداد فأكد أنه متابع للموضوع. وأنه سيذكر مَن حمل المشروع على عاتقه، ووعدني بالإجابة بعد أسبوع، لكنَّ رحمة اللّه سبقت له، وقضى شهيداً - إن شاء اللّه - على أيدي الجناة المجرمين القتلة الذين حصدوا أرواح عشرات المئات من العلماء الأفذاذ بروح طائفية عمياء بغيضة.

---

(١) مقدمة كتاب العلاقة العربية الإسلامية سلسلة كتاب الأمة (ص١٨ و١٩).
(٢) أرجو أن لا أكون أخطأت التاريخ ولا اسم الرابطة.

وهكذا ضاع الأمل مني مرة أخرى، وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل.

وأقول: إن ما سعيتُ له كان اجتهاداً شخصياً مني، إذ كان المؤلف ـ رحمه اللَّه تعالى ـ واثقاً ممَّا كتب مطمئناً إلى ما ترجم، اجتهد غاية الاجتهاد في التوثيق والتمحيص، وأذكر أنني استأذنته حال حياته في أن يكتب أحد كبار القادة العسكريين الأفذاذ[1] مقدمة كتابه (قادة فتح الأندلس)، ولكنه ـ رحمه اللَّه تعالى ـ اعتذر، رغم تقديره الكبير لصاحبه الراغب في كتابة المقدمة، والذي قال لي حين طلبت إليه كتابتها: إنه لشرف لي أن يقرن اسمي باسم اللواء الركن محمود شيت خطاب في كتاب واحد. لكن اللواء الخطَّاب قال لي معتذراً: أحب أن يقدمني علمي وكتابي....

والحمد للَّه أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على سيد الوجود المبعوث رحمة للعاملين. والرحمة والرضوان للقائد الفذ والعلامة المؤرخ المجاهد، والداعية المخلص اللواء الركن محمود شيت خطاب، والشكر كل الشكر للعم الكريم والمحسن الفاضل ورائد العمل الخيري الإسلامي معالي الشيخ الأستاذ يوسف الحجي (أبو يعقوب) حفظه اللَّه تعالى ذخراً للإسلام وللمسلمين[2].

محمد فاروق البطل
أستاذ في قسم الدراسات الإسلامية بجامعة
الملك عبد العزيز سابقاً
جدة ٢١٥٤١ ص ب ٤٢٠٥٦
جوال ٠٠٦٦٥٠٤٥٢١٢
ـ هاتف وفاكس ٠٠٩٦٦٢٦٤٤٣٨٤٩ ـ

---

(١) إنه المشير الركن الرئيس عبد الرحمٰن.
(٢) هذا ما كتبته لطبعة الكويت الأولى والذي لم يُنشر بكل أسف. واقتُصر على نشر مقدمة معالي الشيخ الحجي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد للَّه رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وآله وأصحابه ومن دعا بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدِّين وبعد.

كتاب «قادة فتح بلاد الروم» الذي بين أيدينا من تأليف أحد أبرز رموز الفكر الإسلامي الصحيح في العصر الحديث والقادة العسكريين المخلصين هو اللواء الركن محمود شيت خطَّاب ـ رحمه اللَّه ـ، وهو آخر كتاب خطه بيده قبل رحيله، وقد تميَّز هذا الرجل بكتاباته العميقة والمدروسة في فنون الاستراتيجيَّة العسكريَّة، إلى جانب تدينه وتميزه في مجال الفكر والأدب والثقافة، فقد كان ـ يرحمه اللَّه ـ عالماً مسلماً سخر قلمه وفكره في مجال الدعوة إلى اللَّه. . ، ورغم رحيله، إلا أن كتاباته ستظل نبراساً يضيء للأجيال القادمة سبيلهم، ويبصرهم بحقيقة التاريخ الإسلامي وقادته العظام الذين أبلوا بلاء حسناً في سبيل إعلاء كلمة اللَّه.

واللواء الركن رحل عن دنيانا عام/ ١٩٩٨م/ وترك لنا موروثاً علمياً عظيماً، إذ بلغت حصيلة تصانيفه الرائعة أكثر من مائة وعشرين[1] كتاباً منها الرسول القائد ـ الوجيز في العسكريَّة الإسرائيلية ـ حقيقة إسرائيل، دراسات في الوحدة العسكريَّة العربيَّة ـ أهداف إسرائيل التوسعية في البلاد العربيَّة، طريق النصر في معركة الثأر، الأيام الحاسمة قبل معركة المصير وبعدها،

---

(١) سبق أن صححتُ عدد كتبه وأبحاثه في مقدمتي، والتي ضبطُها كما وردت في مذكراته التي خطَّها بيده. والتي لم تُنشَر، ونسختها الوحيدة الأصلية هي ما احتفظ به أمانة عندي، وسأنشرها قريباً بإذن الله.

بين العقيدة والقيادة، الإسلام والنصر ـ وعدالة السماء تدابير القدر، تاريخ جيش النبي، دروس عسكريَّة في السيرة النبوية، غزوة بدر الكبرى، العسكريَّة العربيَّة الإسلاميَّة، المصطلحات العسكريَّة في القرآن الكريم، الصدِّيق القائد، الفاروق القائد، عمرو بن العاص، خالد بن الوليد المخزومي، قادة فتح المغرب العربي، قادة فتح مصر، القتال في الإسلام، جيش النبي، العدو الصهيوني والأسلحة المتطورة، التصور الصهيوني للتفتيت الطائفي، التدريب الفردي ليلاً، القضايا الإدارية في الميدان، تعريف المصطلحات العسكريَّة وتوحيدها المجمع العسكري الموحد، الشورى في المواثيق والمعاهدات النبوية، ومضات من نور المصطفى، قادة فتح بلاد الجزيرة، قادة فتح فارس، إرادة القتال في الجهاد الإسلامي، الشورى العسكريَّة النبوية، قادة فتح السند وأفغانستان، قادة الفتح الإسلامي النبوية، قادة النبي، قادة فتح السند وأفغانستان، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النَّهر، قادة الفتح الإسلامي في بلاد إرمينيا، سفراء النبي ﷺ، عقبة بن نافع الفهري، قادة فتح بلاد الشَّام، قادة فتح بلاد الرّوم، قادة فتح بلاد الأندلس، الرسالة العسكريَّة للمسجد، دروس في الكتمان، أسباب انتصار الرسول القائد، التوجيه المعنوي للحرب ـ الرقيب العتيد ـ اليوم الموعود. أقباس روحانية، نفحات روحانية، السفارات النبوية، أسرار الحرب العالمية الثَّانية، الأمثال العسكريَّة في كتاب «مجمع الأمثال» ـ أهمية توحيد المصطلحات العسكريَّة.

وله عدد كبير من الأبحاث والمقالات المنشورة في معظم الصحف والمجلات العربيَّة والإسلاميَّة.

وُلد الراحل في مدينة الموصل، ونشأ في بيئة إسلامية ملتزمة، درس العسكريَّة في العراق وبريطانيا، وشارك في حرب/٤٨/، وتقلد مناصب مهمة، وشارك في عضوية لجان عربية وإسلامية عديدة، وله العديد من المؤلفات العسكريَّة واللغوية والفكرية.

زار الكويت في أواخر سنة/١٩٦٩/ وألقى سلسلة من المحاضرات

منها «إدارة القتال» وعبَّر عن قناعته بأن الحكومات العربيَّة غير جادة في محاربة إسرائيل، ومن هنا كانت الهزيمة الكبرى وضياع المقدسات، وإنتهاك الحرمات ـ في وجهة نظره ـ.

ولقد وجدنا من الحكمة البالغة، أن نطبع هذا الكتاب لأهمية مادته العلمية، وما يمكن أن تحققه من إضافة نفيسة للمكتبة العربيَّة والإسلاميَّة، على أن يكون رَيْع الكتاب لصالح أسرة اللواء الركن محمود شيت خطاب طيب اللَّه ثراه.

رحم اللَّه الأخ العزيز اللواء الركن محمود شيت خطَّاب، وأسكنه فسيح جناته، ونفعنا اللَّه بما تركه من آثار عملية وفكرية واستراتيجيَّة عظيمة.

يوسف جاسم الحجي
رئيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية

قادة فتح بلاد الرُّوم

تأليف

محمود شيت خطّاب

اللواء الركن

الجزء الأول

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

[سورة الرّوم ٣٠: ١ ـ ٥].

المقدمة
جيش المسلمين في عهد بني أُمَيَّة

الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين. من فضل الإسلام على العرب أنه وحَّد كلمتهم وجمع شملهم ووجَّههم إلى الفتح، فاستطاعوا في زمن قصير أن يقضوا على الإمبراطورية الفارسية ويفتحوا أكثر مستعمرات الإمبراطورية الرومانية، ثم ساروا شرقاً حتى حدود الصين وغرباً إلى قلب فرنسا.

وقد اطّرَدَ الفتح على عهد الخلفاء الراشدين، وتمّ على عهد الأُمويين. أما العباسيون، فلم يستطيعوا ضمّ ممالك واسعة إلى البلدان المفتوحة، وكان همّهم منصرفاً إلى المحافظة على مملكتهم الواسعة الموروثة عن الأمويين.

والممالك التي تمّ فتحها على عهد الأمويين، أكثر سعةً من الممالك التي فتحها الخلفاء الراشدون، ومع ذلك ضنّ المؤرخون على الجيش الأموي بذكر أعماله ومآثره تفصيلاً كما فعلوا في التحدث عن جيش الخلفاء الراشدين والعباسيين.

ولقد بدأ تدوين التاريخ في العصر الأول من الدَّولة العباسية، ولم تكن تلك الظروف مساعدة على الإشادة بمآثر الأمويين، فلم يُسجل عن جيشهم إلاّ نتفاً ولمحات متفرقة هنا وهناك. أما المؤرخون الذين جاؤوا

بعد ذلك العصر، فاقتصروا على نقل الأخبار التاريخية عن تلك المصادر القديمة، لهذا وجد المؤرخون المعاصرون أنَّ الحديث عن الجيوش الإسلاميَّة في جميع عصورها ميسور في مئات من المصادر التاريخية، إلاّ الجيش الأموي، فأخباره قليلة مرتبكة بالقياس إلى ما كتب عن الجيش الإسلامي في زمن الرسول عليه الصّلاة والسّلام والخلفاء الراشدين وفي زمن العباسيين، بل في جيوش الدويلات التي ظهرت بعد ضعف العباسيين أو بعد انقراضهم، وبقي الجيش الأموي مظلوماً حتى اليوم.

وقد أمضيت زمناً أجمع فيه كلّ ما يتّصل بهذا الجيش من أخبار في المصادر التاريخية القديمة والحديثة، وأتحرّى صحّتها في مظانِّها، حتى اجتمعت لديّ مادَّة لا تخلو من فائدة، لعلّها تلقي ضوءاً على مآثره التي لم تقابل بما تستحقه من تقدير.

وسأقتصر على ذكر النَّواحي الفنية في الجيش الأموي: تنظيمه، وتسليحه، وأساليب التجنيد فيه، وتعبئته، وقضاياه الإدارية.. تلك النَّواحي التي يمكن أن تكون جديدة في أساليب البحث في أمر هذا الحيش. أما تاريخ قواده، فقد ورد أهمها في هذا الكتاب، كما ورد قسم منها في أجزاء قادة الفتح الإسلامي الأخرى.

التجنيد والنفير

١ ـ شروط القبول للجندية:

لا يُقبل في جيش المسلمين إلاّ من توفّرت فيه أربعة شروط: ـ

أ ـ البلوغ: ولا يقتصر على الرجال، بل يشمل النساء أيضاً، فقد استصحب الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام النساء في غزواته، واشتهرت منهن نَسِيْبَة الخزرجية التي قاتلت في غزوة (أحد) حتى جُرحت، واشتركت في كثير من الغزَوات، وكان لها شرف المشاركة في قتل مسيلمة الكذاب في زمن الخليفة الأول. ولم يعترض أحد على

اشتراك النساء في الحرب على عهد الراشدين والأمويين. فلمّا جاء العباسيون، أضاف بعض الفقهاء إلى شروط الخدمة العسكريَّة شرطاً خامساً، اقتضته بواعث تبدل الزمن، وهو (الذكورة)، واعتبروا سنّ البلوغ السادسة عشرة. ولكن للنساء في القتال واجبات إداريّة أخرى لعلّ أهمها: التمريض وإعداد الطعام، وإرواء المقاتلين....... إلخ.

ب ـ الإسلام: ليدافع الجندي عن بلاد الإسلام عن عقيدة وإخلاص.

ج ـ السلامة: تمتّع الجندي بالصحة الكاملة والعقل السليم، ومن أسباب العجز عندهم المرض المزمن والعمى.

د ـ الإقدام: وهو أن يكون الجندي قويّ البنية، عارفاً بالقتال واستخدام سلاحه، متحملاً مشاقَ السفر، غير جبان.

٢ ـ أنواع الخدمة:

يتألف الجيش من عنصرين مهمين:

أ ـ المجاهدون: وهم المتطوعون، ونظام الجهاد يشبه (النظام الإلزامي)، فما كان يخطر على بال المسلمين أن يتخلّفوا عن الجهاد إذا دعاهم داعي الخليفة، أو خطب فيهم، أو استنفرهم، أو أنفذ إليهم أو إلى رؤسائهم الكتب والرسائل، أو ركزت راية الجهاد في مسجد رسول اللّه ﷺ، أو في المساجد الأخرى، وكان يكفي أن يقال: إنّ هذا الرجل (مُتَخَلِّف)، ليكون هذا التوبيخ أمضى من السيف فيهم، وأشدّ عاراً عليهم وعلى أهليهم من أي عار آخر، ومبدأ الجهاد تنص عليه الآية الكريمة: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[1]، وتأويل؛ خفافاً وثقالا: شيوخاً وشباباً،

(١) الآية الكريمة في سورة التوبة (٩: ٤١).

وأغنياء وفقراء، وركباناً ومشاة، وذوي عيال وغير ذوي عيال[1].

ولم يكن المجاهدون مم يشملهم العطاء، ويغلب أن يجري استخدامهم خارج حدود الممالك الإسلاميَّة، وكان لهم في حماية الثغور أثر محمود، أما استخدامهم في القتال، فيغلب أن يجعلوا في جناحي القوة، وحينئذ تكون واجباتهم الإحاطة بجناحي العدو دون أن يختلطوا بالجنود النظاميين المدربين تدريباً خاصاً، ولا يخفى ما في ذلك من الاحتفاظ بالضبط العسكري وتنفيد الأوامر: لأن المعروف عن القبائل أنهم شجعان مساعير، ولكنهم متهورون، ثم هم لا يعرفون الخدع الحربية ولا فنون القتال، أو يوكل إلى المجاهدين أمر الإغارة على العدو قبل نشوب القتال، لإزعاجه في بلاده، وعرقلة تحشده وتخريب مداخره وقطع خطوط مواصلاته، كما يوكلون إليهم أمر المطاردة عند تقهقر العدو، وهنا تبرز خصائص المتطوعين على أتم ما تكون شجاعة وإقداماً واندفاعاً.

ب ـ المرتزقة: وهم الجنود النظاميون، وقد سماهم القدماء: (أصحاب الديوان)، ويفرض لهم العطاء من بيت المال. ويمكن أن نعدّ المرتزقة كالجيش الدائم الذي يكون الاحتفاظ به ضرورياً لصد عادية المغيرين حتى يتم تحشّد المجاهدين.

٣ ـ عدد الجيش:

لم يكن العرب قبل الإسلام يهتمون بالإحصاء، ولم يكونوا يعرفون عنه شيئاً. فلمّا جاء الإسلام، أحصى الرسول ﷺ أصحابه، واقتدى الخلفاء الراشدون به، فلم يكتفوا بتدوين المحاربين وحدهم، بل أثبتوا المواليد والوفيات أيضاً، وذكروا الهويات المفصلة، لكل نسخة في سجلّات خاصة دقيقة، حتى كان العطاء من بيت مال المسلمين يصل إلى الراعي في جبال صنعاء.

---

(١) انظر الكشاف للزمخشري (٢/ ٣٤).

وقام الأمويون بالإحصاء أيضاً، فعرفوا بالضبط عدد المسلمين الذين يمكن أن يدعوا للجهاد في النفير العام، وعددهم في كل قطر لدعوتهم في النفير الخاص؛ واعتبروا عدد الجيش من الأسرار الحربية، لا تتسرب المعلومات عن عَدَده إلى الخارج، وكان (ديوان الجيش) يسهر على حفظ أسراره، لذلك كان من الصعب جداً معرفة عدد الجيش الأموي، إلاّ إذا تتبعنا المواقع الشهيرة التي خاضها للفتح أو لإخماد الثورات أو لصد الغارات.

وقد بلغ عدد الجيش في معسكر البصرة ثمانين ألفاً، وفي الكوفة ستين ألفاً، وبلغ عددهم في معسكر الفسطاط أربعين ألفاً، وكان جند الشَّام نحو ذلك. أما المراكز العسكريَّة الأخرى كالقيروان وواسط والموصل وحماة والثغور الكثيرة، فلا نعرف عددهم فيها، ولا بدّ أن يكونوا على درجة من القوة يستطيعون معها ردّ العدو على أعقابه والمحافظة على الأمن والنظام.

ولقد جهّز يزيد بن المهلب عشرين ومئة ألف جندي من المرتزقة في حملته على جرجان وطبرستان، عدا الموالي والأتباع والمتطوعة الذين بلغوا أضعاف هذا العدد.

يمكن بعد هذا تكوين فكرة عن عدد الجيش الأُموي، فلم يقلّ عدده عن نصف مليون من الجند النظامي، أما عدده مع المجاهدين فيشمل القادرين على حمل السِّلاح من المسلمين كافة.

٤ ـ النفير:

يقسم النفير إلى قسمين تبعاً لحالتين:

أ ـ في حالة الدِّفاع: أي عند اعتداء عدو خارجي على جزء من البلاد الإسلاميَّة، فحينئذٍ يكون النفير عاماً، فلا يستطيع التخلّف عن الجهاد مسلم إلاّ ويرمى بالنفاق ويعاقب بأشد العقاب.

ب ـ في حالة التعرض: أي في حالة دعوة قسم من الأمة للفتح من

قبل الخليفة أو عامله، وحينئذ يكون النفير خاصاً، وقد يكون النفير عاماً في حالة تعرض جسيم.

فما أشبه أنظمة النفير هذه بأحدث الأنظمة لأحدث الجيوش مع زيادة القوة المعنويّة زيادةً لا تدانيها القوة المعنويّة في أي جيش كان! تلك المعنويّة التي تجعل المجاهد حين تحضره الوفاة في ساحة القتال يردد قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾، ثم لا تقام التعازي عليه عند أهله، وتردهم التهاني من كل مكان.

٥ ـ استعراض الجند:

كان الرسولُ ﷺ، والخلفاء الراشدون، يستعرضون جنودهم قبل إرسالهم للقتال، حتى يعرفوا نواقصهم، ويعملوا على إكمالها.

أما خلفاء بني أمية، فكانوا يعرضون الجيوش بأنفسهم: يتفقدون الجنود، ويسألون عن حالهم وعن عشيرتهم، كما يتفقدون أسلحتهم ومعداتهم وخيولهم: ويفحصون أزياءهم: وكانوا يكرّرون العرض في الأعياد وقبل شروعهم في الحملات الحربية، ولا يغفرون ذنب المتقاعس عن سلاحه وحسن هندامه ونظافة جواده ومُداراته.

وكان الخليفة أو القائد أو العامل يجلس أو يركب جواده، وعليه الدرع والخوذة، كأنه في استعداد للحرب، فينادي المنادي بأسماء القواد أولاً، فيمرون أمامه، فيتفقد أفراسهم وعدّتهم، ثم يُدعى بعد ذلك أصحاب الرسوم على مراتبهم، فيعرض آلاتهم التامة وخيلهم، ويحاسبهم على كل ما يحتاجه الفارس أو الراجل من أصغر آلة إلى أكبرها، فمن أخلّ بإحضار شيء منها حرموه رزقه، فيكون ذلك بمثابة التغريم.

التنظيم والتسليح

١ ـ المناصب والرتب:

أصغر رتبة في الجيش، هي رتبة الجندي البسيط، وتكون سلسلة

القيادة كما يلي:

العريف: على عشرة جنود.

النقيب: على مائة جندي، فيهم عشرة عرفاء.

القائد: على ألف جندي، فيهم عشرة نقباء ومائة عريف.

الأمير: على عشرة آلاف جندي، فيهم عشرة قواد ومائة نقيب.

وهناك منصب (خليفة الأمير) و(خليفة أمير التعبئة)، كأمير الميمنة والميسرة والساقة، وهم بمثابة ضباط الركن للأمراء، ويقومون بواجبات ضباط الركن المعروفة نفسها، وكان الخليفة هو القائد الأعلى، لأن الجهاد من شروط الخلافة.

والمراتب والقدمات الإدارية التالية، ترافق كل جيش يعهد إليه واجب خاص.

الرائد: وهو الذي يرتاد المواضع الموافقة لنزول الجيش.

صاحب الأقباض: وهو الذي ينتهي إليه حفظ الغنائم وقسمة الفيء.

كتيبة الميرة: وهي المكلفة بتيسير حاجات الجيش من الميرة والأعتدة.

الوازع: وهو الذي يتقدم الصف فيصلحه، ويقدم ويؤخر (واجبات الانضباط ونقاط السيطرة على السابلة).

السعاة: وأكثرهم من الهجين، لضمان المواصلات الداخلية.

الأطباء: لمداواة الجرحى.

الصيادلة: لتركيب الأدوية وإعدادها.

البياطرة: لمداواة الخيل التي يركبها الفرسان والإبل والبغال التي تحمل المستشفيات والجرحى، وتقلّ العيال والنساء.

٢ ـ صنوف الجيش:

أ ـ الفرسان: يؤلفون الصنف الأساس في الجيش. أما في السلم، فكان سباق الخيل أهم تسلية للناس، فتقام حلبات السباق، ويحضرها ناس من مختلف الطبقات، وتجري فيها ضروب من ألعاب الفروسية، وتقدم الجوائز للمبرزين، تقوية لروح الفروسية وتحسيناً لإنتاج الخيل. وكان الخلفاء والأمراء والقادة وأفراد الشعب يشتركون في هذه السباقات، كما اشترك هشام بن عبد الملك في بعضها بأربعة آلاف من خيله. ومن ذلك نستدلّ على أنّ معرض الخيل الذي يقام كلّ سنة في الجيش العراقي وغيره من الجيوش العربيّة والإسلاميّة، له سابقة عند أجدادنا. وقد بلغت العناية بالخيل حداً يجعل الرجل يسمي فرسه. ويؤثره على نفسه، ثم يبيت طاوياً. كما خصّص الخلفاء مهرة المدربين للخيل، بإشراف هيئات خاصة مسؤولة عن تدريب الركائب وجعلها مطاوعة لرغبات الفارس، مدربة على اجتياز الموانع المختلفة وعلى الإقدام في الحروب دون أن يعوقها عائق.

أما في الحرب، فكانوا يحشدون أكبر عدد ممكن من الخيل، للاستطلاع والحماية، ويسمونها (الطلائع)، وفي الحملة أو ما نسميه (بالهجوم الراكب)، وفي الغارات والمطاردة، مستفيدين من قابلية الخيل على الحركة، بعكس الرّوم والفرس الذين كانوا يستخدمون خيَّالتهم في الصفوف الأماميَّة والخلفية، فيؤدي استخدامها في الصفوف الخلفية إلى تحديد قابليتها على الحركة، أما الهجّانة، فهم الفرسان الذين يركبون الهجين، وأسلحة الفرسان السيوف والرماح والحراب، ويلبسون الدروع.

ب ـ الرجل أو الرجالة: وهم المشاة، يتسلحون بالسيوف والحراب والرماح والمزاريق والقسيّ والسهام، ويلبس بعضهم الدروع، ويحمون رؤوسهم بالخوذ، ويتقون ضرب السيف وطعن الرمح بالدرق والحجف والجنن، وكان آمروا وحدات الرجالة يركبون الخيل، قال الجاحظ وقائد الرجالة لا يكون إلا فارساً.

ج ـ المنجنيقيّون: وهم رماة المنجنيق، والتاريخ يحدثنا أن الرسولُ ﷺ استفاد من المنجنيقات في حصاد مدينة الطائف، كما استخدمت على عهد الخلفاء الراشدين، إلاّ أن الأمويين تفنّنوا في صنعها واستخدامها، فأصبحت أشدّ تأثيراً وأكثر أهمية وأعظم فتكاً.

والمنجنيقات أنواع: منها لرمي السهام والنبال، ومنها لرمي الحجارة الضخمة لهدم الحصون، ومنها لرمي كرات النفط المشتعلة وقنابل النُّحاس والزّجاج المملوءة بمادَّة متفجرة مشتعلة من النفط الأبيض والكبريت، ومنها لرمي قنابل دخان وقنابل خانقة مركّبة من الأفيون والزرنيخ والبنج الأزرق والنورة. وقد كان واجب المنجنيقيين قديماً، كواجب المدفعية في الجيوش الحديثة.

د ـ النشابون: ويطلق عليهم النشابة أيضاً، وهم الذين يرمون النشاب. وقد أجمع المؤرخون على أنّ العرب أمهر المقاتلين بالقوس. ومهارتهم في ركوب الخيل، وإتقانهم رماية النبال، من العوامل التي ساعدتهم على الفتح. وكان من تشجيع الإسلام للرماية وركوب الخيل أن جعل المراهنة في الرماية وسباق الخيل أمراً مشروعاً بشروط مستوعبة في كتب الفقه.

هـ ـ النفاطون والزراقون: وهم الذين يرمون النفط بالنفاط لإحراق الحصون، ويقذفون بالنار اليونانية، وهي مركبة من مواد مشتعلة تقذف على العدو بأسطوانات نحاسية مستطيلة.

و ـ الدبابون: وهم الذين يستخدمون الدبابات التي تتقدّم مع المشاة لإعانتهم على التقرب إلى مسافات قريبة جداً من العدو، حتى تلتصق هذه الدبابات بالأسوار وشرفات الحصون، لقذف الحجارة عليها، أو قذفها بكرات النار المشتعلة، أو رشق حماتها بالنبال، . ومجالدتهم بالسيوف أو الرماح.

وكانت الدبابات تسير على الدواليب، ويدخل بعض الجنود في داخلها، كما يحتمي الآخرون بجوانبها. وكان القوّاد يخصِّصون عدداً من الفَعَلة (المهندسين)، فيسيرون خلفها، ليسوّوا طريقها، ويساعدوها على اجتياز الموانع التي يضعها العدو في سبيلها، وكانوا يحيطون الدبابات بالجلود السميكة وبأنواع خاصة من الخشب القوي، لحماية الجنود من الأسلحة المعادية.

ز ـ الفعلة: أو من نسميهم (بالهندسة)، ومنهم أصحاب الفؤوس والمجارف وآلات قلع البنايات، ومنهم الذين يزيحون الثلج عن الطرق ويحفرون الخنادق ويعقدون الجسور على الأنهر، ومنهم الذين يبنون (الموانع) الدائمة على رؤوس الجبال والذين يشيدون القناطر على الجداول، ومنهم الذين يحسِّنون المسالك والسبل ويشقّون الطرق. وكانوا يستفيدون من جلود الغنم المملوء تراباً بدلاً من أكياس الرمل، ويفرشون الساحة الأماميَّة بينهم وبين العدو بحسك الحديد الذي وصفه صاحب الإفصاح: بأنه من أدوات الحرب، وربما اتخذ من حديد، وألقي حول العسكر (المعسكر)، وهو يشبه الأسلاك الشائكة، كما تشبه واجبات الفعلة أعمال سلاح الهندسة في جيش حديث.

ح ـ الأطباء والبيطريون والصيادلة والممرضون: يرافق هؤلاء الفنيون الجيش في أسفاره وفي الخدمة الفعلية، وهم خاصّون بالجند. وكان في الجيش مستشفيات سيّارة يحملونها على الجمال والبغال. أما الممرضات فلا يدخلن تحت الحصر، لكثرتهنّ من المجاهدات. وأول من اتخذ المحامل للجرحى هو الحجاج بن يوسف الثقفي، كما جاء في كتاب: وفيات الأعيان نقلاً عن الجاحظ في كتاب: البيان والتبيين.

ط ـ رجال الأساطيل البحرية: لم يعن العرب بالحروب البحرية قبل الإسلام لبداوتهم، إلاّ ما كان من سفائن حِمْيَر وسَبَأْ، غير أنّ الإسلام شجَّع على ركوب البحر، فكان أول من ركب البحر في عهد عمر بن

الخطّاب أبو العلاء الحضرمي والي البحرين، وفي زمن عثمان تمَّ فتح (قُبْرص)، فأصبحت قاعدة للمسلمين في البحر الأبيض المتوسط.

وزاد اهتمام الأُمويين بالبحر منذ أوّل نشوء دولتهم، فأنشؤوا داراً خاصة ببناء السفن، واستطاعوا فتح (رودس) و(صقلية) و(كريد) و(ساردينيا) وجزائر البليار وغيرها من الجزر، كما هاجموا (القُسْطَنْطينيَّة) بحراً مرات عديدة وحاصروها مُدداً طويلة.

وقد عملوا على حماية السفن من تأثير الأسلحة المعروفة، بإحاطتها بالجلود القوية التي لا تنفذ فيها السهام، وطلوا هذه الجلود بمواد خاصة تحول دون اشتعال النار فيها، كما اصطنعوا للبحارة ثياباً خاصة لا تحترق.

إنّ للمسلمين فضلاً على جميع الأمم البحرية، فمنهم اقتبسوا صناعة السفن وأدخلوا عليها التحسينات، حتى لقد غزا الأوروبيون الاصطلاحات البحرية العربيَّة وأدخلوها في لغاتهم، ولا تزال تلك المصطلحات تحتفظ بعربيتها حتى اليوم. ومن أمثلة ذلك كلمة (Cabble) المقابلة لكلمة (حبل)، و(Darsonal) المأخوذة عن (دار الصناعة)، وكلمة (Admiral) المأخوذة عن (أمير البحر)، وغيرها.

٣ ـ التسليح:

استعمل العرب في جاهليتهم وفي صدر الإسلام ضروباً من أسلحة الهجوم والدِّفاع، منها أسلحة خفيفة ينقلها رجل واحد ويستعملها بنفسه، ومنها أسلحة ثقيلة تنقل بالآلات أو بعدّة رجال. ومن هذه الأسلحة، ما يستفاد منه في ضرب العدوّ من مسافات بعيدة، ومنها لضربه من مسافات قريبة. ولما جاء الأمويون، أدخلوا على كثير من هذه الأسلحة تحسينات، لتكون أكثر تأثيراً، كما استفادوا من أسلحة الرّوم والفرس التي غنموها، فبرعوا في استخدامها وأنشؤوا دوراً خاصة بصناعتها في الشَّام والكوفة والبصرة. وإني ذاكر أهم هذه الأسلحة بإيجاز:

أ ـ السَّيف: من أقدم الأسلحة العربيَّة، وحسبك أن تعلم أنهم وضعوا له ولأجزائه ما يزيد على ألف اسم لا مترادف ولا متوارد، كما أورد ذلك صاحب القاموس، والسيوف أنواع، أهمها:

الصَّمْصَامة وهو السيف الذي لا ينثني، والهِنْدِيّ أو الهُنْدُوانِيّ المنسوب إلى الهِنْد، والمَشْرُفِيّ المنسوب إلى مَشَارِف الشَّام، واليَمَانِيّ المنسوب إلى اليمن، كما اشتهرت سيوف بعض رجال العرب كذي الفقار سيف علي بن أبي طالب رضي الله عنه والصَّمْصَامَة سيف عمرو بن مَعْدِ يَكْرِب.

ب ـ الرُّمْحُ: وهو عدد طويل في رأسه حربة يُطعن بها، ويتراوح طوله من خمس أذرع إلى سبع أذرع. وهو خاص بالفرسان، واستعمله العرب من القديم. وأحبَ الرماح إليهم الرماح الطوال، ويسمونها: (السُّمْرُ العوالي). ومن رماحهم: السَّمْهَرِيّ وهو الرمح الصلب، والمِزْراق وهو الرمح القصير. وقد وضعوا المؤلفات في صفات الرمح واستعمالها وصناعتها وأوصافها ممَّا يدلّ على بالغ اهتمامهم بهذا السِّلاح.

ج ـ القوس والسَّهْم: هناك أنواع كثيرة من القِسِيّ كما هناك أسماء كثيرة لها ولأقسامها تجدها في كتاب لطائف اللغة[1].

د ـ التِرْسُ: ويستعمل للوقاية من طعن السيف والرُّمح والسِّهام، والأتراس أنواع، منها: الترس المسطّح ويُتقى به من الرمح، والترس المستطيل ويُتقى به من النشاب، والترس المُقَبَب للاتقاء من السيوف.

هـ ـ الدروع: يلبسها المقاتلون، فيقال لهم (الدَّارعون)، ومنها الدروع الحديد والفولاذ.

و ـ المَنْجَنِيق: أشدّ آلاتهم الحربية تأثيراً، ولا سيما في الحصار. ويتألف بصورة عامَّة من عمود طويل قوي يوضع على عربة ذات عجلتين،

---

(١) لطائف اللغة (٧٦ ـ ٧٩).

في رأسها بكرة، يمرّ بها حبل متين وطويل، في طرفه الأعلى شبكة على هيئة كيس توضع فيه الحجارة أو أواني فيها مواد نارية مشتعلة، ثم يحرّك، ويرفع العمود على جرارته بواسطة دواليب وحبال، فيدفع من الشبكة ما وضع فيها من القذائف، ويسقط على الأسوار، فيقتل أو يحرق ما يقع عليه.

وقد تفنّن بنو أُميّة في عمل المنجنيقات الكبيرة، منها (العروس) الذي كان يمتدّ فيه خمسمائة جندي، وتحمله زهاء ستين عجلة، ويرمي حجارة زنتها نصف قنطار.

ز ـ الدبابة: آلة سائرة، تُتَّخذ من الخشب الثخين، وتُغلَّف باللّبود أو الجلود المنقَّعة بالخل لدفع اشتعال النار فيها، وتركّب على عجل مستديرة، يحتمي الجنود بداخلها، وتسير في الأرضين الوعرة كما تسير في الأرضين السهلة.

ح ـ الكبش أو رأس الكبش: أصل رأس الكبش دبابة، لها رأس في مقدمتها كرأس الكبش. يتّصل بعمود داخل الدبابة، معلّق بحبال حول بكرة معلّقة بسقف الدبابة، لسهولة جرِّها. يتعاون الجنود الموجودن داخلها والمحتمون بها على ضرب السور برأس الكبش، لخرقة وضرب أبوابه لكسرها.

ط ـ أسلحة أخرى: النَّبُّوْت، وهو عصا غليظة، أحد رأسيها ثقيل، وقد يجعلون فيه مسامير حادّة. والطَرَّاد وهي الشلفة ذات الرؤوس الحادة. والخُطَّاف وهو سلاح شبيه بالفأس، والمِنْجَل وهو السيف المعقوف.

التعبئة وأساليب القتال

أهم أساليب القتال في الجيش الأموي ثلاثة: الكَرّ والفَرّ، ونظام الصّفوف، ونظام الكراديس.

أ ـ الكَرّ والفَرّ:

كان أسلوب القتال الشائع بين العرب في الجاهلية، هو الأسلوب الذي يعبِّرون عنه (بالكَرّ والفَرّ)، وذلك أنهم إذا همّوا بالقتال كروا على عدوهم، فإذا أحسّوا بضعف، فرّوا، ثمّ يعودون فيكرّون، وهكذا بلا نظام ولا قاعدة، حملةً بعد حملة، حتى يكتب لهم النصر أو الخيبة.

وكانوا يضربون (المَصَافّ) وراءهم، أي أنهم يتركون إبلهم ومواشيهم وعيالهم وأثقالهم خلفهم، حتى يكون ذلك أدعى للثبات في القتال. والتاريخ يحدِّثنا أنَّ العرب يوم (ذي قار) استكثروا عَدَد الفرس وعُدَدهم فقد جلبوا معهم عدداً كبيراً من الفيلة وكتيبتي الشهباء والدوسر والقبائل العربيَّة الموالية من تَغْلب والنَّمر وقُضاعة، فبادر قائد العرب حنْظَلة بن ثعلبة العجلي إلى قطع أحزمة الهوادج، فسقطن على الأرض، وقال: ليقاتل كلّ رجل عن حليلته، لأنهم كانوا قد اصطحبوا معهم نساءهم، ثم ضرب خيمة على نفسه، وأقسم لا يفر حتى تفر القبة. ولا يزال أسلوب الكَرّ والفَرّ معمولاً به في قتال القبائل البدوية في الزمن الحاضر، وهو أبسط أساليب القتال.

ب ـ نظام الصفوف:

لما ظهر الإسلام، ظهر القتال بالصفوف أو نظام الزحف، فقد كانت غزوات الرسول ﷺ بهذا النظام، وهو التقدم نحو العدو صفاً بعد صف، يتركون فرجات بين كل جماعة صغيرة وأخرى من الصف الواحد، ويتقدم حاملوا الرماح لصد هجمات الفرسان، وتستخدم الخيالة لحماية الأجنحة. وهذا النظام يجعل القوة مرتبة بالعمق، ويضمن للقائد احتياطاً يعالج به الطوارىء، كصد الهجوم المقابل أو ضرب كمين ما. وهو لا يختلف عن التوزيع بالعمق الذي يوصي به العسكريون في الزمن الحاضر، فما هذا النظام إلا قطع عسكريَّة منتشرة على مسافات طويلة، تسندها قطع أخرى خلفها، وتيسر لها الاحتياط الكافي لمعالجة الطوارىء.

هذا النظام كان من جملة أسباب انتصار المسلمين على المشركين أهل الكَرّ والفَرّ، وعدّ ذلك في سيرة الرسول القائد عليه الصّلاة والسّلام أسلوباً جديداً من أساليب القتال غير المعروفة، والقادة المشهورون غلبوا عدوهم بنظام جديد أدخلوه على أساليب القتال أو بأسلحة جديدة تفرّدوا بها دون أعدائهم.

ج - نظام الكراديس:

لما تكاثر جند المسلمين، عمدوا إلى نظام الكراديس، أي الكتائب.

يكون القائد العام وحاشيته في كتيبة تقوم في الوسط، يسمونها القلب، وأمامها كتيبة تسمى المقدمة، وعلى يمين الكتيبة التي في القلب كتيبة هي الميمنة، وعلى يسارها الميسرة، ووراء القلب كتيبة يسمونها الساقة، وقد يتألف كلّ قسم من تلك الأقسام من كتيبة أو عدّة كتائب بحسب القوة الموجودة. ويمثِّل القلب القسم الأكبر، والميمنة والميسرة والمقدمة والساقة تمثل قطعات الحماية، كما يتقدم هذا التشكيل لحمايته من الجبهة كوكبة من الفرسان تدعى (الطليعة) للاستطلاع والحماية، وبذلك يضمنون مصير الاقتراب والتماس دون الوقوع في خطر المباغتة. والقائد العام الذي يكون في القلب من جيشه، يستطيع التنقل من موضع إلى آخر داخل التشكيل كلِّه، حيث يترك نائبه في مقره الخاص لتلقي المعلومات، وهو بمنزلة ضابط ركن القائد يجمع المعلومات، ويخبر القائد بالمهم منها بعد تنسيقها، كما يخبر الكتائب بما يهمها من تلك المعلومات، ويضمن إيصال أوامر القائد إليها. أما القائد فيرسل القوة الكافية إلى العدو للقضاء عليه بالنسبة إلى المعلومات التي حصل عليها، فهو بهذه الحالة متّصل بأجزاء جيشه كلِّه، محافظ على الارتباط بأمراء التشكيلات، مشرف على سير المعركة، يستطيع استخدام احتياطه في المحل المطلوب.

وكانوا يجعلون في الأجنحة أهل الدربة والخبرة في الحروب، أما الطلائع، فتكون من أصحاب الخيول السريعة ذوي الكفاية العالية في الرمي والفروسية.

ولقد بلغ المسلمون الغاية في التَّرتيب وحسن النظام بالقياس إلى الأمم الأخرى، وكانوا يبنون الخطط الدقيقة، ويقومون بالعمليَّات السَّوقِيَّة الطويلة الشاقة بعد الحصول على المعلومات المفصلة الدقيقة عن العدو وعن أرضه، وصاروا يهتمون بأمر الاستعلامات والاستطلاع، كما اهتموا بالحماية، سواء أكان ذلك في الإقامة الطويلة أم في المبيت ليلة واحدة أم في أثناء المسير.

ولقد ابتدأ العمل بهذا النظام على عهد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، وظل مرعياً معمولاً به قروناً عديدة، فأخذ به الأُمويون والعباسيون من بعدهم، ولا تزال الجيوش الحديثة تسير بهديه في حروب البادية وعمليَّات الصحراء.

٢ ـ المواصلات الداخلية:

اهتم الأمويون بالحصول على المعلومات من جميع الأقطار الخاضعة للدولة الإسلاميَّة، ففي كتاب حماة الإسلام[1]: أنّ أول من عمل المنائر وعلامات الأميال على الطرق للاهتداء بها هو الوليد بن عبد الملك، فقد مسح الأمويون الأرض، وكتبوا عند تمام الميل مقدار المسافة التي تمّ قطعها، ثم أقاموا في الطرق منارات يأمن بها السارون الضلال في الصحاري والقفار أو الطرق الأخرى.

والمنائر كالأبراج العالية على المرتفعات، تنقل الإشارات عليها بإشعال النار أو نحوها، فكان يقام فيها حرّاس يوقودون النار عندما يرون

---

(١) حماة الإسلام (١/ ١٤٢).

العدو مقبلاً من جهتهم، فيوقد حرّاس تلك المنارة النار، ثم الذين يلونهم، حتى يصل الخبر إلى المكان المقصود، فيسرعون لإمداد الجهة التي أقبل منها العدو للقضاء عليه فوراً.

وقد كان هناك منظمات خاصة لإيصال البريد من مختلف الأصقاع على الإِبل والخيل، وقد أقيمت محطات خاصة على الطرق فيها موظفون ثابتون، واجبهم إيصال البريد من محطتهم إلى المحطة التي تليهم بكل سرعة، حتى أنّ الخبر كان يصل بسرعة إلى مسافات بعيدة وبمدة وجيزة بالقياس إلى سرعة الجمال والخيل، حيث يعمل كلّ موظف في البريد على إيصاله إلى المحطة التالية، فيجد الموظف المسؤول هناك مسرجاً جواده مستعداً لأخذ البريد، فيذهب به حُضْراً[1] إلى المحطة الأخرى.. وهكذا يستطيع الخلفاء والولاة والقادة الحصول على المعلومات المفصلة في حينها وإيصالها إلى جيوشهم في كل مكان.

أما في ساحة المعركة، فقد سبقت الإشارة إلى وجود السعاة في كل جيش، وأكثرهم يمتطون الإبل أو الخيل لضمان المواصلات الداخلية بين كتائب الجيش المقاتل، حيث يأتون بالرسائل إلى خليفة الأمير أو خليفة أمير التعبئة أو من نسميهم (ضباط الركن) في الزمن الحاضر، فيقوم بتنسيق المعلومات وتبليغ القائد أو الخليفة بالمهم منها، وتوزيعها على الكتائب الأخرى عند الحاجة.

وهكذا، كانت المواصلات الداخلية متقنة في تلك العصور الخوالي، ولا يمكن مقارنتها بما كانت عليه عند الفرس والرّوم يومئذ، فقد كان من أهم أسباب إخفاقهم في المعارك فقدان التعاون بين كراديسهم الناتج عن ضعف المواصلات الداخلية عندهم.

---

(١) الحضر: عدوٌ ذو وَثْب.

القضايا الإدارية

١ ـ ديوان الجند:

أوّل مَنْ أَسَّسَ ديوان الجند هو عمر بن الخطّاب ﷺ ، دوّن فيه أسماء الرجال، وفرض أعطياتهم. وكان يشمل أسماء المهاجرين والأنصار ومَن تابعهم، بسجلات خاصة تحتوي على اسم الجندي (المجاهد) واسم أبيه مع نسبه وسنه وقدّه ولونه وملامحه وسائر ما يتميز به، لئلا تتفق الأسماء: ثم ينسب ذلك الجندي إلى (مُقَدّم) يصحبه أو (نَقيب) يرعاه ويعرفه، وكان هذا الديوان مؤلفاً من عدة أقسام للمراسلة والتسجيل والعطاء والنفقات. وواجبات هذا الديوان تشبه واجبات التجنيد والإدارة عندنا.

٢ ـ بيت المال:

أ ـ فروعه:

أولاً: ديوان الخزينة: هي بيوت خاصة بحفظ صنوف الأموال والقماش، سُجّلت مفرداتها ومقاديرها في سجلّات دقيقة، ووكلت إلى حرّاس أمناء، وهذا الديوان يشبه مديرية العينة في الجيوش العربيّة.

ثانياً: ديوان الأهراء: وتخزن فيه الغلال والمسؤولون عنه من أشهر العدول الأعفّاء، وهذا الديوان لا يختلف عن مديرية الميرة في الجيوش العربيّة.

ثالثاً: ديوان خزائن السلاح: وتحفظ فيه الأسلحة والذخائر.

رابعاً: ديوان الركائب: وفيه الخيل والإبل والماشية لتجهيز جيوش المسلمين بما تحتاجه منها، ويقوم على إدارتها جماعة خاصة بمحافظتها وتدريب خيولها، وكان بنو أمية يسمون خيلهم (عُدَّة)، لتميزها عن بقية خيل المسلمين، كما تفعل الجيوش الحديثة في ترقيم الخيل في الجيش.

ب ـ موارده:

أولاً: الصدقة أو الزكاة: وهما لفظان مترادفان، تؤخذ من أغنياء المسلمين لتوزع على فقرائهم. ومصادر الزكاة أربعة: زكاة الذهب والفضة، وزكاة الأثمار، وزكاة الماشية، وزكاة الزرع، ولكل منها أحكام دقيقة في كتب الفقه الإسلامي.

ثانياً: الغنيمة: وهي ما يكسبه المسلمون بالقتال من أسرى وسبي وأرض وأموال.

ثالثاً: الفيء: وهو كلّ ما وصل من المشركين عفواً من غير قتال، ويدخل فيه الخراج والجزية والأعشار وغيرها.

ج ـ واجبه:

إعطاء أرزاق الجنود وأثمان الخيل والمواشي والإبل والسلاح، وتقديم أعطيات المسلمين شيوخاً وشباباً وأطفالاً ونساء، وتسجيل أسماء عوائل الشهداء وأسماء الفقراء مع أسرهم لإيصال ما يكفل لهم العيش إلى دورهم، والصرف على كل ما يخص المصلحة العامَّة.

٣ ـ عطاء الجنود:

لما أسس عمر بن الخطَّاب ديوان الجند سنة ٢٥ هـ، خصّص لكل مسلم راتباً يتناوله لنفسه ورواتب لأهله وولده باعتبار أن المسلمين كلهم كانوا جنداً، حتى لقد عدّ عمر نفسه مسؤولاً أمام اللَّه إذا لم يصل إلى أي مسلم كان في جميع أقطار الإسلام الدانية والقاصية عطاؤه كاملاً، فكان

الجندي وهو يحارب في ميدان القتال بعيداً عن أهله وصغاره وعياله، لا يفكر في إعاشتهم، لأنّ رواتبهم كانت تصل إليهم كلّ شهر بصورة منتظمة.. وويل للمسؤول الذي يهمل إيصال الأرزاق إلى المسلمين من دِرّة عمر! بل، ويل للعامل أو الأمير الذي يهمل الإشراف بنفسه على توزيع أرزاق المسلمين، فلن يكون نصيبه من عمر غير العزل واعتلاء رأسه بالدِرَّة كائناً من كان!

وزيادة على الرواتب، فرض لكل فرد من كل أسرة جريبين من الحنطة في الشهر (الجريب ما ينبت في ٣٦٠ ذراعاً مربعاً من الحنطة)، وفي ذلك يقول صاحب كتاب التمدّن الإسلامي: إنّ رواتب صغار الجند في أوائل الإسلام، كانت تزيد على رواتب أنفار أجناد هذا اليوم...

وسار على هذا النظام الخلفاء الراشدون من بعد عمر، غير أنّ الإمام عليّاً سوّى بين رواتب الجنود، وكانت الرواتب قبله تبعاً للسابقة في الإسلام، وقد ظلّ العطاء باعتبار النسب والسابقة، حتى انقرض أهل السوابق، وصار الجند فئة من المسلمين قائمة بنفسها، فترتب الجند باعتبار الشجاعة والبلاء في الحرب والكفاية في القيادة.

ولما تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة، زاد في أعطيات الجنود، وكان لديه في الشَّام مركز الخلافة ستون ألف جندي، ينفق عليهم ستين مليون درهم في العام، فيلحق كل جندي ألف درهم. وظلّ العطاء أيام يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم كما كان في زمان معاوية. فلمّا جاء عبد الملك بن مروان، اضطر أن يوسع في الأعطيات ويبالغ في رواتب الجند، ليضمن تأييد القبائل المختلفة له ضد الذين ينافسونه في منصب الخلافة، وقد كثروا في زمنه، ولأجل أن يسحق الخوارج الذين كثر أذاهم على الناس عامّة وجيوش المسلمين خاصة. فلمّا شَتت شمل الخوارج، وقضى على المطالبين بالخلافة، وجّه همته إلى توسيع رقعة البلاد الإسلاميّة.

وكانوا يقدمون المنح الإضافية زيادة على الرواتب في كثير من المناسبات، فقد أنفق الحجاج بن يوسف الثقفي مليوني درهم بأمر من الخليفة على أربعين ألف جندي، سيّرهم إلى (رتبيل) ملك الرّوم، سوى أعطياتهم المخصصة لهم.

ولما تولى الوليد بن يزيد الخلافة، كثرت موارد الدَّولة، فزاد العطاء عشرة دراهم شهرياً لكل جندي. وفي أواخر بني أمية عندما كثرت الفتن، وقلّت واردات بيت المال، اضطر الخلفاء إلى تقليل رواتب الجنود إلى خمسمائة درهم سنوياً.

وكان العطاء لا يقتصر على المقاتلين، إنما يشمل أولادهم ونساءهم وجميع عيالهم، وكان العطاء دراهم وحنطة تفي بالحاجة، بل تفيض عليها.. لذلك لا يحدثنا التاريخ عن متخلِّف واحد في الجيش.

٤ ـ ضمان سكنى الجنود:

كان المسلمون في صدر الإسلام إذا فتحوا بلداً جعلوا مساكنهم في بعض ضواحيه، أو في مواضع مناسبة يختارونها، وكانوا يسمون هذه المراكز (ثُكَناً)، كما أنشأ الخلفاء الراشدون البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان. وكان المسلمون إذا فتحوا مدينة قريبة من العدو أو عند ساحل، وضعوا فيها حامية لحمايتها، ولم تكن هذه المراكز العسكريَّة إلاّ معسكرات ومضارب خيام في بادىء الأمر، ثمّ مصَّرها القواد، فتحولت إلى مدن كبيرة على مرِّ السنين.

أما ثُكن الجيش الأموي، فقد كانت كثيرة وفي أماكن متعددة، فقد سار الأمويون على أثر الخلفاء الراشدين في اختطاط المدن وتمصيرها وإنزال الجنود فيها، فاعتنوا بتوسيعها والإكثار من الأَهْراء لخزن الطعام والأرزاق والعلف، ومن بناء الاصطبلات لإيواء الخيل. ولم تزل العمارات على عهدهم سائرة على التحسن والتوسع، حتى أصبحت أمصاراً خطيرة

الشأن، زاهرة بالعلوم والفنون، زاخرة بالمقاتلين من الجنود وبالسلاح والمؤن والتجهيزات، حافلة بالعيال، مواجة بالأيدي العاملة كالفلاحين الذين يعدون الغلات والصناع الذين يعملون الأسلحة وأرباب الحرف الذين يعدّون النسيج ويخيطونه. ومن أهم المعسكرات التي أنشأها الأمويون، فأصبحت مدناً:

أ ـ مدينة واسط: بناها الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٨٣ هـ، وجعلها دار الإمارة، ولا تزال أطلالها قريبة من بلدة (الحي).

ب ـ شيراز: في جنوب فارس، بناها محمد بن القاسم، وقد وصفها ياقوت: بأنها بلد عظيم.

ج ـ المحفوظة: بناها الحكم بن العوام الكلبي، وجعلها مأوى المسلمين في الهند.

د ـ الرمكة: بناها سليمان بن عبد الملك، وهي قصبة في فلسطين، وميناؤها مدينة يافا.

هـ ـ عكسر مكرم: اختطَّها مكرم بن معزاء صاحب الحجاج في الأهواز، فأصبحت مدينة.

وأمثال هذه المعسكرات كثير، مثل: مكران، وجرجان، والبيضاء، والرصافة، والمنصورة، وقد أتى ياقوت الحموي على وصفها في كتابه معجم البلدان.

كانت هذه المراكز العسكريَّة محتوية على ثُكن لإقامة الجند واصطبلات للخيل، كما كان فيها دوائر خاصة بتسجيل موجود الجند ونفقاته وجميع المعلومات الخاصة به. وكان (الرائد) الذي ينتخب المعسكرات، من أذكى الناس وأعرفهم بالبلاد، فلم يكن انتخاب مناطق المعسكرات يجري عفواً، بل يجري بعد تدقيق طويلٍ لمعرفة خواص المعسكر من جميع النَّواحي التعبوية والإدارية، ودرجة صلاحيته للسكنى.

وكان هناك في المعسكرات مَنْ يقوم بمراقبة ضبط الجنود وحسن أخلاقهم: لأنّ الذي يعبث بالنظام أو يتعرّض لسكّان البلاد المفتوحة بسوء، يكون نصيبه العقاب الصارم. وممَّا ساعد على حسن سلوكهم تحريم الخمر، وكان الجندي لا يقيم في معسكر بعيد أكثر من أربعة أشهر على الأقل وستة أشهر على الأكثر - إذا لم يستصحب أسرته معه، أما الذين يستصحبون أسرهم معهم من الأجناد ومن العمال أيضاً، فيجدون في المعسكر أماكن خاصة يأوون إليها، وكانت راحة الجنود مضمونة، وكذلك راحة أسرهم إذا أحبوا استصحابها، كل ذلك بإشراف الدَّولة وعلى نفقتها.

٥ - إدامة الجنود بالمواد:

أ - السلاح: الغالب أنّ المجاهدين يهيّئون أسلحتهم من مالهم الخاص، إلاّ إذا كانوا من الفقراء المعدمين، فيمدّهم الأغنياء بالسّلاح، أو يجري تسليحهم من ديوان خزائن السلاح التابع إلى بيت المال الذي يقوم بتجهيز الجنود المرتزقة بالسلاح أيضاً. وهذا الديوان، يضم الأسلحة المستولى عليها من الأعداء، أو المقدمة هدية من الموسرين، أو المصنوعة للجيش في معامل الأسلحة المنتشرة في جميع البلدان الإسلاميَّة المهمة.

ب - التجهيزات: وتشمل الألبسة المختلفة والأقمشة، وتكون في ديوان الخزانة حيث توزّع على المرتزقة وعلى المحتاجين من المجاهدين في أوقات معينة، وقد أشرنا سابقاً إلى وجود معامل للنسيج والخياطة ولعمل تجهيزات الركوب والتحميل كالسّروج والهوادج، وهذه المعامل خاصة بالجيش وحده.

ج - الأرزاق والعلف: وتكون في ديوان الأهراء الذي هو فرع من بيت المال، ويشابه مستودع القاعدة في الجيوش الحديثة. وفي الحرب توزع الأرزاق والعلف يومياً على المرتزقة والمجاهدين من قبل كتيبة الميرة التي هي من ملاك كل جيش يتحرك إلى واجب ما. وواجبات هذه

الكتيبة، تشابه واجبات صنف الخدمات إلى حد كبير: نقل مواد الإعاشة والسلاح والتجهيزات، والقيام بتوزيعها.

وكان الجيش يجهز بكل ما يحتاج إليه من المواد حتى أبسطها. جاء في كتاب الفتوحات الإسلاميَّة لابن دحلان: إنّ الحجاج جهّز جيش محمد بن القاسم بكل ما يحتاجه حتى الإبرة والخيوط[1].

وكانوا يهتمون بالتكديس في المحلات المهمة التي تمر بها الأجناد، لتزويدهم بما يحتاجونه من المواد، كما يكدسون في المواقف الضرورية. فلمّا حاصرَ مَسْلَمَة بن عبد الملك بن مروان (القُسْطَنْطِينيَّة) سنة ٩٨ هـ، قام بتكديس المواد لجيشه، ولم يكتف بذلك حتى استصحب معه جماعة من الفلاحين، فزرعوا الأرض، وشيد البيوت الخشبية حول المدينة المحاصرة لسكنى الجنود وأسرهم.

وكانت إدامة المواد للجيش بشكل دقيق يدعو إلى الإعجاب[2].

---

(١) انظر التفاصيل في البلاذري (٤٢٤) وابن الأثير (٤/ ٢٠٥).
(٢) انظر التفاصيل في سيرة مسلمة بن عبد الملك بن مروان في هذا الكتاب.



الخاتمة

لا يزال البحث في تاريخنا العسكري بكراً يحتاج إلى دراسة شاملة بأسلوب تاريخي حديث، فقد سجل تاريخنا الإسلامي بأيد أمينة مدقِّقة حريصة، ولكن أسلوب تسجيلها بحاجة إلى إعادة تسجيله بأسلوب حديث بأيدٍ أمينة مدقِّقة حريصة، تحب تاريخنا ولا تعاديه، وتستنسخه بأسلوب حديث ولا تمسخه بحجة إعادة كتابته بأسلوب حديث، إذ لا مسوغ لسكوتنا عن إظهار مفاخرنا العسكريَّة مهما لاقينا من صعوبات؛ فقد أصبحت مجهولة عند العسكريين وغير العسكريين من المثقفين في البلاد العربيَّة والإسلاميَّة.

أليس من الغريب أن نسمع أنّ من مزايا الجيوش الحديثة إشراك (المجنّدات) فيها؟ بينما اشتركت النساء في جيوش المسلمين قبل ثلاثة عشر قرناً، مع الفارق العظيم بين ما قامت به مجنّداتنا ومجنداتهم من أعمال.

وقد أوجد المسلمون (الضمان الإجتماعي) للجنود قبل أن تحلم به أوروبا وأمريكا، فلا يقولنّ قائل: إنّ من مزايا هؤلاء ضمان الرواتب للجنود ولأسرهم في حياتهم وبعد موتهم، وضمان سكناهم وراحتهم في كلِّ أرض يحلّونها، فقد كان نصيب المسلمين من كلِّ ذلك أوفر نصيب.

وفي تاريخنا العسكري كثير من العبر والمفاخر، والعسكريون وحدهم مسؤولون عن إظهارها للناس، وقد أصبحت المكتبة العربيَّة عامرة

بالمصادر التي تتحدَّث عن مفاخرنا في شتَّى النَّواحي، إلاّ الناحية العسكريَّة، فإلى متى تبقى هذه الناحية مهملة، وقد فاتنا القطار من أمد بعيد؟!

والحمد للَّه الذي يسَّر لي التفرغ لكتابة سِيَر قادة الفتح الإسلامي، والشكر له على نِعَمهِ عليّ شكراً يعجز عن الوفاء بجزء يسير من فَضله، وأدعوه أن يكون عملي كلّه خالصاً لوجهه الكريم.

وصلى اللَّه على سيدي ومولاي رسول اللَّه ﷺ، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

بلاد الجزيرة وبلاد الرُّوم
قبل الفتح والإسلامي وفي أيامه

بلاد الجزيرة
جزيرة ابن عمر)

الموقع والحدود

كان العرب يسمّون بلاد ما بين النَّهرين العليا بالجزيرة، لأنّ أعالي دجلة والفرات كانت تكتنف سهولها.

وكانت الجزيرة تنقسم إلى ثلاث ديار: ديار ربيعة، وديار مُضَر، وديار بَكْر، نسبة إلى القبائل العربيَّة: ربيعة ومُضَر وبَكْر، التي نزلت الجزيرة قبل الإسلام، فعُرف كلّ من هذه الديار بقبيلته.

وكانت مدينة الموصل على دجلة، أجلّ مدن ديار ربيعة. وكانت مدينة الرَّقَة على الفرات، قاعدة ديار مُضَر، وآمِد في أعالي دجلة، أكبر مدن ديار بكر، ومدينة ديار بكر هي أقصى هذه الديار شمالاً.

على أنّ قسماً من البلدانيين العرب القدامى أطلقوا على الجزيرة اسم: أَقُور، كالمَقْدِسِيّ وياقوت الحَمَوِي، وأصل اسم: أقور غير واضح، ويبدو أنّه الاسم القديم للجزيرة.

وإذا رجعنا إلى الخريطة، تبيّن لنا أنّ دجلة والفرات في بلاد ما بين النَّهرين العليا، يستقبلان روافدهما كلّها من يسارهما، فقد كانت هذه الرّوافد تنحدر إليهما من شمالهما الشّرقي أو من الشمال. وقد شذّ عن هذه القاعدة في القرون الوسطى، انصراف ماء نهر الهَرْماس (نهر نَصِيْبِين)

الآتي من نَصِيْبِيْنِ. والهرماس رافد الخابور الكبير، فمياه الهرماس قد سكّرت فوق موضع اجتماعه بالخابور بسُكَير العَبَّاس، فبينما كان قسم من مائه يجري فيلتقي هو والخابور الذي يصبّ في الفرات عند مدينة قَرْقيْسِياء، كانت مياه نهر الهرماس نفسه تنصبّ في يمين دجلة عند تَكْريْت بعد أن تجري في وادٍ يقال له: الثَرْثَار، والثرثار نهر يخرج من الهرماس، أوّله من عند سُكَير عبّاس، يمرّ في وسط البريَة ويصبّ في دجلة أسفل من تَكْرِيت بعد أن يمرّ بمدينة الحَضَر التاريخية.

لهذا فقد عيّنت حدود الديار الثلاث هذه الفواصل المائية، فقد كانت ديار بكر، وهي سقى دجلة من منبعه إلى منعطفه العظيم في الجنوب إلى أسفل تلّ فَافَان[1] مع ما في شمالها من أرض تسقيها روافد دجلة الكثيرة التي تصُبّ في يساره غربيّ تلّ فافان.

وكانت ديار مُضَر إلى الجنوب الغربيّ، هي الأرض المحاذية للفرات من سُمَيْسَاط، حيث يغادر سلاسل الجبال منحدراً إلى مدينة عانَة مع السّهول التي يسقيها نهر البَلِيْخ[2] رافد الفرات الآتي من حَرَّان.

أما ديار ربيعة، فقد كانت في شرق ديار مُضَر، وتتألف من الأرض التي في شرقي الخابور الكبير (خابور الفرات) المنحدر من مدينة رأس العين ومن الأرض التي في شرقي نهر الهرماس، وهو النّهر المنساب في وادي الثرثار باتجاه الشرق إلى دجلة، وكذلك من الأرض على ضفتي دجلة تمتدّ بانحدار النّهر من تلّ فافان إلى تَكْرِيت، أي الأرض التي في غرب دجلة حتى نَصِيْبِيْن والتي في شرقه المشتملة على السّهول التي يسقيها الزَّابان الأسفل والأعلى ونهر الخابور الصغير (خابور دجلة).

---

(١) فافان: موضع على دجلة تحت ميافارقين يصبُّ في دجلة عند وادي الرّزم، انظر معجم البلدان (٦/ ٣٣٢).

(٢) نهر البليخ: اسم نهر الرقة يجتمع فيه الماء من عيون، ويصب في الفرات تحت الرقة، انظر معجم البلدان (٦/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧).

والجزيرة كما ذكرنا، هي البلاد التي بين دجلة والفرات، وقد ضمّوا كثيراً من البلاد الفراتيّة التي في الجانب الآخر من الفرات من برّ الشَّام إلى الجزيرة، لقربها من البلاد الجزريّة، مثل: الرَّحْبَة وغيرها. والذي يحيط بالجزيرة الفرات من حدود بلاد الرّوم، وهو طرف الحدّ الغربي الجنوبيّ للجزيرة، فيمتدّ الحدّ الجنوبي الغربي مع الفرات إلى مَلَطْيَة إلى سميساط إلى قلعة الرّوم إلى البِيْرَة إلى قبالة مَنْبج إلى بالس إلى الرقَّة إلى قرقيسياء إلى الرَّحبة إلى هِيْت إلى الأنبار، ومن الأنبار يخرج الفرات عن تحديد الجزيرة، ثم يعطف الحدّ من الأنبار إلى تَكْرِيت وهي على دجلة إلى السِنّ إلى الحديثة على دجلة إلى الموصل إلى جزيرة ابن عمر إلى آمِد، ثم يصير الحدّ غربياً ممتداً بعد أن يتجاوز آمِد على حدود إِرْمينيَة إلى حدود بلاد الرّوم إلى الفرات عند مَلَطْيَة من حيث ابتدأنا، فعلى هذا يكون بعض إِرْمينِيَة وبعض بلاد الرّوم غربيّ الجزيرة، وبعض الشّام وبعض البادية جنوبيها، والعراق شرقيها، وبعض إِرْمينِيَة شماليها.

المــدن

أولاً: ديار ربيعة

١ ـ المَوْصِل:

المدينة المشهورة العظيمة، إحدى قواعد بلاد الإسلام، قليلة النَّظير كِبراً وعظماً وكثرة خلق وسِعة رُقْعة، فهي محطّ رحال الركبان، ومنها يُقصد إلى جميع البلدان، فهي باب العراق ومفتاح خُراسان، ومنها يقصد إلى أَذَرْبيجَان. وكثيراً ما قيل: إن بلاد الدنيا العظام ثلاثة: نيْسَابُور لأنها باب الشّرق، ودِمَشْق لأنها باب الغرب. والموصل لأنّ القاصد إلى الجهتين قلّ ما لا يمرّ بها.

وسمّيت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل: وصلت بين دجلة والفرات، وقيل لأنها وصلت بين بلد سِنْجَار والحَدِيثَة، وقيل: لاتصال روافد نهر دجلة فيها.

وهي مدينة قديمة، تقع على ضفة دجلة الغربيّة، حيث تتصل روافد نهر دجلة فتؤلِّف مجرى كبيراً واحداً، ومقابلها من الطرف الشرقي نِينَوَى، وهي قاعدة ديار الجزيرة بعامَّة وقاعدة ديار ربيعة بخاصة.

وعلا شأن الموصل في أيام بني أُمية، ونصب فيها على دجلة جسر سفن يربط المدينة التي في الجانب الغربي بخرائب نِينَوَى التي في الجانب الشّرقي. وصارت الموصل في عهد مروان بن محمد آخر ملوك الأمويين قاعدة إقليم الجزيرة دون منازع، وبنى فيها الجامع الذي عرف بعدئذ بالجامع العتيق في محلة الكوّازين حالياً، ويعرف اليوم باسم: جامع المصفِّي، على اسم الحاج محمد مصفِّي الذّهب الذي جدد بناءه سنة (١٢٢٥ هـ).

والمدينة حسنة البناء ودورها بهيّة، وهي نصف مستديرة، وفي أعلى البلد قلعة عظيمة ينتظمها سور مشيّد البروج، وقد فصل بين القلعة والبلد شارع متّسع يمتدّ من أعلى البلد إلى أسفله.

ودجلة شرقي البلد، وهي متّصلة بالسّور، وأبراجه في مائها، وما زالت قطعة من هذا السّور تُرى على النَّهر اليوم بين بقايا قصر بدر الدِّين لؤلؤ (قره صراى) وباش طابية، وهو البرج الكبير المطلّ على النَّهر جنوبي عين كبريت المعروفة في الموصل.

وللبلد بربض كبير، فيه المساجد والحمَّامَات والخانات والأسواق، وفيها مستشفى كبير، وسوق يقال له: القيساريّة، وفي المدينة مدارس للعلم كثيرة.

وحول المدينة خندق كبير عميق، وكان حولها بساتين كثيرة تسقيها النواعير.

٢ ـ نِينَوَى:

قرية النّبي يُونس بن مَتّى عليه السّلام (ذي النون)، وترى أطلال

نِينَوَى بإزاء الموصل في الجانب الشرقي من دجلة على نحو كيلومترين من ضفّته. وقد كان هذا النّهر يحاذي سور نِينَوَى في أيام عمرانها، ويشقّ نهر الخُوْسَر بقاياها، فما كان في يمينه سمِّيَ: تلّ قُوينْجِق، وما كان في يساره سميَ: تلّ النّبي يونس.

وكانت نِينَوَى من عواصم الآشوريين، وفيها كان معبد الإله عشتار، وعظم شأنها في عهد الملك الآشوري سنحاريب (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق.م)، إذ وسّعها وشيّد فيها قصوراً ومعابد وثُكْنات، وحوّطها بسور وخندق، وقد ظلّت عاصمة للآشوريين إلى زوال ملكهم بيد الكلدانيين والماذيين سنة (٦١٢ ق.م).

وقد نقّب في تلّ قوينجق وهو من أقسام هذه المدينة منقِّبون بريطانيون منذ أواسط القرن التاسع عشر، وعُثر فيه على بقايا قصورها ومعابدها وكثير من آثارها، منها مكتبة آشور بانيبال التي استخرج منها نحو ثلاثين ألف رقيم طين نُقلت إلى المتحف البريطاني، وآخر حفرٍ جرى في هذا التل كان سنة خمسين وثلاثمائة وألف الهجريَّة (١٩٣١ م).

وقد عرفت نِينَوَى بهذا الاسم، لأنها كانت موضع عبادة الآلهة (نينا) منذ أقدم الأزمنة، وكانت السّمكة تُعدّ من الحيوانات المقرّبة لهذه الآلهة. ويحتمل أنّ للفَظة (نون) التي كانت تعني في الآشورية: (سمكة)، صلة بهذا الاسم على نحو ما في العربيّة واللغات السّاميّة الأخرى.

وكانت نِينَوَى محاطة بأسوار عظيمة طولها اثنا عشر ميلاً، وما زالت أطلالها ظاهرة للعيان، تبدو في سلسلة من التلال. وكانت البقعة التي تلتف حولها هذه الأسوار ليست بذات شكل منتظم يبلغ طولها زهاء ثلاثة أميال، أما عرضها فيختلف، ففي الشمال كان يبلغ نحواً من ميل، ثم يضيق حتى يبلغ عند النهاية الجنوبيَّة نحو ثلاثة أرباع الميل. وكان في هذه الأسوار خمسة عشر باباً، لكلّ منها اسم يعرف به، ولم تكن رقعة الأرض التي يكتنفها السّور مشغولة كلّها بالمساكن، بل كانت هناك حدائق تُسقى

من ماء نهر الخوسر، وساحات من الأرض. ويشكل التّلان الكبيران: تلّ قوينجق، وتل التّوبة قلعتين حصينتين، يصل السّور ما بينها.

وتل التّوبة: أحد تلول نِينَوَى، تقوم فوقه اليوم قرية نِينَوَى، وفي باطن هذا التل بقايا قسم من مدينة نِينَوَى القديمة، يضمّ بعض قصورها ومعابدها.

٣ ـ بَرْطُلَّى:

قرية كبيرة عامرة على بعد خمسة عشر ميلاً من شرقي مدينة الموصل، كثيرة الخيرات والأسواق والبيع والشراء، والغالب على أهلها النصرانية، وبها جامع للمسلمين وأقوام من أهل العبادة والتزهّد، ولهم بُقُول وخَس جيد يضرب به المثل، وشربهم من الآبار. والجامع كان يقع في جنوب شرقي برطلّى على مسافة دقيقتين للذاهب إلى كَرْمُلَيْس، وقد خرب الجامع منذ عهد بعيد، وبقيت أنفاضه التي تعرف عند أهل برطلّى بـ: مُصَلىَ.

٤ ـ باعَشِيقا:

بليدة تقوم على مسافة ستة عشر ميلاً من شرقي الموصل، لها نهر جارٍ يسقي بساتينها وتدار به عدَّة أرجاء، وبها دار إمارة، ويشقّ النَّهر في وسط البلد، والغالب على شجر بساتينها الزيتون والنخل والنارنج، لها سوق كبير، وفيه حمامات وقيساريَة يباع بها البزّ، وبها جامع كبير حسن له منارة.

ونهرها هو عين جارية، تنبع من جبل باعشيقا، وأما النخل والنارنج فلا نجدهما اليوم في بساتين باعشيقا التي تكاد تكون في جملتها أشجار الزيتون.

وإلى جانبها قرية: باحزاني. وتشتهر باعشيقا باستخلاص زيت الزيتون، وبصناعة الصَّابون منه، وهي تصدِّرهما إلى الموصل وغيرها.

٥ ـ كَرْمُلَيس:

بلدة في شرقي الموصل على بعد ستة عشر ميلاً منها، شرقي دجلة كثيرة الغلّة والأهل، بها سوق عامرة وتجار.

٦ ـ جُهَيْنَة:

قرية كبيرة من نواحي الموصل، على ضفة دجلة الغربيّة، تقع جنوبي الموصل قرب (القَيَّارة)، وهي أول منزل لمن يريد بغداد من الموصل، وعندها مَرجْ يقال له: مرج جهينة.

وقد خربت جهينة، وتعرف بقاياها بهذا الاسم أيضاً، وهي على يمين طريق السيارات القاصد من الموصل إلى بغداد، وأمامها المرج الواسع الذي ينتهي بضفة دجلة.

٧ ـ الحَدِيثَة:

وتسمى: حديثة الموصل تمييزاً لها عن حديثة الفرات، وهي بليدة على شاطىء دجلة الشرقي قرب الزَّاب الأعلى، على فرسخ فوق ملتقاه بدجلة، بينها وبين الموصل أربعة عشر فرسخاً.

وكانت قديمة عرفها الآراميون باسم: حذتا، ومعناه الحديثة، وسمّاها اليونان (Kainai) وهي بالمعنى ذاته، وكانت تعرف في أيام السّاسانيين باسم: نوكرد، ومعنى ذلك بالفارسية: البلدة الحديثة، وكانت قصبة المنطقة قبل توسع الموصل بعد فتحها، وأعاد عمارتها مروان بن محمد آخر خلفاء بني أُميّة على جرف يشرف على مناقع، وهي كثيرة الصيود، ذات بساتين وأشجار، وقد بُنيت على شبه دائرة، ويُصعد إليها من دجلة على درج، وجامعها مبني بالحجر قرب الشط. ولا أثر للحديثة اليوم.

٨ ـ السنّ:

بلدة على بعد ميل تحت ملتقى الزّاب الأسفل بدجلة على ما في

المسعودي، ولكنها على ما في المقدسي فوقه، والزَّاب الأسفل (الأصغر) في شرقيها، فوق تَكْرِيت، لها سور وجامع، وفي أهلها علماء، وفيها بِيَع للنصارى، وكان يقال لها: سِنَّ بارِمّا تمييزاً لها عن غيرها من المدن المعروفة بالسنّ. وجامع السنّ بالأسواق، بناؤه من الحجارة، ولا أثر لهذه البلدة اليوم.

٩ ـ البَوازِيج:

بلد قرب تَكريت، على فم الزّاب الأسفل، حيث يصبّ بدجلة، ويقال لها: بوازيج الملك، لها ذكر في الأخبار والفتوح، وهي من أعمال الموصل، ولا أثر لها اليوم، كما هو الحال في الحديثة والسِنّ، وتعليل ذلك أنّ أسافل الزّابين قد تبدّلت كثيراً، وكانت البوازيج تبعد عن السِنّ أربعة فراسخ شرقاً.

١٠ ـ بارِمَّا:

من جنوب السِنّ، كان الطريق إلى سامراء وبغداد يساير ضفة دجلة اليسرى مارّاً أولاً ببارِمَّا، وهي بلدة بلحف جبل بارِمَّا، ويُعرف أيضاً بجبل حمرين، وهو جبل بين تَكْرِيت والموصل. وتقع بارِمَّا شرقي دجلة، وإليها نسب السِنّ، فيقال: سِنّ بارِمَّا.

١١ ـ دَقُوقاء (أو داقوق أو طاووق):

مدينة بين أَرْبِل وبغداد، تقع على بعد نيِّف ومئة ميل من شرق السِنّ، وهي بلدة وسطة، هواؤها أصحّ من هواء بغداد، وبالقرب منها عيون نفط، يرويها نهر داقوق (نهر العظِيم) الذي ينبع من جبال كردستان قرب دربند خليفة، ويفنى ماؤه أسفل داقوق في الأرض الرملية، حيث مواضع شديدة الخطر يسوخ فيها مَنْ يحاول اجتيازها. ويصل نهر داقوق إلى دجلة في موسم الفيضان، ومجراه الأسفل هو ما يُعرف اليوم بنهر العظِيْم، فينصب في العظيم الفائض من مياه نهر داقوق وغيره، وما زالت

بقايا بعض أنهارٍ كانت تحمل هذه المياه إلى العظيم وتقع فيه فوق البند (أي سدّ العظِيم) بنحو كيلومترين عند جبل حمرين. وفي الأزمان القديمة حين كان النَّهروان حيّاً بأجمعه، كانت مياه نهر داقوق في فيضان الربيع تنصب في النَّهروان.

١٢ ـ إِرْبِل أو أَرْبِيل:

وهي أربلا القديمة، تقع في فضاء من الأرض واسع بسيط بين الزَّابين الكبير والصغير، يقصدها التجار، وقلعتها على تلّ عالٍ من التراب عظيم، ولها خندق عميق، وسور المدينة ينقطع في نصفها، وفيها سوق عظيمة، وبها مسجد يسمى: مسجد الكفّ، فيه حجر عليه كفّ إنسان. وفي المئة السّابعة الهجريَّة (الثالثة عشرة الميلادية) قامت في ربضها خارج السور مدينة كبيرة، عمرت فيها أسواق وقيساريات، وغلّتها من الحنطة والشعير فاخرة.

وترقى مدينة إِرْبِل إلى أقدم العهود الآشورية، بل لعلّها الموضع الآشوري الوحيد الذي ظلّ عامراً آهلاً ومحتفظاً باسمه حتى اليوم. واسم إِرْبِل الآشوري القديم هو: (أربا ـ إيلو) ومعناه أربعة آلهة.

وهي اليوم مدينة كبيرة عامرة، تقوم أحياؤها العتيقة على التّل الأثري العالي المعروف بقلعة أَرْبِيل، وفي أرباضه امتدّت أحياؤها الحديثة.

وفي سهل أَرْبِيل، جرت المعركة التاريخية الحاسمة بين الإسكندر الكبير ودارا ملك الفرس سنة (٣٣١ق.م)، وهي المعركة المعروفة باسم: (كوكميلا).

١٣ ـ العِمَادِيَّة:

مدينة فوق جبل (كُورِك) شمال الموصل وعلى بعد (١٦٨) كيلومتراً، تقع بالقرب من منابع الزَّاب الأعلى، وهي من أعمال الموصل، عمّرها عماد الدِّين زنكي بن أق سنقز في سنة سبع وثلاثين وخمسمائة الهجريَّة، وكانت قبلها حصناً للأكراد فخرّبوه، فأعاده زنكي وسمّاه باسمه،

وكان اسم الحصن الأول: (آشب).

وفي المدينة قلعة حصينة مكينة عظيمة لا تزال بقاياها موجودة حتى اليوم.

وقد جاء في الكتابات الآشورية اسم مدينة في موضع العِمَادِيَّة أو بالقرب منه وهي: (آمات Amat)، وأقدم ذكر انتهى إلينا، في مسلّة وُجدت في القصر الجنوبي الغربي من مدينة (نمرود) الأثرية، فيها أخبار شمسي أداد الخامس الملك الآشوري (٨٢٣ ـ ٨١٠ ق.م) وهو ابن شلمنصّر الثالث. وذكرها الملك أداد نيراري الثالث (٨٠٥ ـ ٧٨٢ ق.م) ابن شمسي أداد الخامس في مسلّة وجدت في نمرود أيضاً، وبقيت أمات مدينة معروفة حتى العصر البابلي الحديث.

١٤ ـ فيشابور أو فيشخابور:

قرية كبيرة على بعد نحو مئة وخمسين ميلاً شمال شرقي الموصل، تقع جنوبي مصب الخابور بنهر دجلة، وينبع النَّهر من جبال الزوزان المجاورة لجبال العمادية، وكان على الخابور (وهو غير خابور الفرات) قنطرة عظيمة لا تزال بقاياها حتى اليوم عند بلدة الحَسَنِيَّة (زاخو) قرب قرية حسن آغا، ولعل هذه القرية تمثِّل البلدة القديمة.

١٥ ـ الحَسَنِيَّة أو زاخو:

بلد في شرقي الموصل وعلى بعد يومين منها، تقع بينها وبين جزيرة ابن عمر ويبدو أنها مدينة زاخو الحالية، ولعلّ قرية (حسنة) القائمة بإزائها في الجانب الآخر من الخابور قد حافظت على اسم الحسينية القديم.

ولا تزال القنطرة العظيمة باقية الآثار في زاخو حتى اليوم، وكان في الحَسَنِيّة جامع، وهي بلد ذو شأن.

١٦ ـ مَعْلَثايا:

بليد يقع جنوبي زاخو وعلى بعد مرحلة واحدة منها، على طريق الموصل، وفيه جامع على تلٍ، وهو كثير البساتين، وهو من نواحي

الموصل.

١٧ ـ جزيرة ابن عمر:

مدينة ذات شأن، تعرف بالجزيرة وجزيرة ابن عمر نسبة إلى الحسن بن عمر بن خطَاب التَّغلبي بانيها، وكانت دجلة تحيط بهذه الجزيرة إلاّ من ناحية واحدة، شبه الهلال، ثمّ عمل هناك خندق أجرى فيه الماء، ونصب عليه رحًى، فأحاط بها الماء، من جميع جوانبها بهذا الخندق. تقع في شمال فِيشْخَابور على بعد ثلاث مراحل منه الموصل باتِّجاه الشَّمال، بناؤها من الحجارة، عليها سور، ولها سوق حسنة ومسجد عتيق مبني بالحجارة محكم العمل، وسورها مبني بالحجارة أيضاً، وكان من أعمالها مئة قرية ونيِّف من القرى.

١٨ ـ بازَبْدَى:

قرية تقع قبالة جزيرة ابن عمر، في غربي دجلة، وهي قرب باقِرْدَى من ناحية جزيرة ابن عمر، التي في شرقي دجلة، وهما كورتان متقابلتان، وسمِّيت الكورة باسمها، كما سمِّيت الكورة المقابلة باسم باقردى.

١٩ ـ نَصِيبِيْن:

مدينة عامرة منه بلاد الجزيرة، على جادة القوافل من الموصل إلى الشّام، فيها وفي قراها أربعون ألف بستان، بينها وبين سِنْجار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل ستة أيام، عليها سور بنته الرّوم وأتمّه أنوشروان ملك الفُرس. وهي قاعدة ديار ربيعة، تقع على نهر الهرْمَاس (نهر نصيبين)، وجبل نصيبين هو جبل الجودي الذي يقال: إنّ سفينة نوح استقرّت عليه، وهي مخصُوصة بالورد الأبيض، وتكثر فيها العقارب القاتلة، وهي وبئة لكثرة مياهها وبساتينها.

ونصيبين هي: (نسيبس Nisibis) الرومانيّة، وسمّاها جغرافيو اليونان: (سوكورس Saocores) أو (مكدونيس Mygdonius)، وما زالت

من أعظم مدن الجزيرة شأناً، ولها جامع في وسط البلدة، وبها حصن من حجر وكلس، وفيها مستشفى عام ومدارس وغير ذلك من العمارات الحسنة، وغلاتها وكرومها وفواكهها فاخرة.

٢٠ ـ رَأْسُ العَيْن:

تقع قرب منابع خابور الفرات، وهي: (رأس إينا Resaina) الرومانية، مشهورة بكثرة عيونها البالغ عددها ستون وثلاثمائة عيناً، وتجتمع هذه العيون فتسقي بساتينها وتجعلها كأنها بستان واحد. وعين الزاهريّة فيها لا يُعرف لها قرار، والناس يركبون الزوارق الصغار في مياهها ويذهبون إلى بساتينهم وإلى قرقيسياء، ويصبّ ماؤها في نهر الخابور.

لها سور من حجارة، وكان داخل السّور بساتين وطواحين، وكان لأهل المدينة نحو عشرين فرسخاً قرى ومزارع ممَّا يلي دورها، لها جامعان ومدرسة وحمّام، وبناؤها بالحجارة والجص.

٢١ ـ مارِدِين:

مدينة تقع على نحو نصف المسافة بين رأس العين ونصيبين، في شمالها القلعة الحصينة المنيعة العظيمة الصخرية: قلعة مارِدِين المشرفة على دُنيسر ودارا ونصيبين، على قمة جبل الجزيرة، وتشرف على الفضاء الواسع، وقدّامها ربض عظيم فيه أسواق كثيرة وخانات ومدارس ورُبط. ودورهم فيها كالدرج: كلّ دار فوق الأخرى، وكل درب منها يُشرف على ما تحته من الدور، ليس دون سطوحهم مانع. وعندهم عيون قليلة، وجلُّ شربهم من صهاريج مُعدَّة في دورهم، والقلعة من أحسن القلاع وأحصنها وأحكمها، وكان يقال لها: الباز، وهي معقل أمراء بني حمدان، وتقع شمالي دُنيسر بثلاثة فراسخ.

ويُصنع بمارِدِين الثياب المنسوبة إليها من الصوف المعروف بالمرعز، كثيرة الغلات والقطن والفواكه.

٢٢ ـ طُورعَبْدِين:

بليدة من أعمال نصيبين، في بطن الجبل المشرف عليها، المتّصل بجبل الجودي، وهي قصبة كورة من كور نصيبين، وفيها مخرج نهري الهرماس والخابور.

٢٣ ـ دُنِيسِر:

بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب مارِدِين، بينهما فرسخان ولها اسم آخر هو: قوج حصار، وهي مدينة ذات أسواق عظيمة، وليس بها نهر جارٍ، وإنما شربهم من آبار عذبة طيِّبة مريّة، وأرضها حرّة وهواؤها صحيح. وهي مدينة لا سور لها، تأوي إليها القوافل.

٢٤ ـ دَارَا:

بلدة في لحف الجبل، بين نصيبين ومارِدِين، كانت في أيام الرّوم قلعة عظيمة، وهي بلدة صغيرة، تُسقى من قناة تعمّ البلد وتجري فوق السّطوح وتقرّ في الجامع ثمّ تنحدر إلى وادٍ، وبنيانهم حجارة سود وكلس، ومن أعمالها يُجلب المَحْلَب الذي تتطيّب به الأعراب، وهي ذات بساتين، وفي المئة الثامنة الهجريَّة (الرابعة عشرة الميلاديّة) أصبحت قلعتها خراباً لا عمارة بها.

٢٥ ـ كَفَرْتُوثا:

قرية كبيرة من أعمال الحزيرة، بينها وبين (دَارَا) خمسة فراسخ، وهي بين (دَارَا) ورأس العين، وتقع في جنوب غربي مارِدِين على نهرها الصغير، وكانت حصناً قديماً من حصون الرّوم، فسكنها الناس ومدّنوها وحصّنوها.

٢٦ ـ ماكِسِين:

مدينة بالجزيرة من أعمال ربيعة، على خابور الفرات، بالقرب من الرَّحْبَة، عليها جسر من السفن يقطع الخابور، ويكثر فيها القطن.

٢٧ ـ عَرَبان:

مدينة بالجزيرة من ديار ربيعة بالقرب من ماكسين، عليها سور منيع، تعمل فيها الثياب القطن، وهي كثيرة الأقطان.

٢٨ ـ سُكير العبّاس:

بلفظ تصغير السَكِر، وهو اسم للسداد الذي تُسدُّ به فوّهة الأنهر، ويُرى اليوم على نهر الهرماس (نهر جغجغ) بقايا سِكر على شيءٍ يسير من ملتقاه بالخابور، كما يُرى بقايا حصون رومانيّة على جانبي النَّهر، وهي أيضاً بليدة صغيرة بالخابور، فيها منبر وسوق.

٢٩ ـ سِنْجِار:

تقع غربي الموصل وعلى ثلاث مراحل منها، في جنوبي مدينة نصيبين، وهي من أحسن المدن وجبلها من أخصب الجبال، مشهورة بالأترنج والنارنج وبها نخل كثير، والجامع في وسط البلدة، ولها سور دائرته (٣٢٠٠٠) خطوة وهو من حجارة، ويصعد إلى دورها بدرجات في سفح الجبل، وتكثر في بساتينها الكروم والزيتون والسمّاق، وهي طيّبة الهواء، وهواؤها نقيّ.

وجاء في الكتابات المسمارية ما يدلّ على أنها كانت موجودة منذ العصور الآشورية، واستولى عليها الرومان في القرن الأول للميلاد، ودارت معارك طاحنة بينهم وبين الفرس، ويبدو أنها ظلّت على شيءٍ من الاستقلال في عهد الرومان، فإنّ ملوكها ضربوا النقود بأسمائهم، وهي موجودة في المتاحف.

٣٠ ـ الحَضَر:

بلدة أثرية قديمة: لا تزال آثارها باقية حتى اليوم، وخرائب الحضر تقع غرب وادي الثرثار بمسافة أربعة كيلومترات، وعلى نحو سبعين كيلومتراً غرب الشرقاط، وعلى مئة وخمسين كيلومتراً جنوب غربي

الموصل. والثرثار يمرّ بها عند نصف المسافة بين سِنْجار وملتقاه بدجلة قرب تَكْرِيت، وأبنية الحضر بالحجارة المهندمة المربّعة.

وتاريخ هذه المدينة غامض غير معروف، فما زلنا نجهل زمن بنائها ومَنْ بناها وسبب قيامها بمفردها في البريّة الواسعة التي بين نهري دجلة والفرات. ولكننا نعرف أنها وصلت إلى أوج عزّها في أواخر المئة الأولى للميلاد، وثبتت أمام جيوش الرومان في المئة الثامنة للميلاد، ولكنها لم تقوَ على الوقوف بوجه هجوم سابور الأول السَّاساني، فقد احتلّها بعد أن حاصرها وأعمل السّيف في أهلها، ونهب قصرها ومعابدها، في نحو منتصف المئة الثالثة للميلاد.

ويظهر أنّ الحضر لم تعش بعد ذلك، وهجرها مَن بقي من أهلها على قيد الحياة.

٣١ ـ أَسْكِرْ مُوصِل أو بَلَد:

بليدة صغيرة، على أربع فراسخ من الموصل، فيها مشهد من مشاهد آل البيت، وأصبحت في المئة الرابعة الهجريَّة (العاشرة الميلادية) مدينة كبيرة، فيها قصور حسنة، وبنيانها من الحجر والجصّ، ولها أسواق، وجامعها وسط البلدة.

وهي اليوم قرية على نحو أربعين كيلومتراً شمال غربي الموصل، في ضفة دجلة اليمنى، وتقوم عند الخرائب المعروفة حالياً بهذا الاسم: أسكى موصل، وهي بقايا مدينة (بلَط) الآشوريّة التي ورد اسمها في كتابات سنحاريب الملك الآشوري (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق.م). وقامت هناك مدينة في العصر الإسلامي، سمّاها البلدانيون العرب: بَلَد، وبلَط، وقد عثر في بعض أطلالها على مسكوكات أتابكيّة إحداها تعود إلى قطب الدِّين مودود، ممَّا يدل على أنّ هذا القسم من الأطلال والسّور الذي حولها فوق التلّ القديم من المنشآت الأتابكيّة.

وعلى مقربة من أسكى موصل، قنطرة ذات طاق واحد تعرف بهذا الاسم أيضاً، ارتفاعها اثنا عشر متراً في الوقت الحاضر، وعرضها اثنان وعشرون متراً ونصف المتر، مبنية بالحجارة الكبيرة المهندمة، على بعضها حروف يحتمل أنّها يونانية، وفي وجه الطاق كتابة عربية منقورة في الحجر، ويرجّح أنها كتبت بعد إنشاء القنطرة التي يبدو من طرازها أنها رومانية، فجدّدت بعد ذلك.

٣٢ ـ تَل أَعْفَر:

اسم قلعة وربض بين سِنْجار والموصل، في غربي الموصل، على طريق الموصل ـ سِنْجار، وكان اسمها عند الآشوريين (نمت عشتار).

وهي في وسط وادٍ فيه ماء جارٍ ، والقلعة على جبل منفرد حصينة محكمة، وبها نخل كثير يصدر رطبه إلى الموصل.

بين سِنْجار وتل أعفر خمسة فراسخ، وبين تلّ أعفر وبين بلد ستة فراسخ، وأصل اسمها: التل الأعفر. للونه الأعفر، وغلالها جيدة.

٣٣ ـ المَحْلَبِيَّة:

بليدة بين الموصل وسِنْجار، قصبة كورة الفرج من تلّ أعفر. وهي اليوم من قرى لواء الموصل، قرية كبيرة كالبلدة، فيها عين وافرة الماء تعرف بـ: سرب المحلبية، تعيش فيها أسماك، وتسقي مياهها بساتين القرية التي تكثر فيها الأشجار المثمرة كالرمّان والتين والعنب والخوخ وغيرها.

وفي أطرافها بقايا بلدة إسلاميّة وتل عالٍ يعرف بتل باليوز، على سطحه كسر فخّار من أدوار ما قبل التاريخ والدور الآشوري. والمحلبية نسبة إلى المحْلَب[1]، وهو نوع من العطر، يعمل فيها.

---

(١) المحلب: شجر له حب يُجعل في الطّيب.

٣٤ ـ باعَيْنَاثَا:

أ ـ مدينة نزهة طيبة، وهي خمس وعشرون محلّة، يتخلّلها البساتين والمياه، ليس مثلها بالعراق مع رفق ورخص. تقع على الطريق الأيمن من الموصل ـ أسكى موصل ـ باعيناثا ـ نصيبين. ولا أثر لها في الوقت الحاضر.

ب ـ قرية كبيرة كالمدينة: فوق جزيرة ابن عمر، لها نهر كبير يَصُبُّ في دجلة، وفيها بساتين كثيرة، وهي من أنزه المواضع، تُشَبّه بدمشق.

٣٥ ـ بَرْقَعِيد:

بلدة كبيرة من أعمال الموصل، من كورة البقعاء، وبها آبار كثيرة، وهي واسعة وعليها سور، ولها ثلاثة أبواب: باب بلد، وباب الجزيرة، وباب نصيبين، وفيها كثير من حوانيت البيع والشراء.

وقد كانت هذه صفتها قرابة سنة ثلاثمائة الهجريَّة، أما في القرن السادس الهجري (الثَّاني عشر الميلادي) فقد أصبحت خراباً صغيرة حقيرة، وأهلها يضرب بهم المثل في اللّصوصيّة، يقال: لصٌّ برقعيدتي. وكانت القوافل إذا نزلت بها لقيت من أهلها الأمرّين، حتى تجنّبتها أكثر القوافل، لكثرة أفاعيل أهلها، فأصبحت قرية صغيرة، وهكذا جنى عليها أهلها بسوء أعمالهم.

٣٦ ـ أَذْرَمَة:

مدينة تقع في نحو نصف المسافة بين بَرْقَعِيد ونصيبين، بينها وبين برقعيد خمسة فراسخ وفيها نهر يشقّها وينفذ إلى آخرها وإلى صحرائها من عين على رأس فرسخين منها، وعليه في وسط المدينة قنطرة معقودة بالصّخر والجص، وعلى النَّهر رحى ماء، وعليها سوران واحد دون الآخر، وفيها خرابات وسوق قدر مائتي حانوت، ولها باب حديد، ومن خارج السّور خندق يحيط بالمدينة. بينها وبين سِنْجار عشرة فراسخ، وهي من أعمال الموصل، من كورة تُعرف بـ: بين النَّهرين، بين كورة البقعاء،

ونصيبين، ولم تزل هذه الكورة، وهي اليوم من أعمال نصيبين، وكانت تلك صفتها في المئة الثالثة الهجريَّة (التاسعة الميلادية).

أما في المئة الرابعة الهجريَّة (العاشرة الميلادية). فقد أصبحت قرية ليس فيها ممَّا يُوصف شيء وإليها ينسب، شرب أهلها من آبار، وبنيانهم قباب، وهكذا تبدّل حالها فكانت مدينة فأصبحت بعد مئة سنة قرية، وهي من ديار ربيعة.

ثانياً: ديار مُضَر

٣٧ ـ الرَّقَّة والرَّافقة:

الرَّقَّة مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حَرَّان ثلاثة أيام، معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي، واسمها: البيضاء، وهي قاعدة ديار مُضَر من الجزيرة، تقع فوق مصب نهر البليخ المنحدر من الشمال إلى الفرات.

وقد قامت في موضع المدينة اليونانية القديمة: (كلنيكس Callinicus) وهي: (نقفونريوم Nicephonrium)، وما اسم: الرَّقَّة العربي إلاّ نعت لها، فالرَّقَة كلّ أرض إلى جنب وادٍ ينبسط عليها الماء وقت الفيضان، ومن ثمّ فالرَّقَّة توجد في مواضع أخرى، وهذه الرَّقَّة التي على الفرات: عرفت بالرَّقَّة البيضاء تمييزاً لها عن غيرها.

وحين انتقلت الخلافة إلى بني العبّاس في المئة الثَّانية الهجريَّة (الثامنة الميلادية)، كانت الرَّقَّة من أهمّ مدن ما بين النَّهرين الأعلى، وتسيطر على تخوم الشّام، فكان على العباسيين الاحتفاظ بها. وشرع المنصور في سنة خمس وخمسين ومئة الهجريَّة (٧٢٢م)، ببناء مدينة الرّافِقَة على نحو ثلاثمائة ذراع من الرَّقَّة، ورتّب بها جنداً من أهل خُراسان الموالين للدولة الجديدة، وقد بُنيت الرّافقة على غرار مدينة السّلام: بغداد، فكانت مدينة مدوّرة.

ثمّ إنّ الرّشيد بنى قصورها وبنى له فيها قصراً سمّاه: قصر السّلام، لأنّه كان يقيم في الرّقَة أو الرّافقة إذا اشتدّ الحر في بغداد.

وسرعان ما خربت الرَّقَّة القديمة، وشيِّدت أبنية جديدة على الأرض الفضاء بين الرَّقَّة والرافقة، وقد كانت الأخيرة ربضاً لها التي بطل اسمها بمرور الزمن، وكانتا مدينتين متلاصقتين، في كل واحدة منهما مسجد جامع، وكانتا كثيرتي الأشجار.

وللرّقة حصن عريض، ولها بابان، حسنة الأسواق، كثيرة القرى والبساتين والخيرات، وفيها الصابون الجيد والزيتون، وهو الصابون الرقّي المشهور، وجامع الرَّقَّة في سوق البزازين، وبها حمَّامَات طيبة.

والرافقة هي ربض الرَّقَّة، وكان لكل بيت كبير في الرَّقَّة دكّة، وبالقرب منها خرائب مدينة قديمة يقال لها: الرقّة المحترقة.

على الرّافقة سوران بينهما فَصيل، ولها ربض بينها وبين الرَّقَّة، وبه أسواقها. وقد خربت الرَّقَّة وغلب اسمها على الرافقة، وصار اسم المدينتين الرَّقَّة.

٣٨ ـ صِفِّين:

موضع بالقرب من الرَّقَّة، على شاطىء الفرات من الجانب الغربي، بين الرَّقَّة وبالس، وعلى أرضها جرت المعركة المشهورة بين علي بن أبي طالب ﷺ ومعاوية بن أبي سفيان في سنة سبع وثلاثين الهجريَّة في شهر صفر.

٣٩ ـ قَلْعَة جَعْبَر:

تقع بين الرَّقَّة وبالس على الفرات مقابل صِفِّين على صخرة لا تُرام، وكانت تسمى: الدوسريّة نسبة إلى دوسر وهو عبد للنعمان بن المنذر، فإنّه بناها لمّا جعل النعمانُ دوسرَ المذكور على أفواه الشّام، ثمّ ملكها سابق الدِّين جَعْبَر القُشَيْرِيّ، فطالت مدّته فيها حتى عمي من الكبر، فنسبت القلعة إليه، فقيل لها: قلعة جعبر، وهي اليوم خراب ليس بها ديار.

وفي سنة سبع وتسعين وأربعمائة الهجريَّة (١١٠٤ م)، استولى الفرنج عليها في الحملة الصليبيّة الأولى.

٤٠ ـ حَرّان:

تقع حَرّان عند ملتقى الطرق التجارية في شرق الفرات ولاسيما طريق الشّام وطريق الجزيرة، قرب منبع نهر البَلِيخ، وهي مدينة الصابئيين الحرَّانيّة، وينبغي ألاّ يخلط بينهم وبين صابئة العراق اليوم، فصابئة حرّان على دين إبراهيم عليه السلام. وهي مدينة نزهة عليها حصن من حجارة حسن البناء، وسورها مبنيّ بالحجارة ومحيطه (١٣٥٠) خطوة، ولها أسواق مسقّفة ومدرسة ومستشفى عام، وفيها جامع، وما حولها من الأرض تسقيها أنهار لا عدّ لها.

وكانت حرّان (كرّها Carrhae) منذ الألف الثَّاني قبل الميلاد قاعدة إقليم كبير، وظلّت عامرة حتى المئة السّابعة الهجريَّة (الثالثة عشرة الميلادية)، حكمها الآشوريون واليونان والرومان والفرس قبل أن يفتحها المسلمون سنة ثمان عشرة الهجريَّة (٦٣٩م)، ونزلها مروان الثَّاني آخر خلفاء بني أميّة، وتبلغ مساحة أطلالها نحو ميل مربّع، يحيط بها سور خرب.

بينها وبين الرُّها يوم، وبينها وبين الرَّقَّة يومان، وهي على طريق الموصل والشّام والرّوم، وهي اليوم خراب.

٤١ ـ الرُّها:

وهي: أذاسا، وسماها العرب: الرُّها، وهو تحريف للاسم اليوناني: (كلّهو Callihoe)، مدينة تقع على إحدى روافد نهر البَلِيخ، وأكثر ما اشتهرت به كنائسها الكثيرة، وبها جامع وكانت مدينة محصّنة.

وفي سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة الهجريَّة (١٠٩٨ م) استولى عليها بلدوين وبقيت نصف قرن ولاية لاتينية، ولكن في سنة أربعين وخمسمائة

الهجريَّة (١١٤٥ م) استعادها عماد الدِّين زنكي الذي حكم سنتي (٥٢١ هـ ـ ٥٤١ هـ) من جوسلين الثَّاني.

وظلت بهذا الاسم حتى مطلع المئة التاسعة الهجريَّة (الخامسة عشرة الميلادية)، إذ أُطلق عليها اسم: (أورفا) بعد انتقالها إلى حكم العثمانيين، وما زالت تسمى بهذا الاسم حتى اليوم.

٤٢ ـ باجَدًا:

قرية كبيرة بين رأس العين والرَّقَّة، عليها سور، وكان مَسْلَمَة بن عبد الملك قد أقطع موضعها رجلاً من أصحابه، فبناها وسوّرها، وفيها بساتين تسقيها عين تنبع من وسطها، يشرب منها الناس وما فضل يسقي زروعها، وهي قرب حصن مَسْلَمَة بن عبد الملك على مقربة من شرق نهر البليخ على الطريق إلى رأس العين، وهي على تسعة فراسخ من جنوب حَرّان وعلى نحو ميل ونصف الميل من ضفة النَّهر الحقيقية.

٤٣ ـ حصن مَسْلَمَة:

حصن مَسْلَمَة بن عبد الملك بن مروان، أحد قادة الفتح الإسلامي، ومن أكبر قادة بني أمية، وهو بالجزيرة بين رأس العين والرَّقَّة، بناه مَسْلَمَة على قدر جريب من الأرض (ما يعادل ثلث إيكر)، وارتفاعه في الهواء أكثر من خمسين ذراعاً، بينه وبين نهر البليخ ميل ونصف الميل، وشرب أهله من مَصْنَع فيه طوله مائتا ذراع في عرض مثله وعمقه نحو عشرين ذراعاً، معقود بالحجارة وكان مَسْلَمَة قد أصلحه، والماء يجري فيه من نهر البليخ في نهر منفرد في كلّ سنة مرّة حتى يملأه، فيكفي أهله بقيّة عامهم، ويسقي هذا النَّهر بساتين حصن مَسْلَمَة، وفوهته من البليخ على خمسة أميال، وبين حصن مَسْلَمَة وحرّان تسعة فراسخ، وهو على طريق القاصد للرّقة من حرّان.

٤٤ ـ باجَرْوَان:

قرية من ديار مُضَر بالجزيرة، وكانت من أعمال نهر البليخ، منزلاً

خصباً نزهاً واسعاً، في جنوب حصن مَسْلَمَة في طريق الرَّقَّة على ثلاثة فراسخ منها. وفي المئة الرابعة الهجريَّة (العاشرة الميلادية) اضمحلّ أمرها.

٤٥ ـ قَرْقِيسِيَاء:

مدينة على ضفة الفرات اليسرى، حيث يصب خابور الفرات فضلة مياهه في الفرات، على نحو مائتي ميل أسفل من الرَّقَّة، وهي: (كركيسيوم Circesium) القديمة، تبعد ستة فراسخ عن الرّحبة (رحبة مالك بن طَوق) وأصغر من الرّحبة، لها أشجار وبساتين كثيرة، وهي في نفسها نزهة.

٤٦ ـ الرَّحْبَة:

رحبة مالك بن طَوْق بن عَتَّاب التغلبي، تمييزاً لها عن سائر الرحبات الأخرى، وهي مدينة بينها وبين دمشق ثمانية أيام، ومن حلب خمسة أيام، وإلى بغداد مئة فرسخ، وإلى الرَّقَّة نيّف وعشرون فرسخاً، ولم يكن لها أثر قديم، إنما أحدثها مالك بن طَوْق أحد قادة الرَّشيد، وكان إحداثها في خلافة المأمون، وهي بين الرَّقَّة وعانة.

وقد خربت الرَّحْبَة وبقيت قرية، وبها آثار المدينة القديمة من المآذن الشّاهقة وغيرها، واستحدث شيركوه بن أحمد بن شيركوه بن شادي صاحب حِمْص في جنوبيها ناقلاً عن الفرات الرَّحْبَة الجديدة على نحو فرسخ من الفرات، وهي بلدة صغيرة لها قلعة على تلّ تراب، وشرب أهلها من قناة من نهر سعيد الخارج من الفرات وهي اليوم محطّ القوافل من العراق والشّام، بين الرَّحْبَة الجديدة وقرقيسياء ثلاثة فراسخ.

والرّحاب عامَّة تكون في الأودية، الواحدة: رحبة، وهي مواضع متواطئة ليستنقع الماء فيها، وما حولها مشرف عليها، وهي أسرع الأرض نباتاً، وتكون عند منتهى الوادي أو في وسطه، وتكون في المكان المشرف ليستنقع الماء فيها. وإذا كانت في الأرض المستوية نزلها الناس، وإذا

كانت في بطن المسيل لم ينزلها الناس، وإذا كانت في بطن الوادي فهي أفنة أي حُفْرة تمسك الماء ليست بالصغيرة جداً، وسعتها قدر غلوة، والناس ينزلون في ناحية منها. ولا تكون الرحاب في الرّمل، وتكون في بطون الأرض وظواهرها.

وكان الرَّشيد قد أقطع مالك بن طَوْق أرض الرَّحْبَة. فعمرها مالك وتحوّل الناس إليها، فأنفذ له الرَّشيد رجلاً يطلب منه مالاً، فتعلّل عليه بعلّة ودافعه عن حمل المال، ثم ثنّى الرسول إليه وكذلك راسله ثالثاً، وبلغ الرَّشيد عنه أنّه قد عصى عليه وتحصّن، فأنفذ إليه الجيوش إلى أن طالت بينهما المحاربة والوقائع. وأخيراً ظفر به صاحب الرَّشيد، فحمله مكبّلاً بالحديد إلى بغداد، فمكث في حبس الرَّشيد عشرة أيام لم يُسمع منه كلمة واحدة، وكان إذا أراد شيئاً أومأ برأسه ويده. فلمّا مضت عشرة أيام، جلس الرَّشيد للناس وأمر بإخراجه، فأخرج من الحبس إلى مجلس أمير المؤمنين، والوزراء والحُجّاب والأمراء بين يدي الرَّشيد، فلمّا مَثَلَ بين يديه بقي قائماً لا يتكلم ولا يقول شيئاً ساعة تامة. ودعا الرَّشيد النّطع والسَّيف وأمر بضرب عنقه، فقال له يحيى البرمكيّ: ويلك يا مالك! لِمَ لا تتكلّم!!. والتفت مالك إلى الرَّشيد وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين! جبرَ اللَّهُ بك صَدْعَ الدّين، ولَمَّ بك شعث المسلمين، وأخمد بك شهاب الباطل، وأوضح بك سُبل الحق! إنّ الذنوب تُخْرس الألسنة، وتُصدِّع الأفئدة، وأيمُ الحق! لقد عظمت الجريرة فانقطعت الحجّة، فلم يبق إلا عفوك أو انتقامك، ثمّ أنشأ يقول:

أرى الموتَ بين السّيف والنّطع كامناً ... يلاحظني من حيث ما أَتَلَفَّتُ
وأكثر ظنّي أنّك اليومَ قاتلي ... وأيّ امرىءٍ ممّا قضى اللَّهُ يُفْلِتُ
وأيّ امرىءٍ يُدْلي بعذرٍ وحُجّة ... وسيف المنايا بين عينيه مُصْلَتُ
يَعزُّ على الأوْسِ بن تَغْلِب موقفٌ ... يُهَزُّ عليّ السيفُ فيه وأسكتُ
وما بيَ خوف أن أموتَ وإنّني ... لأعلمُ أنّ الموتَ شيءٌ مُوَقَّتُ

ولكنّ خلفي صِبْيَةً قد تركتُهم / وأكبادهم من خشيةٍ تتفتّتُ
كأني أراهم حين أُنْعى إليهمُ / وقد خَمَّشوا تلك الوجوهَ وصوّتوا
فإنْ عِشتُ عاشوا خافضين بغبطةٍ / أذود الرّدى عنهم، وإن متُّ مَوَّتوا
وكمْ قائلٍ: لا يبعدُ اللّهُ دارَ / وآخرُ جذلان يُسرُّ ويَشمتُ

وبكى الرَّشيد حين سمع هذا الشعر المؤثِّر البليغ، ثمّ قال: لقد سكتَّ على همّة، وتكلّمتَ على علمٍ وحكمة، وقد وهبناك للصبية، فارجع إلى مالِك، ولا تُعاود فعالَك.

وقد حرصت على تسجيل هذه الطرفة العاطفيّة، ليستمتع بها القارىء كما استمتعت، إذ لا علاقة لها بالوصف الجغرافي للرّحبة، وعلى كلٍّ فعناء القارىء بتلاوتها، أقل من عناء كاتبها، وما أردت إلاّ إمتاع القارىء بهذه النّادرة، دون أن أفرض عليه تصديقها أو تكذيبها، فالأمر عندي سيّان.

وكان للرحبة حصن منيع وربض كبير، ودورها من نحو البادية طيلسان.

٤٧ ـ الدّالِيَة:

مدينة بشط الفرات في غربيّه، بين عانَة والرّحبة، تعرف بدالية مالك بن طَوْق تمييزاً لها عن غيرها، من ديار مُضَر، وهي بلد صغير، والرّحبة والدالية قرب نهر سعيد الذي كان يخرج من يمين الفرات على شيءٍ قليل فوق قرقيسياء، ويعود فيصبّ فيه فوق الدَّالية. وكان قد أمر بحفر هذا النَّهر الأمير سعيد بن عبد الملك بن مروان، وكان رجلاً تقيّاً يُلقَّب بـ: سعيد الخير، وقد تولّى الموصل حيناً من الزمن.

وكانت الدَّالية أصغر من الرّحبة، حسنة، فوق شرف من الأرض، على شاطىء الفرات في غربيّه كما ذكرنا.

٤٨ ـ الرَّصَافَة:

مدينة في البادية، بين الرَّحْبَة والرَّقَّة، على أربعة فراسخ من الرَّقَّة وفي غربيها، على طرف البريّة، تعرف: رصافة الشّام أو رصافة هشام نسبة إلى بانيها هشام بن عبد الملك بن مروان، بناها لمَّا وقع الطّاعون بالشّام، وكان يسكنها بالصّيف.

وفي أخبار ملوك غسّان: ثمّ ملك النعمان بن الحارث بن الأيْهم، وهو الذي أصلح صهاريج الرّصافة وصنع صهريجها الأعظم، وهذا يدلّ على أنها كانت قبل الإسلام بدهر ليس بالقصير، ولعلّ هشاماً عمّر سورها أو بنى بها أبنية يسكنها. وعليها سور، وليس عندها نهر ولا عين جارية، إنما شربهم من صهاريج عندهم داخل السور، وربّما فرغت في أثناء الصيف، فلأهل الثروة من يمضي إلى الفرات عصراً، فيجيء بالماء في غداة غدٍ، لأنه يمضي ثلاثة فراسخ أو أربعة ويرجع مثلها. وعندهم آبار طول رشاء كل بئر مئة وعشرون ذراعاً وأكثر، وهو مع ذلك ملح رديء، ولهم سُوَيْق عدّة دكاكينه عشرة دكاكين، ولأهلها حذق في عمل الأكسية، وكلّ رجل فيها غنيهم وفقيرهم يغزل الصوف ونساؤهم ينسجن، وفيها دير عجيب.

وتقوم أطلال رصافة الشَّام، على نحو مئتي كيلومتر من شرق مدينة حلب، وقد ورد ذكرها في النصوص الآشورية، وفي سفر الملوك الرابع (١٩ : ١١ ـ ١٢)، ولم يبق من هذه المدينة غير أطلال في صحراء جرداء مقفرة.

٤٩ ـ الخانوقَة:

مدينة في شرقي الفرات بين الرَّقَّة وقرقيسياء، على يومين فوق قرقيسياء، قرب الرَّقَّة، وهي رزحة الحال، لا أهمية لها.

٥٠ ـ عانَةُ:

بلدة مشهورة بين الرَّقَّة وهِيتْ، تُعد من أعمال الجزيرة، وهي مشرفة

على الفرات قرب حَدِيثَة النورة (الحديثة)، وبها قلعة حصينة، وتقع على ضفة الفرات الغربيَّة على بعد (٢١٢) كيلومتراً شمال مدينة الرمادي.

وهي: (أناتو Anatho) القديمة، وقد ورد اسمها في الكتابات المسمارية: (أناث) وفي المراجع الإغريقية بصورة: (أناثا)، وفي الكتابات التدمريّة: (عانة)، وسمّاها الآراميون: (عانات).

وكانت عانَة المعسكر السابع والعشرين في الطريق الذي أنشأه الملك الآشوري توكلتي نينورتا الثَّاني (٨٨٩ ـ ٨٨٤ ق.م)، فقد كان معسكره قبالة جزيرة (عانات) في أرض سوخي وهي عانَة الوقت الحاضر، وكانت عانَة في الأصل تقوم على الجزر الخصبة، ولم تكن في الأزمنة السّابقة على ما هي عليه اليوم من امتداد على السّاحل الأيمن للفرات، ولم يكن أهلها في مأمن من غزوات البدو فقط، بل إنّ مركزها ساعدهم على إخضاع الجهات المجاورة، لهذا كان الآشوريون عادة يولون سادة عانَة حكاماً على مقاطعة سوخي، وكان الملك توكلتي نينورتا الثَّاني قد تسلم الجزية من (إيلو ابني) رئيس سوخي الذي كان في بلدة أنات في وسط الفرات.

ولا زالت عانَة بلدة عامرة على الفرات حتى اليوم، وهي مركز قضاء تابع لمحافظة الأنبار.

٥١ ـ بالس:

مدينة في غربي الرَّقَّة عند حد أرض صفِّين، حيث يتّجه الفرات شرقاً بعد جريانه إلى الجنوب. وهي مدينة: (بربلسس Barbalissus) عند الرومان، وكانت فرصة عظيمة لأهل الشّام على الفرات، ومن ثمّ مركزاً لكثير من طرق القوافل.

وقد وصف ابن حوقل مدينة بالس فقال: عليها سور أزليّ، ولها بساتين فيما بينها وبين الفرات، وأكثر غلاّتها القمح والشّعير. وهي وإن

كان الخراب قد امتدّ إليها، فقد قال المقدسيّ في المئة الرابعة الهجريَّة (العاشرة الميلادية): إنها ما زالت عامرة.

على أنّ ياقوت الحموي ذكر أنّ الفرات في المئة السّابعة الهجريَّة (الثالثة عشرة الميلادية) لم يزل يشرِّق عنها قليلاً قليلاً، حتى صارت بينهما في أيامنا هذه أربعة أميال: ولَمَّح أبو الفدا إلى بالس فقال: بلدة كانت مسكونة.

٥٢ ـ جسر مَنْبِج:

على الفرات، ومنه يصعد طريق يغرِّب إلى مَنْبِج: (هيرابوليس Hie Rapolis)، من أعمال حلب، وكانت مدينة ذات شأن في القرون الوسطى.

وعند الجسر قلعة حصينة، تحتها ربض عامر، مطلّة على الفرات، ويقال لهذه القلعة: قلعة النّجم، لأنها على جبل، وكانت تسمى أيضاً حصن مَنْبِج، ولما مرّ ابن جُبَيْر بقلعة النجم وهو آت من حَرَّان في سنة ثمانين وخمسمائة الهجريَّة (١١٨٤ م) قال في وصفها: حولها ديار بادية، وفيها سُوَيقة.

والقلعة من بناء السلطان نور الدِّين محمود بن زنكي، وكانت مَسْلحة تُشدِّد التنكير على ما في يد الصليبيين من مدن في أيام الحروب الصليبية.

٥٣ ـ سُمَيْسَاط:

مدينة على شاطىء الفرات الغربي (الضفَّة اليمنى)، وعند هذه المدينة ينحرف النّهر إلى الغرب، وكانت مكينة حصينة، يسكن الأرمن قسماً منها. وهذه المدينة قديمة، وهي المدينة الرومية (سموساطا Samosata).

٥٤ ـ سَرُوج:

بلدة قريبة من حرّان من ديار مُضَر من بلاد الجزيرة، بينها وبين حرّان مسيرة يوم، كثيرة المياه والبساتين، بها الرّمّان المفضّل والكُمثرى

والخوخ والسفرجل، وهي أيضاً على مسافة يوم من البيرة في جهة الشرق والشمال عنها. وكانت سروج على طريق القوافل من حرّان والرُّها إلى جسر مَنْبج، وهي اليوم خراب.

ثالثاً: ديار بَكْر

٥٥ ـ آمِد:

مدينة قديمة حصينة من ديار بكر، تقع على غربي مدينة دجلة أي يمينه، يطلّ عليها جبل علوّه خمسون قامة، عليها سور أسود من حجارة الأرحية الصلبة يحيط بالتل المشرف عليه، وعلوّ السور عشرون ذراعاً، وتحته عشرة أذرع، وأكثر حجارته ملتصق بعضه ببعض من غير طين أو جص، وكلّ حجر منه يزن ما يعادل ثلاثة أطنان. وعلى بُعد كلّ مئة ذراع من السور بني برج نصف دائري، تنتهي قمّته بشرفات من الحجارة السّود، وقد شيّد في عدّة أماكن من السور مراقٍ من الحجر يصعد بها إلى أعلى السّور، وكانت في السور أربعة أبواب حديد تقابل الجهات الأربع الأصليّة: يسمى الباب الشرقي باب دجلة، والشمالي باب الأرمن، والغربي باب الرّوم، والجنوبي باب التل.

وخارج هذا السور سور آخر من الحجر نفسه، علوّه عشرة أذرع، وفي الفصيل بينهما ربض كالحلقة عرضه خمس عشرة ذراعاً، وكان من فوق هذا السّور شُرفات ومرقاة للدفاع، وكان له أيضاً أربعة أبواب حديد تناظر أبواب السور الداخل، فلا أحصن من آمِد ولا أجلّ منها.

والجامع في وسط المدينة، وفيها عيون كثيرة، وفي وسط المدينة عين يتفجّر ماؤها من الحجر الأصمّ، وهذا الماء من الغزارة ما يكفي لإدارة خمس أرجاء، وهو غاية في العذوبة وتُسقى البساتين المجاورة من هذا الماء.

ومسجدها الجامع جميل البناء، وهو من الحجر الأسود كسائر

المدينة، وقد أقيم في وسطه أكثر من مئتي سارية من الحجر، كل سارية قطعة واحدة، ويعلو هذه السواري عقود من الحجر نصبت فوقها سوار أقصر من تلك، وجميع سقوف المسجد من الخشب المحفور والمنقوش والمدهون. وفي صحن الجامع حوض مستدير من الحجر، في وسطه أنبوب من النُّحاس، ينفر منه ماء صاف، فيبقى الماء في الحوض على مستوى واحد في كل الأوقات. وبالقرب من الجامع كنيسة عظيمة، مبنية كلها من الحجر، وقد فرشت أرضها بالرّخام، وجدرانها غنيّة بالزّخارف. أسواقها حسنة عامرة، كثيرة الأشجار والبساتين.

٥٦ ـ حانِي:

اسم مدينة معروفة بديار بكر، فيها معدن الحديد، ومنها يُجلب إلى سائر البلاد، تقع شمال آمِد على مقربة من أحد السواعد الشرقيَّة في أعالي دجلة.

٥٧ ـ مَيَّافارِقِينْ:

مدينة بديار بكر، وهي قاعدة ديار بكر، مثل نصيبين، في إحداق المياه والبساتين بها، وبها قبر سيف الدَّولة بن حمدان.

والظّاهر أنّ مَيَّافارِقِينْ العربيَّة تحريف لاسم: (ميفركتر Maypharkatr) الآرامي، أو: (موفرچن Mavfargin) الأرمني، وسمّاها اليونان: (مرتيروبولس Martyropolis).

وهي مدينة طيّبة حصينة، عليها سور عظيم من الحجر الأبيض الذي يزن الحجر منه نحو طن ونصف الطن. وبينما كانت آمِد مبنيّة بالحجر الأسود، كانت مباني هذه المدينة كلها من الحجر الأبيض، وفي أعلى السور شرقاً وعلى بعد كل خمسين ذراعاً منه برج عظيم من الحجر الأبيض نفسه. ولهذه المدينة باب من ناحية الغرب، ركِّب فيه باب من حديد لا خشب فيه، وكان في المدينة مسجد جامع حسن البناء، ومسجد

ثانٍ في الرّبض ظاهر المدينة يقوم في وسط الأسواق، ويليه بساتين كثيرة.

وفي ناحية الشمال، على شيءٍ يسير من مَيَّافارِقِينْ مدينة أخرى تسمى (المُحدَّثة)، بها مسجدها الجامع وحمّاماتها وأسواقها، وعلى أربعة فراسخ من مَيَّافارِقِينْ مدينة: (النّصْرِيّة) بناها سعد الدِّين نصر الدَّولة أبو نصر أحمد.

٥٨ ـ أرْزَن:

مدينة مشهورة على شيء يسير من مَيَّافارِقِينْ، على الضفَّة الغربيَّة لنهر أو وادٍ يقال له: سَرْبَط، أحد روافد دجلة، مأخذه من ظهر أبيات أرزن.

ولأرْزَن حصن منيع عظيم، وهي عامرة فيها أسواق حسنة، وتحفّ بها بساتين يانعة كثيرة الماء.

وينبغي ألاّ يخلط بين أرْزَن هذه، وبين أرْزَن الرّوم أو أرضروم التي ذكرناها في موضعها في: بلاد الرّوم وفي مدن الفرات الأعلى من هذا البحث.

٥٩ ـ حِصْن كَيْفا:

بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمِد وجزيرة ابن عمر، من ديار بكر، وهي ذات جانبين، وعلى دجلتها قنطرة عظيمة، وهي طاق واحد، يكتنفه طاقان صغيران. سمّاها الرّوم: (كيفس Kiphas) أو (كيفي Cephe).

وللمدينة ربض عامر، فيه الأسواق والفنادق والمساكن الحسنة، وبناؤهم بالحجر والجصّ، ولها ضياع حسنة وأسواق، ولها مزارع وضياع كثيرة.

٦٠ ـ فَافَان:

مدينة على ضفة دجلة الشماليَّة أي اليسرى، على نحو خمسين ميلاً شرق حصن كَيْفا، حيث ينعطف النَّهر انعطافاً عظيماً نحو الجنوب. وحول المدينة بساتين، وأسواقها عامرة، وبناؤها من طين.

وباسم المدينة سمي: تلّ فافان، يلتقي بدجلة عنده النَّهر الذي ينحدر من بدليس وينبع من جبال إِرْمينِيَة جنوب غربي بحيرة (وان). ويقترن بهذا النَّهر رافد عظيم ينبع من جنوب بحيرة (وان) اسمه: نهر الرَّزْم، ويصير دجلة أسفل اقترانهما في مجرى واحد صالحاً لسير السُّفن.

٦١ ـ سِعِرْت أو إسْعِرْد أو إسْعِرْت:

مدينة على نهر الرّزْم شمال تلّ فافان وفوق مصب نهر مدليس فيه، وهي على جُبَيْل بالقرب من نهر دجلة في شماليه الشرقي، تبعد من مَيَّافارِقِينْ مسيرة يوم ونصف اليوم، ومَيَّافارِقِينْ في شمال سِعِرْت، وسِعِرْت جنوبها، وتبعد عن آمِد أربعة أيام وسِعِرْت في الجنوب من آمِد، ويحيط بسعرت الجبال. ولها الأشجار الكثيرة من التِّين والرّمَّان والكروم بدون سقي بل تعيش ديميّة على المطر.

وهي مدينة عظيمة مشهورة بآنيتها النُحاس الفاخر التي يصنعها الصفّارون المهرة هناك، وبأقداح الشّرب التي تستورد منها، وتُعدّ من ديار بكر.

٦٢ ـ حِيزَان:

بلد قرب إسْعِرْت من ديار بكر، يكثر فيه الشجر والبساتين والمياه الغزيرة، فيها الشاه بَلّوط والبندق وليس الشّاه بلّوط في شيء من بلاد العراق والجزيرة والشّام إلاّ فيها.

٦٣ ـ الهَتَّاخ:

قلعة حصينة قرب مَيَّافارِقِينْ من ديار بكر.

مدن الفرات الأعلى

٦٤ ـ مَنَازْجِرْد:

بلد مشهور بين خَلاط وبلاد الرّوم، يعدّ في إِرْمِينِيَة، على نهر أَرْسَنَاس (مراد صو)، وتعرف أيضاً: مَلازْكِرْد، ومَنَزْكِرْد، ومَلاسْ كِرْد، ومَلَسْجِرْد، وكانت في المئة الرابعة الهجريَّة (العاشرة الميلادية) حصينة، الجامع على حافَة السّوق، كثيرة البساتين. وفي هذا البلد وقعت سنة ثلاث وستين وأربعمائة الهجريَّة (١٠٧١ م) معركة حاسمة بين الرّوم والمسلمين، أسر فيها السّلاجقة الملك رومانس الرابع (ديو جينس)، وأدت هذه المعركة إلى فتح آسية الصغرى وقرار السّلاجقة فيها.

هواؤها طيّبٌ، وأرضها خصبة.

٦٥ ـ مُوش:

مدينة في جنوب نهر أَرْسَنَاس (مراد صو) في السّهل العظيم غرب بحيرة (وان) من ناحية خلاط بإِرْمِينِيَة، فيها مراعٍ غنيّة، تسقيها أنهار تجري شمال الفرات الشرقي وجنوب دجلة، وهي اليوم خراب.

٦٦ ـ شِمْشَاط:

مدينة ذات شأن، لا وجود لها اليوم، تقع على نهر أَرْسَنَاس (مراد صو) ويسمى نهر شمشاط أيضاً، في الضفَّة الجنوبيَّة من النَّهر أي اليسرى، وكان اسمها (أرسموساطا Arsamosata) عند الرّوم، وهي غير سُمَيْسَاط.

٦٧ ـ حِصْن زِياد:

حصنٌ بأرض إِرْمِينِيَة، ويعرف بـ: (خَرْتَبِرْت)، في أقصى ديار بكر من بلاد الرّوم، بينه وبين مَلَطْيَة مسيرة يومين وبينهما الفرات، يقع بين آمِد ومَلَطْيَة وهو إلى مَلَطْيَة أقرب، على بعدٍ غير بعيد من شمشاط، وخرنبرت تعرف اليوم باسم: خربوط.

٦٨ ـ أَرْزَن أو أَرْض روم أو أرْزَروم:

مدينة جليلة سماها العرب: أرْزَن الرُوم، من إِرْمينِيَة، وعرفها الأرمن باسم: (كرن Karin)، والرّوم باسم: (ثيودسيوبولس Theodosiopolis). فيها جامع شيّد على غرار الكعبة المشرفة، وبإزائه كنيسة لها قبة قطر دائرتها خمسون ذراعاً، وفي أكثر دورها بساتين، ويسقيها ثلاثة أنهار.

٦٩ ـ أُونِيك أو أبسخور أو أبشخور:

قلعة عظيمة فوق قمة جبل بالقرب من منبع نهر الرّس، والمدينة التي بلخف الجبل كانت تسمى: أبسخور (أو أبشخور)، وكانت من أعمال أرزَن الرّوم، وكانت كورتها تسمى: ياسين.

٧٠ ـ أَرْزَنْجان:

بلدة طيبة مشهورة نزهة كثيرة الخيرات والأهل، من بلاد إِرْمينِيَة، بين بلاد الرّوم وخَلاط، قريبة من أَرْزَن الرّوم، وغالب أهلها أرمن، وفيها مسلمون. تقع على نحو مئتي ميل غرب أرْزَن الرّوم، على ضفة الفرات اليمنى أي الشماليَّة، ويسميها أهلها: أرزنكان. جُدِّدت أسوارها في المئة السابعة الهجريَّة (الثالثة عشرة الميلادية)، فبنيت بالحجارة المهندمة المتلاحمة. ذات هواء طيب، ويكثر فيها القمح والقطن والعنب، وفيها معدن النُحاس يصنعون منه الأواني وغيرها، ولها أسواق حسنة التَّرتيب، ويصنع بها ثياب حسان تنسب إليها.

٧١ ـ بَابِرْت:

قرية حسنة كبيرة، ومدينة حسنة من نواحي أرْزَن الرّوم، من نواحي إِرْمينِيَة، تقع في شمال أَرْزَنْجَان.

٧٢ ـ كَمْخ:

مدينة وقلعة على الفرات الغربي على مسيرة يوم أسفل أرْزَنْجَان، في

يسار النَّهر أي في ضفّته الجنوبيَّة، وهي: (كمخا Kamcha) عند الرّوم. وهي قلعة عظيمة في أسفلها مدينة على ضفة النَّهر، وكان من أعمالها كثير من القرى الخصبة.

٧٣ ـ قلعة إبريق أو الأبْرُوق:

على ستين ميلاً أو أكثر غرب كَمْخ، يزور الفرات جنوباً بعد أن كانت وجهة مجراه من أَرْزَن (أرزروم) نحو الغرب، ويصبّ في ضفّته اليمنى هنا نهر إبريق نسبة إلى قلعة إبريق القائمة في أعاليه، وهذا النَّهر المعروف الآن بنهر (جلته إيرمق) الآتي من دوريك أي ديوريكين وجاء الاسم في بعض المصادر دفريكي. وقد كتبه الرّوم بصورة: (تفريك Tephrike)، وذكر الاسم في المخطوطات اليونانية بصورة: (أفريك Aphrike)، فاختصر البلدانيون العرب هذا الاسم فجعلوه، بصورة: إبريق.

واشتهر هذا الموضع في ختام المئة الثالثة الهجريَّة (التاسعة الميلادية) بكونه معقلاً عظيماً للبيالقة (Paulicians) وهم فرقة غريبة من فرق نصارى الشرق، ومذهبهم بين النصرانية والمجوسيّة، فاضطهدهم بسبب ذلك ملوك القُسْطَنْطينيّة الآرثودكس اضطهاداً شديداً. وكانوا على المذهب الذي أحدثه بولس الشمشاطي، وعرفهم العرب بالبيالقة. وقد استولى البيالقة على تفريك وحصّنوها، وكان الخلفاء يؤازرونهم ويعينونهم، فتمكّنوا من ردّ جنود القُسْطَنْطينيَّة بضع سنين.

٧٤ ـ قلعة عرب كَير:

تقع على شيء يسير من جنوب نهر جلته إيرمق وديوريك، وبالتقاء نهر صاري جيجك بالفرات، والقلعة على نهر صاري جيجك، واسمه البيزنطي (Arabraces)، وهي ليست إبريق وتفريك، وتسمى اليوم: مدينة ريوريكي، وهو حصن للبيالقة أيضاً، كالحصن السابق.

ويبدو أنّ هذه المدن كانت مسالح متقدّمة للثغور الإسلاميَّة التي

سنذكرها وشيكا، تصدّ الغزاة الرّوم الذين يتعرّضون بالحدود الشَّماليَّة الشرقيَّة للدولة الإسلاميَّة.

الثّغور[1] الجزريّة

١ ـ مَلَطْيَة:

تقع في الجنوب من سيواس وبينهما نحو ثلاث مراحل، في شمالي زِبَطْرَة وبينهما مرحلة كبيرة، وهي قاعدة الثغور ومن أجلّ الثغور الإسلاميَّة أمام الرّوم، وقد سماها الروم: (ميلتين Melitene).

كان لها مسلحة تحمي الجسر الذي على ثلاثة أميال منها، وهناك يقطع الطريق العام نهر القُباقب بالقرب من ملتقاه بالفرات. والقباقب هو النَّهر المعروف عند الرّوم باسم: (ملاس Melas)، ويسميه الترك اليوم: (طوخمة صو)، ومنبعه من غرب مَلَطْيَة بعيداً عنها في الجبل الذي منه يخرج نهر جيحان، وهو نهر: (بيرامس Pyramus) القديم الذي ينحدر نحو الجنوب الغربي إلى بحر الأبيض المتوسّط في خليج الأسكندرونة.

ونهر القباقب أهم روافد أعالي الفرات بعد أَرْسَنَاس، ولنهر القباقب روافد كثيرة.

---

(١) الثغور: مدن لها موقع سَوْقِي على الحدود بين الدولة الإسلامية والبلاد المعادية، تشحن بالمدافعين عنها، واجبها صدّ أي اعتداء خارجي على البلاد الإسلامية ما استطاعت، وإلاّ تعويق تقدّم القوات المعادية الزاحفة ريثما يصل إليها المدد من القوّات الإسلامية الضّاربة، كما تكون هذه الثغور قواعد متقدّمة للانطلاق منها إلى فتح جديد.
ولما آلت الخلافة إلى هارون الرشيد الخليفة العباسي، جعل لهذه الثّغور إدارة مستقلّة، وسمّاها العواصم، وجعلها تابعة للجيش، وقسّم الثغور إلى ثغور شاميّة وثغور جزريّة، انظر ابن الأثير (١٠٨/٦ ـ ١٠٩).
والمراد بالعواصم هنا، المدن التي تعصم من العدو، وكان المسلمون في أيام قوّتهم يتّخذون الهجوم للدفاع عن حدودهم، فهم يهاجمون العدو قبل أن يفسحوا المجال له لمهاجمته، ومن المعروف أنّ الهجوم خير وسائل الدّفاع.

وقد أمر الخليفة المنصور سنة أربعين ومئة الهجريَّة (٧٥٧ م) عبد الوهّاب بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد اللَّه بن عبّاس، بتجديد بناء مَلَطْيَة وبناء مسجد حسن فيها، وبني لها مَسْلحة، فأقام عليها سنة حتى بناها وأسكنها أربعة آلاف مقاتل، وغزا الصّائفة.

وهي مدينة كبيرة مسوّرة في بسيط من الأرض، تحفّ بها الجبال من بُعد، ولها نهر عليه بساتين كثيرة يسقيها، وجبالها كثيرة الجوز وسائر الثمار المباحة التي لا مالك لها، ويمرّ نهرها بسور البلد، وهي شديدة البرد. ولمَلَطْيَة قنى تدخل البلد، وتجري في دوره وسككه.

وقد تعاودت مَلَطْيَة أيدي المسلمين والرّوم، بين كرّ وفرّ، وقد احتلها الرّوم سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة الهجريَّة (٩٣٣ م)، فاستعاد المسلمون فتحها.

وهي ذات حصن منيع، ومراعيها مشهورة، ويكثر فيها القمح والقطن والفواكه كالجوز واللوز والكروم وسائر الثمار الشتويّة والصيفيّة[١].

٢ ـ طُرَنْدَة:

حصن طرندة، في أعالي نهر القُباقب، على مسيرة ثلاث مراحل فوق مَلَطْيَة، وكانت مَسلحةً إسلامية لحماية الدّرب منذ فتحها عبد اللَّه بن عبد الملك بن مروان سنة ثلاث وثمانين الهجريَّة (٧٥٢ م)، ولكنّهم تخلوا عنها سنة مئة الهجريَّة (٧١٩ م) بأمر عمر بن عبد العزيز ونقلوا أهلها إلى مَلَطْيَة، لأنها كانت داخلة في بلاد الرّوم متغلغلة بالعمق في أرضهم، فخاف عمر بن عبد العزيز على المسلمين الذين فيها من الوقوع في أيدي الرّوم.

---

(١) أما ملطية الحديثة، فتقع على فرسخين من جنوب حصن طرندة الذي كان في العصور الوسطى قائماً، وأطلال المدينة في (أسكى شهر) على فرسخ من الجسر القديم المسمى: (قرق كز)، وهو يعلو نهر (طوخمة صو) فوق بالفرات بقليل.

واسمها في المراجع البيزنطية: (ترنتة Taranta)، واسمها حالياً: درندة، وكانت قديماً قبل فتحها من أقوى حصون البيالقة.

٣ ـ زِبَطْرَة:

مدينة بين مَلَطْيَة وسُمَيْسَاط والحدث، في طرف بلاد الرّوم، واشتهرت بحصنها العظيم، على نهر قراقيس، وهو رافد كبير من روافد نهر القباقب، يصبّ في جنوبه، وتقع في أعالي نهر قراقيس.

ويقال لزِبَطْرَة عند الروم: (سوزِبَطْرَة Sozopetra) أو: (زِبَطْرَة Zapetra)، ولعلّ أطلالها هي: (ديران شهر) على بضعة فراسخ من جنوب مَلَطْيَة على نهر: (سلطان صو)، وهو الاسم الحديث لنهر قراقيش.

والحصن عظيم، من أقرب الثغور إلى بلد الرّوم، خرّبه الرّوم غير مرّة، ثم بناه الخليفة أبو جعفر المنصور وبعده الخليفة المأمون.

واشتهرت زِبَطْرَة في التواريخ العربيّة والبيزنطية باستيلاء الملك البيزنطي: (ثيوفيلس Theophilus) عليها، واستعادة الخليفة المعتصم لها في حملته على عموريّة، فقال أبو تمّام يمدح المعتصم:

لَبَّيْتَ صوتاً زِبَطْرِيًّا هَرَقْتَ له　　　كأسَ الكَرَى ورُضابَ الخُرَّد العُرُب

٤ ـ الحَدَث:

قلعة حصينة تقع بين مَلَطْيَة وسُمَيساط ومَرعش، وتسمى الحمراء لأنّ تُربتها جميعاً حمراء، وقلعتها على جبل يقال له: الأحيدب، فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطّاب ﷺ على يدي حبيب بن مَسْلَمَة الفِهرِي من قِبَل عِياض بن غُنْم، وكان معاوية بن أبي سفيان يتعاهدها بعد ذلك.

وكان بنو أمية يسمّون دَرب الحدث: دَرب السّلامة للطيرة، لأنّ المسلمين سبق أن أصيبوا به، وكان ذلك الحدث الذي سمي به الحدث فيما يقول بعضهم، ومعنى الحدث في اللغة: الخبر، ولا سيّما الخبر المحزن.

ولما كانت فتنة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أميّة، خرجت الرّوم، فقدمت مدينة الحدث وأَجْلَت عنها أهلها، كما فعلت بمَلَطْيَة، ولكن المسلمين استعادوا فتح ما استولى عليه الرّوم سنة إحدى وستين ومئة الهجريَّة (٧٧٨ م)، وجدّد المهدي الخليفة العبّاسي عمارة الحدث سنة اثنتين وستين ومئة الهجريَّة (٧٧٩ م)، ثم أعادِ الخليفة هارون الرَّشيد عمارتها من جديد، وأسكنها ألفي مقاتل من جنده.

وقد تناوب المسلمون والرّوم عليها غير مرّة، وفي سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة الهجريَّة (٩٥٤ م) بعد أن تعاودتها أيدي المسلمين والرّوم، استعادها سيف الدَّولة الحمداني وأعاد عمارتها، فقال المتنبي عند ذلك:

هل الحَدَثُ الحمراءُ تعرف لونَها	وتعلم أيّ الساقَيين الغمائمُ
بناها فأعلى والقَنا يَقْرَع القَنا	وموج المنايا حولها متلاطِمُ
طريدة دهرٍ ساقَها فرَددْتَها	على الدّين بالهندِيّ والأنف راغم
لقيتُ اللّيالي كلّ شيءٍ أخذنه	وهنّ لمّا يأخُذْنَ منك غوار

ثمّ انتقلت الحدث إلى يد مسعود بن فلج أرسلان السّلجوقي في سنة خمسٍ وأربعين وخمسمائة الهجريَّة (١١٥٠ م). والحدث هي: (أداتا Adata) عند الرّوم.

وكان النَّهر الذي تقوم الحدث بالقرب منه يسمى: نهر حُوَيْرِث الذي يصبّ في نهر جَيْحان (برامس)، وكان في الحدث مسجد جامع.

٥ ـ حِصْنُ مَنصُور:

من أعمال ديار مُضَر في الجزيرة، ولكنّه في غربي الفرات قرب سُمَيْساط، وكان مدينة عليها سور وخندق وثلاثة أبواب، وفي وسطها حصن وقلعة عليها سوران، ومن حصن منصور إلى زِبَطْرَة مرحلة واحدة.

والحصن على نهر له، والنَّهر من الرّوافد اليمنى للفرات ويصبّ فيه

أسفل سُمَيْسَاط، ويقال لحصن منصور اليوم في الغالب: (أديمان)، وكان الرّوم يسمونه: (برها Perrhe).

وقد نسب هذا الحصن إلى بانيه منصور بن جَعْوانة بن الحارث العامري القيسِيّ، كان تولّى بناء عمارته ومَرَمَّته، وكان مقيماً به أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أميّة ليردّ العدو ومعه جُندٌ كثيف من أهل الجزيرة والشَّام وإِرْمينِيَة. وكان منصور هذا على أهل الرُّها حين امتنعوا في أول الدَّولة العباسية، فحصرهم أبو جعفر المنصور وهو عامل أخيه السفّاح على الجزيرة وإِرْمينِيَة، فلمّا فتحها هرب منه منصور، ثمّ أُمِّنَ فظهر ثانية. ولما خلع عبد اللّه بن علي أبا جعفر المنصور، ولّى منصوراً هذا شرطته، وحين أخفقت ثورة عبد اللّه بن علي وهرب إلى البصرة، استخفى منصور بن جَعْوَانة، فدُلّ عليه سنة إحدى وأربعين ومئة الهجريَّة (٧٥٨ م)، فأتى به المنصور، فقتله بالرَّقَّة عند منصرفه من البيت المقدّس.

ثمّ إنّ هارون الرَّشيد بنى حصن منصور وأحكمه وشحنه بالرجال في أيام أبيه المهدي.

وأصاب هذه المدينة ما أصاب غيرها من الثغور من نهب وتخريب، لتعاود أيدي المسلمين والرّوم لها، حتى أصبح هذا الحصن في المئة الثامنة الهجريَّة (الرابعة عشرة الميلادية) خراباً، حوله مزدرع من الأرض، وقد كان مدينة صغيرة حصينة فيها منبر ولها مزارع وقرى تسقى بالمطر، وكانت في مستوى من الأرض، فوق الفرات الذي يُحَاذي حدّها الجنوبي.

٦ ـ قلعة بَهَسْنَا:

تقع غرب حصن منصور، بقرب مَرْعش وسميساط، على سنّ جبل عالٍ، والبلدة التي تحتها فيها جامع، ولها أسواق عامرة، وما حولها أرض واسعة الخير والخصب. والقلعة حصينة عجيبة. وعلى نهر سنجة القريب منها، وهو ما أسماه الروم: (سنكز Singas)، تقع سنجة وهي مدينة

صغيرة، بقربها قنطرة مشهورة على هذا النَّهر، مبنية بحجر مهندم، وهي طاق واحد، وليس أعجب ولا أعظم منها، ويضرب بها المثل، باعتبارها إحدى عجائب الدنيا.

وجاء ذكر قلعة بهسنا في أخبار الحروب الصليبية باسم: (بهسدن Behesdin)، وكانت بهسنا على نهر من روافد الفرات اليمنى.

الجبال والأنهار

١ ـ الجبال:

في إقليم الجزيرة جبال عالية وسهول خصبة وبوادٍ قليلة المياه واضحة الجفاف، وأهم ما في هذا الإقليم من جبال هو: جبل سِنْجار، بين الخابور ودجلة، يبلغ ارتفاعه (٤٨٠٠) قدماً، وجبل إبراهيم: يبلغ ارتفاعه (١٧٥٣) قدماً، وجبل مكحول يبلغ ارتفاعه (١٦٠٠) قدماً. وهذه الجبال الثلاثة تقع غربي دجلة.

أما في شرقي دجلة والزَّاب الكبير، فهناك جبل باعَشِيقَا يبلغ ارتفاعه (٢١٧٧) قدماً، وجبل مقلوب، يبلغ ارتفاعه (٣٤٨٣) قدماً. وهناك جبل منفردة أخرى، بين الزَّابين الكبير والصغير، وبين هذا الأخير والحدود العراقية الإيرانية الحالية.

وعلى العموم، فإنّ جبال هذا الإقليم ليست مرتفعة ولا شاهقة ولا وعرة، وتقع الجبال الشاهقة في شمالي هذا الإقليم بصورة خاصة.

٢ ـ الأنهار:

ينبع نهر دجلة والفرات من الشمال الشرقي لمنطقة إقليم الجزيرة، وتتّصل روافدهما بهما من الجهة اليسرى من النَّهرين: دجلة والفرات.

ينبع نهر الفرات من الجبال الواقعة بين بحيرة (وَان) في جبال إِرْمِينِيَة

وبين البحر الأسود، عند خطّ العرض (٤٠) شمالاً في بلاد الرّوم ـ كما كان يعبِّر الجغرافيون القُدامى (تركيا حالياً).

ويتمتّع الفرات ـ على عكس دجلة ـ بأهم روافده قبل دخوله الحدود العراقية، وأهمها: رافد البَلِيخ[١] والخابور.

ويبدو أنّ المسعودي[٢] كان أكثر دقّة في استمكان منبع الفرات، حيث ذكر أنّ مبدأ الفرات من جبال إِرْمينِيَة: على نحو يوم من قالِيقَلا شمال أرضروم، والمسعودي على صواب، إذ أنّ منبع الفرات الأصلي هو (قرة صو) كما هو معروف. وقالِيقَلا مدينة تُعدّ من مدن إِرْمينِيَة الرابعة[٣]، تقع بالقرب من الحدود الشرقيَّة البيزنطية في هضبة إِرْمينِيَة الغربيَّة التي تتّصل بهضبة الأنضول في أرض سهلة مستوية[٤].

أما نهر دجلة، فينبع من جبال شهر زور فوق آمِد على حدود إِرْمينِيَة، ويمرّ بجبال السلسلة ثم بمدينة آمِد ومدينة ميافارقين في ديار بكر قبل أن يصل إلى مدينة الموصل الحدباء في ديار ربيعة، حيث يتّصل به رافداه: الزَّاب الكبير، والزَّاب الصغير ثمّ يتّجه إلى تَكْرِيت غربي ديار بني شيبان حتى يصل إلى بغداد.

ومنبع الزَّابين: الكبير والصغير، من جبال إِرْمينِيَة، ويصب الزَّاب الكبير في دجلة بمدينة الحديثة، ويصب الصغير في دجلة أيضاً بمدينة السن[٥].

---

(١) البليخ: اسم نهر بالرّقة، يجتمع فيه الماء من عيون، وأعظم تلك العيون عين يقال لها: الدهبانية في أرض حرّان فيجري نحو خمسة أميال، ثم يسير إلى موضع قد بنى عليه مسلمة بن عبد الملك حصناً يكون أسفله قدر جريب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣).

(٢) مروج الذهب للمسعودي (١/ ٦١ ـ ٦٢).

(٣) فتوح البلدان (٢٧٢).

(٤) الموقع الجغرافي للعراق (٣٩٥).

(٥) الدولة الحمدانية (١/ ١٢٧ ـ ١٢٨).

تلك هي مجمل أنهار إقليم الجزيرة، لإعطاء فكرة موجزة عما تضم هذه المنطقة العريقة من أنهار.

السكّان

١ ـ العرب:

العرب هم أغلب سُكان إقليم الجزيرة قبل الفتح الإسلامي، وكانوا مزيجاً من قبائل مُضَر وربيعة العدنانيين ومجموعات قبلية أخرى عدنانية وقحطانية، استقرّت هناك نتيجة هجرات متتابعة في أزمان مختلفة قبل الإسلام بعدة قرون.

فقد ذُكر أنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، أراد أن يأخذ الجزية من نصارى بني تَغْلِب، فانطلقوا هاربين، ولحقت طائفة منهم بِبُعْدٍ من الأرض، فقيل لعمر: أنشدك اللّه في بني تغلب، فإنّهم قوم من العرب نائفون من الجزيّة، وهم قوم شديدة نكايتهم، فلا يُعَن عدوّك عليك بهم، فأرسل عمر في طلبهم، فردّهم وأضعف عليهم الصّدقة، فقبلوا أن يؤخذ منهم ضعف الصدقة، وقالوا: أما إذ لم تكن جزية كجزية الأعلاج، فإنا نرضى ونحفظ ديننا[١]. وكان الإمام الزُّهريّ يقول: ليس في مواشي أهل الكتاب صدقة، إلاّ نصارى بني تغلب ـ أو قال: نصارى العرب ـ الذين عامَّة أموالهم المواشي، فإنّ عليهم ضعف ما على المسلمين[٢]، وهذا دليل على أنّ العرب كانوا في الجزيرة قبل الفتح الإسلاميّ.

ويبدو أنّ أهم القبائل العربيَّة في الجزيرة قبل الإسلام كانت: تغلب، وإياد، والنَّمِر[٣] ومُضَر.

---

(١) البلاذري (٢٣٩ ـ ٢٥١).
(٢) البلاذري (٢٥١).
(٣) ابن الأثير (٢/ ٥٢٣).

وبنو تغلب هم: تغلب بن وائل بن قاسِط بن هِنْب بن أَفْصَى بن دُعْمِيّ بن جَدِيلَة بن أسد بن ربيعة بن نِزَار[١]، وهم من ربيعة بن نِزَار بن مَعَدّ بن عدنان[٢].

وإياد بن مَعَدّ بن عَدْنان[٣]، وإياد بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان[٤].

والنّمر بن قاسط بن هِنْب بن أفْصَى بن دُعْمِيّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نِزار بن مَعَدّ بن عدنان[٥].

أما مُضَر فهو مُضَر بن نِزار بن مَعَدّ بن عدنان، ومُضر وإياد وربيعة أخوة، فهم أبناء نِزار بن مَعَدّ بن عدنان[٦]، وبنو تغلب من ربيعة أيضاً كما ذكرنا.

وقد أطلقت المراجع الفارسيّة على منطقة نصيبين وما حولها اسم: (عربستان) أي بلاد العرب، كما أطلق سترابوا اسم بلاد العرب على إقليم الجزيرة الواقع جنوبي المنطقة الكردية والتي تمتدّ حتى الصحراء[٧].

ويبدو من تتبع تاريخ إمارة (الحَضْر Hatra) التي مازالت آثارها ماثلة للعيان في منخفض من بادية جزيرة العراق على مقربة من الضفَّة الغربيَّة لوادي الثرثار بين تَكْرِيت والموصل، أنّ العرب عاشوا هناك منذ سقوط دولة الآشوريين في سنة (٦١٢) قبل الميلاد، وأنهم أقاموا سلالة حاكمة.

إنّ وجود آلهة عربية عُبدت في الحَضْر أيام الآشوريين إلى جانب الآلهة الآشورية، أتى بها العرب من جزيرتهم كاللّات وشمش يقف دليلاً

---

(١) جمهرة أنساب العرب (٤٦٩).
(٢) جمهرة أنساب العرب (١٠).
(٣) جمهرة أنساب العرب (٩ و٣٢٧ ـ ٣٢٨).
(٤) جمهرة أنساب العرب (١٠).
(٥) جمهرة أنساب العرب (٣٠٠).
(٦) جمهرة أنساب العرب (١٠).
(٧) الدولة الحمدانية (١/ ١٩٥).

على وجود العرب في المنطقة قبل الميلاد بقرون، وقد حكمت في الحضر[1] سلالة عربية مدة ثلاثة قرون، وكان أول حكّامها أميراً عربياً اسمه سنطروق ورد ذكره في كتابة اكتشفت هناك نصّت على أنّ أباه اسمه: نصر، وأنّ لقبه: ملك العرب، ويبدو أنّ حكّام هذه الإمارة كانوا من قبيلة قُضَاعَة[2].

وقُضاعة هو: قُضَاعَة بن عَدْنان، وقال قوم: قُضَاعَة بن مالك بن حِمْيَر. وقال قوم منهم الكلبيّ: هو قُضَاعَة بن مالك بن عمرو بن مُرَّة بن زيد بن مالك بن حِمْيَر[3].

يقول ياقوت الحَمَويّ في حديثه عن مدينة الحَضْر، إنّ بني قُضَاعَة لمّا افترقوا، سارت قبيلة منهم إلى أرض الجزيرة، وعليهم ملك يقال له الضَّيْزَن بن جلهمة أحد الأحلاف، فنزلوا مدينة الحضر[4]، والضّيزن من العرب من قُضَاعَة، وهو الضّيزن بن معاوية بن العَبيد بن الأجرام بن عمرو بن النَّخَع بن سَلِيح بن حُلْوان بن عِمْران بن الحافِ بن قُضَاعَة، وأنّ أمّه من تَزِيد بن حُلْوان اسمها: جَيْهَلَة[5]، وأنّه كان يعرف بأمّه، وكان ملك الجزيرة، وكان معه من بني عبيد بن الأجرام وقبائل قُضَاعَة ما لا يُحصى، وأنّ ملكه كان قد بلغ الشّام[6].

وظلّ الضيزن على عرشه حتى نشب عداء بينه وبين سابور بن أردشير ملك الساسانيين أسفر عن مقتل الضّيزن وسقوط إمارة الحضر بيد الساسانيين وتشتت قُضَاعَة وبني حُلْوان ممن كانوا في الحضر[7].

---

(١) الحضر ـ نشرة لمديرية الآثار العامة ـ بغداد.
(٢) الطبري (٢/ ٤٧) وابن خلدون (٢/ ٢٤٩).
(٣) جمهرة أنساب العرب (٤٤٠).
(٤) معجم البلدان (٣/ ٢٩٠).
(٥) في معجم البلدان: جلهة، وفي الأغاني: جبهلة.
(٦) الطبري (٢/ ٤٧).
(٧) انظر التفاصيل في الطبري (٢/ ٤٨ ـ ٥٠) ومعجم البلدان (٣/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).

وبنو حُلْوان ينتسبون إلى حُلْوان بن عِمْران بن الحافي بن قُضَاعَة[1].

والمهم هو تأكيد وجود قبائل قُضَاعَة في الحضر يوم حاصرها سابور الأول (٢٤١ ـ ٢٧٢ م).

وأضخم هجرة عربية إلى الجزيرة، هي تلك التي حدثت في القرن السابع الميلادي، وتفصيل الأمر، أنّ ربيعة العدنانية بعد أن خرجت من سلطة اليمن في أواخر القرن الخامس الميلادي، وخلعت طاعتها، وأصبحت قائدة لقبائل مَعَدّ من قُضَاعَة ومُضَر وإياد ونِزار، بدأت بينها وبين حلفائها من القبائل الأخرى، وبين بطونها هي نفسها، وقائع وحروب أدّت إلى كثير من المآسي. أما الذي يهمّنا هنا، فهو ما أعقب ذلك من هجرات قبلية كبيرة إلى الجزيرة، هي التي أعطتها تكوينها البشري النهائي وأسماء مناطقها: ديار ربيعة، وديار مُضَر، وديار بكر، فالحروب التي جرت بين بكر وتغلب من قبائل ربيعة، وأهمها حرب البسوس[2] من أيام العرب بين بكر وتغلب، والوقائع التي جرت بين شيبان وتغلب من ربيعة أيضاً[3]، والتي جرت بين قبائل ربيعة ومُضَر، وبين قبائل مُضَر ذاتها وبخاصة حرب داحس والغبراء[4]، وبين عَبْس وذبيان[5]، كلّ ذلك أدّى على هجرات متتالية إلى أرض البلاد المجاورة ومنها الجزيرة، بسبب البحث عن أرض جديدة وعيش أكثر رخاء[6].

وإذا أردنا أن نتعقّب هجرة هذه القبائل العدنانية، نجد أنّها تحرّكت أول الأمر من موضعها في شبه الجزيرة العربيَّة، فتركت ثلاث بطون من ربيعة أماكنها في تِهامة والحجاز ونجد وهي تغلب بن وائل ونُمَيْر بن قاسط

---

(١) جمهرة أنساب العرب (٤٥٠).
(٢) انظر التفاصيل في: أيام العرب في الجاهلية (١/ ١٤٢ ـ ١٦٨).
(٣) انظر التفاصيل في: أيام العرب في الجاهلية (١/ ١٦٩ ـ ٢٢٨).
(٤) انظر التفاصيل في: أيام العرب في الجاهلية (١/ ٢٢٩ ـ ٣٠٩).
(٥) انظر التفاصيل في: أيام العرب في الجاهلية (١/ ٢٣٠ ـ ٢٩٩).
(٦) الدولة الحمدانية (١٦٧ ـ ١٦٩).

وشيبان بن بكر بن وائل أخ تغلب، واستقرّ هؤلاء جميعاً في حدود مملكة اللّخميين في الحيرة، على حين استوطنت جماعات منهم بين الكوفة والبصرة قبل أن تُبنى هاتان المدينتان الإسلاميتان. ونجد أنّ تِهامة تضيق عن أنمار بعد حرب بينها وبين مُضَر، فتنزح عن مواطنها، ثم نزحت إياد بعد حرب على ربيعة ومُضَر، فنزل بعضهم الجزيرة وتَكْرِيت والموصل[١] حيث سبقهم إلى إقليم الجزيرة بنو عمِّهم من بكر بن وائل وغيرهم. وبعد حرب حاسمة بين بكر وتغلب هزمت تغلب التي كانت متزعمة على قبائل ربيعة وبيدها لواؤها، فتفرّقت في الأصقاع، فانحازت النمر وغَفِيلة، وغفيلة هم بنو عامر بن قاسط بن هِنْب أَفْصَى بن دُعْمِيّ بن جَديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار[٢]. انحازوا إلى أطراف الجزيرة وعانات وما دونها إلى ديار بكر وما خلفها من بلاد قُضَاعَة[٣]، على حين استقرّت بكر في مناطق كثيرة من الجزيرة، واستقرت بعض بطونها في ديار بكر من إقليم الجزيرة. وبعد خروج ربيعة ظلَّت مُضَر وحدها في منازلها بتِهامة، حتى كثرت أعدادها وضاقت بهم مساكنهم، فخرجوا يبحثون عن أرض جديدة، والاقتتال في أثناء ذلك يزداد حدّةً بين قبائلها، والذي يهمنا أنّ بعض قبائل مُضَر استقرّت في الجزيرة، ومنها: نُمَير[٤]، وعُقَيْل، وقُشَيْر، وتميم، وعمرو بن مالك وسُلَيْم وغيرهم[٥].

ونُمَيْر، هم نُمَيْر بن عامر بن صَعْصَعَة[٦] بن معاوية بن بكر بن

---

(١) البكري (٧).

(٢) جمهور أنساب العرب (٣٠٠).

(٣) بلاد قضاعة: كانت مساكن قضاعة ومراعي أغنام جُدّة ميناء مكة المكرمة الواقعة على البحر الأبيض المتوسط فما دونها شرقاً إلى منتهى ذات ـ وهي الحد بين نجد وتهامة إلى حيز الحرم من السهل والجبل.

(٤) الدولة الحمدانية (١/ ١٧٠).

(٥) جمهرة أنساب العرب (٢٧٩).

(٦) جمهرة أنساب العرب (٢٧١).

هَوازن بن منصور بن عِكْرِمة بن خَصَفَة بن قيس عَيْلان بن مُضَر[1].

وعُقَيْل، هم بنو عُقَيْل بن كعْب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصَعَة من مضر[2].

وقُشَيْر، هم بنو قُشَيْر بن كَعْب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصَعَة من مضر[3].

وَتَمِيْم، هم بنو تميم بن مُرّ بن أُدّ بن طابِخَة بن مُضر[4].

وعمرو بن مالك، هو عمرو بن مالك بن فهم بن غَنْم بن دَوْس من الأزْد[5] اليمانية.

وسُلَيْم، هم بنو سُلَيْم بن فهم بن غَنْم بن دَوْس من الأزْد[6] اليمانية.

لقد كانت جذور العرب في الجزيرة عريقة جداً، تمتد إلى بضعة قرون قبل الإسلام، وكانوا في الجزيرة قبل الفتح الإسلامي، فلا عجب أن يتمسّك عرب الجزيرة بالسجايا العربيَّة العريقة والمثل العربيَّة العليا، ويحرصون على الدِّفاع عن السجايا العربيَّة ومُثُل العرب العليا.

وكان عرب الجزيرة، قبل الفتح الإسلامي، وقبل الإسلام، يشكّلون الأكثرية المطلقة بين مختلف عناصر السكّان، لذلك كانت لهم إمارات ودول وجيوش وحضارة، وسيطروا على الطرق التجارية التي تمرّ عبر الجزيرة من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق.

---

(١) جمهرة أنساب العرب (٢٨٩).
(٢) جمهرة أنساب العرب (٢٩٠).
(٣) جمهرة أنساب العرب (١٩٨ و٢٠٧ ـ ٤٦٦).
(٤) جمهرة أنساب العرب (٣٨٠ ـ ٣٨١).
(٥) جمهرة أنساب العرب (٣٨١).
(٦) جمهرة أنساب العرب (٣٨١).

٢ ـ الأكراد:

سكن الأكراد إقليم الجزيرة منذ القدم، وكانوا عنصراً مهماً من عناصر سكّانها، اشتهروا بقوّة أبدانهم وشدّة بأسهم وقدرتهم الحربيّة التي اكتسبوها من طبيعة بلادهم الجبلية الوعرة.

والآثار القديمة الخاصة بالأكراد، المكتشفة حتى اليوم، لا تعطينا فكرة قاطعة عن أصل الأكراد ومنشئهم[١]، ومن المحتمل جداً أنّ الأكراد هاجروا في الأصل من شرقي إيران إلى الغرب في منطقة كردستان واستوطنوا فيه منذ فجر التاريخ، وهذا لا يمنع وجود أقوام في تلك المنطقة قبل هجرة الأكراد إليها، فاختلط الشعب الوافد بتلك الأقوام واندمج فيها اندماجاً كليّاً، فصاروا أمة واحدة على مدى الأيام[٢].

وكان الأكراد قبل الإسلام يدينون بالعقيدة الزردشتية التي ظهرت في فارس ومبديا، فلمّا ظهر الإسلام وانتشر في إقليم الجزيرة، اعتنقه الأكراد وأخلصوا له واندمجوا في المجتمع الإسلامي الكبير الذي ضمّ عديداً من الأجناس والأقوام.

ويذكر قسم من المؤرخين العرب، أنّ أصل الأكراد من العرب[٣]، ولا دليل على ذلك، وليس معنى هذا أنه لا يوجد العنصر العربي في الأكراد فالواقع أنّ قسماً من القبائل العربيّة جاورت الأكراد ردحاً طويلاً، فاندمجت بهم اندماجاً كاملاً في العادات واللّغة. وكمثال على ذلك، فقد نزل مدينة حُلْوان القريبة من خانقين قوم من ولد جَرير بن عبد اللّه البَجَلِيّ[٤]، فأعقابهم بها[٥] أي أنّ قبيلة بَجِيلَة العربيّة أو قسماً منها نزلت

---

(١) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان (٤٠).

(٢) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان (٤١).

(٣) مروج الذهب (٣/٢٥٣ ـ ٢٥٤) ووفيات الأعيان (٤/٤٣٩).

(٤) انظر سيرته المقالة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٥٦ ـ ٣٧١)، وكتابنا: سفراء النبيّ صلى اللّه عليه وسلم.

(٥) انظر: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٦٤ ـ ٣٦٥).

منطقة خانقين وحُلْوان في أيام الفتح الإسلامي، واليوم في هذ المنطقة قبيلة كردية باسم: (باجلاَن)، وهي بمعنى: بَجَلِيّ، نسبة إألى بَجِيلَة القبيلة العربيَّة المعروفة، لأنّ الألف والنون في باجلاّن علامة نسبة بهلوية[1].

وما يقال عن قبيلة بَجِيلَة العربيَّة التي استكردت، يقال عن قسم من أعقاب الصحابي الجليل جرير بن عبد اللّه البجليّ العرب الذين استكردوا. وقد قضيت بضع سنوات قائداً لحامية قصبة عَقْرَة الكرديّة، فكان قسم من رؤساء عشائرها هاشميين أو عباسيين أو أمويين، ولديهم وثائق تثبت صحّة نسبهم إلى تلك البيوتات العربيَّة العريقة، ممَّا يدلّ على أنّ الصلة الوثيقة بين العرب والأكراد لا تقتصر على علاقات الدِّين والجوار، بل تشمل أيضاً علاقة القُربى، وعلاقة الدم، فهي أوثق من أن تضعفها الأهواء والنزعات والنزوات، لأنّها علاقة عضوية أزلية.

٣ ـ الآراميون:

مجموعة من القبائل السّاميَّة التي عاشت في المدة الممتدّة بين القرنين الحادي عشر والثامن قبل الميلاد، في منطقة آرام التي تشمل مساحات واسعة من شمال سوريّة، فاستولت على مناطق واسعة أخرى في الجزيرة العربيَّة.

ويبدو أنّ موطن الآراميين الأصلي كان الصحراء السوريَّة (بادية الشَّام)، ومنها انتقلت شأنها شأن غيرها من القبائل إلى الأرض الزِرَاعيَّة المجاورة، حيث اختلطت بالشعوب الأخرى المقيمة هناك.

ولقد وردت أخبار الآراميين في النصوص الآشورية التي يتّضح منها

---

(١) راجع كتاب: دستور بهلوني (٢٠٧) ـ بمبيّ ـ ١٩٢٤م، فباجلاّن إذن نسبة إلى بجليّة، فأسقطت منها التاء المربوطة بعد أن تحولت إلى هاء صامتة تخفيفاً، فأضيفت إلى آخر الكلمة أداة النسبة البهلوية (ان)، ثم شبعت فتحة الياء فتحولت ألفاً، فأصبحت الكلمة: باجلان.

أنّهم يعيشون عند نهر الخابور وفي منطقة الفرات الأوسط، وذكرهم الملك الآشوري تجلّات بلاهر الأول (١١١٦ ـ ١٠٧٦ ق.م) فقال: إنّه شنّ عليهم ثمانِ وعشرين حملة تمتدّ من تدمر إلى عانات.

وفي نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد، كوّنوا دولة (بيت عدن Bit - Adin) على ضفتي الفرات أسفل كركميش، كما أقاموا في وادي الخابور مشيخات عديدة، واستولت بعض قبائلهم على نصيبين وعلى المنطقة الواقعة جنوب غربيّ مارِدِين، بل إنّهم بلغوا منطقة جبل طور عابدين غرب الفرات، وفي الجنوب امتدّ نفوذهم حتى دمشق. وقد اتّسع نفوذ الآراميين خلال القرن الحادي عشر قبل الميلاد، فاحتلّوا سوريَّة وانتشروا على طول نهر الفرات الأوسط والأسفل ودجلة الأوسط، وفرضوا نفوذهم السياسي على بابل نفسها، بحيث أصبح ما بين بابل والبحر المتوسط تحت سطوة القبائل الآرامية المعروفة بالكلدانيين في التوراة.

وظلّ الصراع محتدماً بين الآشوريين والآراميين حتى قيام الإمبراطورية البابليّة الجديدة المعروفة بالكلدانية، حيث اندمجت العناصر الكلدانية والآرامية والبابلية ببعضها.

لقد قام الآراميون بدور بارز في الحياة الثقافية والتجاريّة لإقليم الجزيرة، فمن الناحية الثقافية نجد أنّ اللّغة الآرامية ـ وهي لغة سامية لها شبه باللّغة العربيَّة ـ تصبح منذ القرن التاسع قبل الميلاد لغة أدبية ثقافية، ثمّ تصبح فيما بعد لغة التجارة والثقافة في بلاد ما بين النَّهرين خلال حكم الآشوريين المتأخر والبابليين والكلدانيين (بابل الجديدة)، حتى إذا ما سقطت هذه الأقاليم ضمن الإمبراطورية الفارسية (٥٣٩ ـ ٣٣٢ ق.م)، كانت اللّغة الآرامية لغة مستعملة ما بين مصر والهند، غير أنّ انتصارات الإسكندر المقدوني واحتلاله لقسم من البلاد الشرقيَّة في آسيا كما هو معروف، أحلّ اللّغة اليونانية محلّ اللّغة الآرامية لغةً رسمية في الشرق، ومع ذلك ظلّت لهجات آرامية تحيا خلال العهود الرومانية، بل إنّ هذه

اللّغة ما زالت في بعض قرى سوريَّة والجزيرة وأَذْرَبِيجَان وطور عابدين وبحيرة أورمية.

وعلى الرغم من أنّ الجغرافيين والمؤرخين العرب لم يستعملوا لفظة: (الآراميين) للدلالة على القبائل الآرامية: إلا أنّهم استخدموا لفظه: (نصارى)، وهم بذلك يشيرون إلى الآراميين الذين عاشوا منذ قرون عديدة قبل الإسلام في إقليم الجزيرة.

كما نعثر كثيراً على لفظة: (الجرامقة) للدلالة على النصارى في الجزيرة بصورة خاصة، ويستعمل ابن حوقل لفظة: (الشّهارجة)، ويريد بهم النصارى أيضاً[1]، كما يستعمل هذه اللفظة غيره من المؤرخين والجغرافيين العرب.

والجرامقة هم الآراميون، وكانت لغتهم السريان الشرقيين، وأصل كلمة: (الجرمقان) التي هي مفرد كلمة الجرامقة، معرّبة عن أصلها الآرامي: (جرمقايا) أي مَنْ كان أصله من: (بيت كرماي)[2]، وقد توصّل نولدكه بدراساته أنّ الجرامقة هم من الأصل الآرامي أو النبطي. وعلى الرغم من أنّ المؤرخين العرب استعملوا لفظة: (النبط) للدلالة على أخلاط الفلاحين في العراق، إلاّ أنّهم أرادوا بهم على وجه الدّقة الآراميين[3].

ولا يزال بقايا الآراميين في كثير من مدن وقرى الجزيرة حتى اليوم.

الموارد الاقتصادية للإقليم

إقليم الجزيرة غني في إنتاجه الزراعي وموارده الطبيعية، يرويه نهران

---

(١) صورة الأرض (١٩٦) وانظر ابن الأثير (٢/ ٥٢٣).
(٢) بيت كرماي: يسميها العرب: باجرمي: تقع شرقي دجلة، بينه وبين الزاب الأسفل وجبال حمرين ونهر ديالي.
(٣) الدولة الحمدانية (١٨٧ ـ ١٩٢).

كبيران هما دجلة والفرات وروافدهما العديدة، فكانت دجلة تروي منطقة ديار بكر، على حين امتدَّت ديار مُضر على طول نهر الفرات، وأمدّ الخابور والزَّاب الأسفل منطقة ديار ربيعة.

وعلى الرغم من أنّ دجلة يجري في الجزيرة، فإنّ مياهه منخفضة عن مستوى الأرض، ممَّا جعل الاستفادة منها صعبة للأغراض الزِرَاعيَّة إلاّ بالوسائل لرفع الماء، لذلك اعتمد هذا الإقليم على الأمطار التي تسقط عادة بين شهري تشرين الأول (أكتوبر) ونيسان (أبريل) سنوياً، كما اعتمد على العيون الكثيرة، حتى قيل إنّ مدينة (رأس عين) حوت أكثر من ثلاثمائة عيناً[1]، وكانت نصيبين تستمد ماءها من نهر ماؤه من عين تنبع من جبل قريب منها[2]. وقامت على الفرات مدن ديار مُضَر كالرَّقَّة وقرقيسياء، فأفادت مزارعها من مياه النَّهر القريبة التي كانت ترويها بسهولة ويُسر لانخفاض ضفاف النّهر.

ومجمل القول: إنّ المدن والأرض البعيدة عن مجاري الأنهار، اعتمدت على الأمطار والعيون والآبار.

وكانت أهم وسائط الرّي: الدولاب والدالية والناعورة. والدولاب: آلة تديرها الدابة ليُستقى بها. والدالية: ألة ترفع الماء وتديرها الأبقار. وأما الناعورة: فآلة تُركّب على الأنهار ويديرها الماء[3].

ويذكر ابن حوقل عروب الموصل الكثيرة في وسط دجلة، وهي المطاحن القائمة في مجرى النَّهر الشّديد الجريان، موثقة بالسلاسل الحديد: في كل عربة منها أربعة أحجار، يطحن كلّ حجرين في اليوم والليلة خمسين وِقْرا[4]، وهذه العروب من الخشب والحديد، وربما دخل

---

(١) صورة الأرض (٢٧٨).

(٢) رحلة ابن جبير (١٩٦).

(٣) الحضارة الإسلامية، آدم متز (٢/٢٤٨).

(٤) الوقر: الحمل الثقيل. (ج): أوقار.

بها شيء من السّاج، ويشير كذلك إلى عروب بلد والرَّقَّة وقلعة جعبر وتَكْرِيت والحديثة التي كانت قائمة وسط دجلة، والتي تجهّز المناطق المجاورة القريبة منها والبعيدة بما يحتاج إليه من طحين[١].

وكانت أغلب مدن الجزيرة محاطة بالأرض الزِرَاعيَّة، فقد كانت الموصل الحدباء ـ قصبة ديار ربيعة ـ ذات نواح عريضة ورساتيق[٢] عظيمة وكور[٣] كثيرة، غزيرة الأهل والقرى والقصور والمواشي إلى غَير ذلك من أسباب النتاج السائمة من الأغنام والكراع[٤]. ويُعدّد ابن حوقل مواد المنطقة، فيقول: إنّ المرج اشتهر بسوق الأحد الذي يزخر بالأمتعة، وقردى وبازبدى كانتا تنتجان القمح والشعير والحبوب الأخرى، بحيث أنّ كلّ ضيعة من ضياعها كانت تنتج ألف كرّ[٥] من الحنطة والشعير، ويشير ابن حوقل إلى أنّها اشتهرت بإنتاج النبيذ الذي يدرّ موارد على الدَّولة تعادل ما كانت تدرّه الواردات الزِرَاعيَّة، وضرائب الخمرة هي التي كانت تدعى بأموال اللطف[٦]. واشتهرت منطقة الخابور بكثرة الغلّات والفواكه اليابسة والرّطبة، على حين أنتجت منطقة الموصل كميات هائلة من الحنطة والشّعير، حتى بلغ معدّلها ستة آلاف كُرّ حنطة وشعيراً، قيمتها من الوَرِق[٧] ثلاثة آلاف ألف درهم ومن الحبوب وغيرها ما قيمته من الورق مائة وخمسين ألف درهم[٨] (عشرة آلاف دينار).

---

(١) صورة الأرض (١٩٨).

(٢) الرساتيق: (ج) رستاق، وهو موضع فيه مزارع وقرى أو بيوت مجتمعة.

(٣) كور: (ج) كورة، وهي البقعة التي فيها قرى ومحال.

(٤) الكراع: الدواب.

(٥) الكر: كيل، وهو ستون قفيزاً، والقفيز ثمانية مكاكيك، والمكوك صاع ونصف الصاع، انظر المصباح المنير (٢/ ٧٢٧).

(٦) اللطف: الهدية، انظر صورة الأرض (١٩٦) حول ما ورد عن ذلك الورد.

(٧) الورق: المال من الدراهم، انظر المصباح المنير (٧/ ٩٠٣).

(٨) صورة الأرض (١٩٧).

وكانت الموصل محاطة بمناطق زراعية خصبة للغاية، ولها كور ورساتيق كثيرة[1]، تحيط بها البساتين ذات الأثمار والفواكه والخضروات المختلفة، ولعل فستق الموصل من أشهر أنواع الفستق في العالم كلّه، ونواحي الموصل الممتدة على ضفتي دجلة شمالاً وجنوباً كانت جنات يانعة وحقولاً خصبة. واشتهرت باعَشِيقَا من نواحي الموصل بحقولها المثمرة بالزيتون والنخيل والنارنج التي ترويها عدّة جداول[2]. وكانت الحديثة محاطة ببساتين كثيرة وسهول فسيحة، واشتهرت هي وبلد بالطواحين التي كانت في وسط دجلة[3]. وعرفت نصيبين ببساتينها وكثرة أشجارها المثمرة، وبإنتاجها أفخر أنواع الأرز والقمح والشعير والكروم الرائعة الرخيصة جداً، فضلاً عن مراعيها التي كثرت فيها الأغنام والمواشي، وبفضل جودة كرومها أنتجت أنواعاً من الشّراب[4].

وكان يحيط بسِنْجار سهول فسيحة خصبة ومزارع تنتج الأثمار، كالجوز واللّوز والزيتون والأترنج والسمسم والرمان الكبير الذي يُصَدَّرُ حبّه الكبير إلى نواحي العراق والنَّواحي الأخرى فضلاً عن وفرة النّخيل في سِنْجار، وهي ميزة امتازت بها على سائر نواحي الجزيرة، عدا نواحي الفرات وهِيْت والأنبار[5]، كما اشتهرت سِنْجار بالتين الفاخر الذي يجفّف ويُصَدَّرُ إلى العراق وسوريّة. واشتهرت مارِدِين بالإضافة إلى فواكهها وكرومها بجوهر الزّجاج الذي كان يصدّر إلى سائر بلدان الجزيرة والعراق وبلاد الروم: فيفضّل على ما سواه بجوهريّة فيه[6]. واشتهرت آمِد بأحجار أرحيتها، حتى كان الحجر الواحد الذي يستخدم للطحن بالعراق يساوي

---

(١) صورة الأرض (١٩٦) وانظر الأعلاق النفيسة (١٠٦).
(٢) صورة الأرض (١٩٨).
(٣) صورة الأرض (١٩٨).
(٤) صورة الأرض (١٩٩).
(٥) صورة الأرض (١٩٩).
(٦) صورة الأرض (١٩٤).

نحو خمسين ديناراً[١]، وكانت جزيرة ابن عمر تُصدّر بالسفن إلى الموصل العسل والسّمن والمنّ والجبن والجوز واللّوز والبندق والزّبيب والتّين[٢].

وكانت ضواحي بلد كثيرة الشجر والثمر والخُضر الفواكه والكروم. واشتهرت أَذْرَمَة بكثرة غلاّتها، ودَارَا بوفرة خيراتها وخصبها، حتى كان المأكل بالمجّان لرخص ثمنها[٣]. واشتهرت كَفَرتُوثَا بكثرة أشجارها وأثمارها وزروعها وبساتينها[٤]، واشتهرت رأس عين بالإضافة إلى حاصلاتها الزِرَاعيَّة ومنتوجاتها الوفيرة من الفاكهة بالقطن الذي كان ينتج بمقادير كبيرة[٥]، كذلك كانت حرّان من مراكز إنتاج القطن بالإضافة إلى كونها ذات شهرة ذائعة في صناعة الموازين الدقيقة[٦].

إن إقليم الجزيرة خصب وفير الحاصلات عظيم الغلاّت كثير الخيرات، حتى قال فيه، كانت قريش تسأل في الجاهلية عن حصب باعربايا وهي الموصل لقدرها عندهم. فلم ينلهم في خصبها شيء قط، وعن ريف الجزيرة وما يليها، لأنها تعدل في الخصب عندهم باعربايا[٧].

وقد تعدّدت الحاصلات الزِرَاعيَّة في هذا الإقليم، كالقمح والشعير والأرز وأشجار الفواكه المتعددة الأصناف كالنخيل والنارنج والزيتون والكمثرى والكروم والسفرجل والرمان والتّوت والتّين وغيرها من صنوف الأثمار الطريّة والجافّة[٨]. كما نجد زراعة قامت لأغراض صناعية وفي مقدمتها القطن الذي زرع بوفرة في إقليم الجزيرة. وكانت زراعة التوت

---

(١) صورة الأرض (٢٠١).
(٢) صورة الأرض (٢٠٣).
(٣) صورة الأرض (١٩٩) وانظر معجم البلدان (١/ ١٦٤ ـ ١٦٥).
(٤) صورة الأرض (١٩٩).
(٥) صورة الأرض (٢٠٠).
(٦) المقدسي (١٤١).
(٧) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه (١٣٥).
(٨) صورة من الأرض (١٩٦ و٢٠٣ و٢٠٤ و٢٠٧).

تستهدف تربية دودة القز لإنتاج الحرير الذي اشتهرت به الموصل، كما اشتهرت باعَشِيقَا ببيع البُرّ[1].

وكان في باجَرْمَى من نواحي الموصل جبل يسمى: (شَعْرَان) لكثرة أشجاره، ويقال للشجر الشّعراء، وهو جبل قَنديل، وهو من أعمر الجبال وفيه الكمثرى والعنب وأنواع الطير، كما اشتهر بالأشجار الضخمة التي كانت تقطع جذوعها وترسل إلى العراق[2]، وكانت هذه الأخشاب تنقل بالنَّهر بعد تنضيدها في أكلاك، تحمّل بالحنطة والشعير والأرز والمواد الميسّرة الأخرى، فإذا وصلت إلى مستقرّ ما بيعت الأخشاب وما تحمله من مواد تموينيّة، فتستخدم الأخشاب في البناء وصناعة السّفن والأثاث المنزلية والأبواب والشبابيك وغيرها.

واستخدم زيت الزيتون لصناعة الصابون، وكانت مدينة الرَّقَّة معدن الصابون الجيد والزيتون[3]، واشتهرت مراعي الجزيرة شهرة عريضة، ممَّا أدّى إلى كثرة الأغنام والمواشي والأبقار وكثرة ما تنتجه من جلود استغلّت لصناعة الأحذية والسّروج وغيرها من المصنوعات الجلديَّة، فاختصت سِنْجار بالمهارة في صناعة الأحذية واشتهرت بكثرة إسكافتها[4]، كما اشتهرت الموصل بالسّروج وعدد الخيل والبغال وغيرها من الحيوانات التي يستفاد منها لأغراض الحمل والتنقّل.

وبجانب الثروة الزِرَاعيَّة الهائلة، كانت منطقة الجزيرة منطقة مراعٍ شهيرة، فإذا أصيبت الجزيرة العربيَّة أو بعض أجزائها بالجدب، تنقّلَ العرب بمواشيهم إلى مراعي الجزيرة الخصبة في سهولها وهضابها ووديانها الغزيرة الأمطار نسبياً. قال ابن حوقل عن نصيبين: إنها كثيرة السَّائمة

(١) معجم البلدان (٢/ ٤١).
(٢) مختصر كتاب البلدان (١٣١ ـ ١٣٢).
(٣) مختصر كتاب البلدان (١٤١).
(٤) مختصر كتاب البلدان (١٤٠).

والكراع[1] وعن الموصل: إنها اشتهرت بتربية الغنم والبقر[2]، واشتهرت الجزيرة بالأفراس الجزرية[3]، واشتهرت حديثة الموصل بكثرة الصيود[4]، واشتهرت جزيرة ابن عمر بصناعة العسل والجبن والمنّ[5].

وكان بالرَّقَّة دُهْن الخَطَّارة[6]، وفيه أعجوبة، وذلك أنه لا يُتَّخذ إلاّ في حانوت بها معروف، فإن اتّخذ في غيره من الحوانيت فسد، وخاصته أنه نافع للرياح والنقرس[7] فهو إذاً مرهم طبّي شديد الفاعلية ويحتاج إلى رعاية وعناية وحفظ في جوّ معيّن كي لا يفسد. وكانت الأعشاب الطبيَّة معروفة لدى العطارين بخاصة والمتطببين بعامَّة ولها رواج عظيم، وكان التداوي بالأعشاب الطبيَّة شائعاً في مدن الجزيرة كالموصل وغيرها.

وكان يصدّر الملح من الجزيرة إلى العراق، فقد اشتهرت براري الجزيرة بالملح والأشْنَان[8] اللذين يصدران إلى العراق[9]، كما هناك معدن الحديد الذي تصنع منه الأسلحة كالسيوف والخناجر ويدخل في المشاريع العمرانية وبخاصة في صناعة الشبابيك والأبواب. أما الحجارة المتعدّدة الأصناف والكلس والجصّ، فقد حفلت بها مدن الجزيرة وساعدت أن تشيّد بها أبنية ملوّنة وصروح شامخة وقصور ودور وأسوار منيعة.

ولا بدّ من أنّ الثروة المعدنيَّة في إقليم الجزيرة كانت وفيرة وإن لم

---

(١) صورة الأرض (١٩١).
(٢) صورة الأرض (١٩٣).
(٣) مختصر كتاب البلدان (١٣٥).
(٤) صورة الأرض (١٩٨).
(٥) صورة الأرض (٢٠١).
(٦) الخطّارة: الخطّار هو: دهن يتخذ من الزيت بأفاويه من الطيب. ومسك خطّار: نفّاح.
(٧) مختصر كتاب البلدان (١٣٤).
(٨) الأشْنَان: شجر من الفصيلة الرّمراميَّة ينبت في الأرض الرملية، يستعمل هو أو رماده في غسل الثياب والأيدي.
(٩) صورة الأرض (٢٠٥).

يستطع أبناء عصر قبل الإسلام أن يكتشفوها ويستغلّوا منافعها الحيوية للناس. يقول ابن الفقيه: إنّ الجبل الذي بآمِد فيه صدع، فمن انتضى سيفه فأولجه فيه وقبض على قبيعته بجميع يديه، اضطرب السيف في يديه وأرعد القابض وإن كان أشدّ الناس. وفيه أعجوبة أخرى، أنه متى يحكّ بذلك الجبل سكّين أو حديد أو سيف، حملَ ذلك السيف السكّين الحديد، وجذب الإبر والمسال بأكثر من جذب المغناطيس. وفيه أعجوبة أخرى، وهي أنّه لو بقي مائة سنة لكانت تلك القوّة قائمة فيه[1] إنّ هذه الخاصيّة الكهربائية والمغناطيسية كانت تدلّل على وجود ثروة معدنية كامنة في صخور جبل آمِد لم يتح لذلك العصر الموغل في القِدم استغلالها كما ينبغي.

وهكذا يمكن القول: إنّ الجزيرة كانت إقليماً واسع الغنى وفير الثروة عظيم الإنتاج في مجالات الثروة الزِرَاعيَّة والحيوانية والصِنَاعيَّة، وهو ما يسوِّغ ويفسِّر الصراع العسكري الحاد الذي دار بين الدولتين العظميين قبل الإسلام: السَّاسانية والبيزنطية، للاستئثار به وامتلاكه[2].

كما أنّ هذا الغنى والرخاء في هذا الإقليم وخصوبة أرضه وغزارة مياهه وعذوبة طقسه واعتدال هوائه، جعله محطّ أنظار العرب منذ أقدم العصور، فسكنوه قبل قرون طويلة لا يمكن تحديدها قبل الإسلام، وشجّعهم على اللّجوء إلى رحابه في سِنِيِّ القحط في جزيرتهم العربيَّة، فمنهم مَنْ يعود إلى دياره بعد أن يزول الجفاف، ومنهم من يستقرّ في الجزيرة، وحملهم على الهجرة من الجزيرة العربيَّة أيضاً تزايد السكان فيها

---

(١) مختصر كتاب البلدان (١٣٣).

(٢) انظر التفاصيل في: صورة الأرض (١٨٧ ـ ٢٠٧) ومختصر كتاب البلدان (١٢٨ ـ ١٣٦) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٩٣ ـ ٩٨) وتقويم البلدان (٢٧٣ ـ ٢٨٩) والمسالك والممالك (٥٢ ـ ٥٥) وانظر بلدان الخلافة الشرقية (١١٤ ـ ١٤٦) والدولة الحمدانية (١/ ١٩٢ ـ ١٩٩).

أو من جراء الاقتتال بين القبائل العربيَّة، فينزح مَنْ يُهزم، ويستقرّ مَنْ يَغْلِب، فيجد له ملجأً يأوي إليه في رحاب إقليم الجزيرة الغنيّ المعطاء.

لقد كان إقليم الجزيرة ينتج مختلف أنواع الحبوب التي يفيض على حاجة سكّانه فيصدِّرها إلى البلدان المجاورة، وبخاصة العراق وبلاد الشَّام، كما كان ينتج مختلف أنواع الأثمار والخُضَر.

كما كانت مراعي الجزيرة من أشهر وأخصب مراعي المنطقة كلّها بما فيها العراق وبلاد الشّام، وكانت دائمة الخضرة غنيَّة بالأعشاب والكلأ، يؤمّها أصحاب المواشي من كلّ حدب وصوب عند جفاف مناطقهم الأصليّة، وبخاصة مناطق الجزيرة العربيَّة التي كثيراً ما تصاب بالجدب والجفاف والقحط.

وكان هذا الإقليم غنيّاً بموارده الحيوانية: الأغنام، والمواشي، والأبقار، والخيل، والبغال، والحمير، وتصدّر الأغنام والأبقار بخاصة إلى بلاد الشَّام.

وكانت تصدِّر الجبن والسّمن إلى العراق وبلاد الشَّام أيضاً، وتصدِّر الصابون إلى العراق.

وكانت تصنع الملابس القطنية والحريرية والصوفية، واشتهرت الموصل بأقمشتها الفاخرة، كما صنّعت الجزيرة السجّاد والسيوف والخناجر والمدى والأسلحة الجارحة المصنعة من الحديد، وتصدِّر الأدوية المصنّعة من الأعشاب الطبيَّة والملح.

تاريخ إقليم الجزيرة قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه الأولى

حين استغلّ سكّان الجزيرة طاقات أرضهم الخصبة الغنيَّة وثرواتها لأنفسهم، وسخّروا طاقات بلادهم الطبيعيّة والبشريَّة لخير بلادهم ومصالحها، وسخّروا طاقاتهم المعنويّة بالإضافة إلى طاقاتهم الماديَّة للدفاع عن أرضهم وصيانة استقلالها، حكموا بلادهم وحكموا البلاد المجاورة، وسجّلوا في صفحات التاريخ البشريّ صفحات ناصعة مشرِّفة عسكريّاً وسياسيّاً وحضاريّاً، كما ذكرنا ذلك في الحديث عن سكّان الجزيرة، وكان هذا في القرون التي سبقت الميلاد.

ولكنّهم حين استسلموا للترف، ومالوا إلى الدّعة، واهتم كل فرد بنفسه وبما في حياته الماديَّة من دعة واستقرار وثراء، تكالبت عليهم الأمم، فكانوا تارة تحت حكم الفرس، وتارة تحت حكم اليونانيين، وتارة تحت حكم الرّوم، وكان إقليم الجزيرة بعد الميلاد وقبل الإسلام يرزح تحت استعمار الساسانيين مرة، وتحت استعمار البيزنطيين تارة أخرى.

وقبيل الفتح الإسلامي مباشرة، كان إقليم الجزيرة تحت حكم البيزنطيين، فقد قاتل المسلمون الفاتحون في مدينة تَكْرِيت الرّوم ومن معهم من جيشهم المحليّ المؤلف من العرب: إياد وتغلب والنّمر والآراميين[1]، كما قاتلوا الرّوم وحلفاءهم في الموصل أيضاً[2]، كما كانت

---

(١) ابن الأثير (٢/ ٥٢٣).

(٢) ابن الأثير (٢/ ٥٢٤).

سِنْجَار في أيدي الروم[١]، وقد أراد بنو تغلب أن يلحقوا بأرض الرّوم بعد فتح شِقّ الفرات الشّامي: عانات وسائر حصون الفرات[٢]، فصولحوا بعد أن عبروا الفرات وأرادوا اللّحاق بالرّوم[٣]، ومعنى ذلك أنّ إقليم الجزيرة كان تحت حكم البيزنطيين قُبَيْل الفتح الإسلامي وفي أيامه.

ولا يهمنا كثيراً تاريخ الجزيرة قبل الميلاد، فقد استوفاه المؤرخون في بحوث التاريخ القديم، فليرجع إلى ما استوفوه في المصادر والمراجع التاريخية من يريد.

أما بعد الميلاد، فقد أصبح تاريخ الإقليم جزءاً من تاريخ الدَّولة الساسانية الذي استوفيناه في مقدمة كتاب: قادة فتح بلاد الفرس[٤]، فلا مجال لتكراره هنا، إذ لا فائدة من الحديث المعاد، ومن أراد دراسته فليطّلع عليه في مكانه المذكور وفي مصادره الأخرى.

أما مجمل تاريخ البيزنطيين، فسيرد ذكره وشيكاً في الحديث على: بلاد الرّوم، الذي ينشر بعد هذا البحث بإذن اللّه، لأنّ تاريخ إقليم الجزيرة أصبح جزءاً من تاريخ الدَّولة البيزنطية.

وهكذا أصبح تاريخ الجزيرة العريق قبل الميلاد، تاريخاً يتَّصل بالحاكمين أكثر ممَّا يتَّصل بالسكّان الأصليين، فأصبح تاريخاً غير عريق، لأنه يتّصل بالغرباء ويبتعد عن أهل الدار، وتلك عبرة لمن يريد أن يعتبر.

---

(١) فتوح البلدان (٢٤٤).
(٢) فتوح البلدان (٢٥٠).
(٣) فتوح البلدان (٢٥١).
(٤) قادة فتح بلاد الفرس (٩ ـ ٨٠).

فتح الجزيرة

١ ـ الموقف العام:

فتح المسلمون الجزيرة سنة سبع عشرة الهجريَّة[١] (٦٣٨ م)، وكان سبب فتحها، أنّ أهلها استثاروا الرّوم على أهل (حِمْص)، فقصد الرّوم أبا عُبَيْدَة بن الجرّاح[٢] ومَن معه من المسلمين بحِمْص، وحاصروا المسلمين في هذه المدينة[٣].

وكان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه خليفة المسلمين الثّاني، قد اتّخذ في كلّ مِصْر من أمصار المسلمين خيولاً على قدره من فضول أموال المسلمين عُدّة لمعالجة المواقف العسكريَّة الطارئة، كهجوم معادٍ غير متوقّع على مواضع المسلمين، أو تردّي الموقف العسكريّ في جبهة من الجبهات الحيويّة، أو قيام المسلمين بالتعرّض على العدو دفاعاً عن فتوحهم باعتبار أنّ الهجوم أنجع وسائل الدِّفاع. وكان بالكوفة من تلك الخيول الجاهزة أربعة آلاف فرس، وكان المسؤول عليها سلمان بن ربيعة الباهليّ[٤] ونفر من أهل الكوفة. ولما سمع عمر بن الخطّاب بزحف حشود الرّوم إلى (حِمْص) ومحاصرتها بقوّات متفوّقة على قوّات المسلمين، كتب إلى

---

(١) الطبري (٤/ ٥٣) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢).
(٢) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح الشّام ومصر (٥٤ ـ ٨١).
(٣) ابن الأثير (٤/ ٥٣٠).
(٤) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح إرمينية.

سعد بن أبي وَقّاص[1] رضي الله عنه في الكوفة: أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو[2]، سرّحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حِمْص، فإنّ أبا عُبَيْدَة قد أُحيطَ به، وتقدّم إليهم في الجدّ والحَثُّ. ولم يكتف عمر بن الخطّاب بذلك، بل كتب إلى سعد بن أبي وقّاص: سرِّح سُهَيْل بن عدِيّ[3] إلى (الرَّقّة)، فإنّ أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الرّوم على أهل حِمْص، وأمره أن يُسرّح عبد اللّه بن عِتْبَان[4] على نصيبين ثمّ ليقصد حَرّان والرُّها، وأن يُسرِّح الوليد بن عُقْبَة[5] على عرب الجزيرة من ربيعة وتَنُوْخ، وأن يُسرِّح عَيَاض بن غَنْم[6]، فإن كان قتال فأمرهم على عِيَاض.

ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الرّوم على أهل حِمْص ـ وهم معهم في حصار تلك المدينة ـ خبرُ المسلمين الذين قصدوا الجزيرة، تفرّقوا إلى بلادهم وفارقوا الرّوم، فأصبح الرّوم الذين يحاصرون حِمْص ضعفاء، فقاتلهم أبو عبيدة بن الجرَّاح وانتصر عليهم، فانسحبوا إلى بلادهم[7] مدحورين.

ومن الواضح أنّ تفرّق أهل الجزيرة الذين كانوا مع جيش الرّوم في حصار حِمْص وعودتهم إلى بلادهم، سببه الدِّفاع عن بلادهم بعد أن هدّدها المسلمون الفاتحون، لأنّ الدِّفاع عن الوطن مقدّم على الدِّفاع عن غير الوطن، فما كان بمقدور أهل الجزيرة ولا بمقدور غيرهم أن يصبروا على تعرّض وطنهم للخطر وهم يقاتلون بعيداً عنه في بلاد غير بلادهم وفي أرض غير أرضهم ووطن غير وطنهم.

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح العراق والجزيرة (٢٤٨ ـ ٢٩٦).
(٢) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح العراق والجزيرة (٢٤٨ ـ ٢٩٦).
(٣) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٨٠ ـ ٤٨٥).
(٤) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٣١ ـ ٣٥٥).
(٥) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٩٣ ـ ٥١٤).
(٦) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٦٩ ـ ٤٧٩).
(٧) الطبري (٤/ ٥١ ـ ٥٢) وابن الأثير (٣/ ٥٣١).

ولكن أهل الجزيرة استثاروا الرّوم على أهل حِمْص، حين كان المسلمون قد اقتربوا بفتوحاتهم من إقليم الجزيرة، خوفاً من إقدام المسلمين الفاتحين على فتح الجزيرة كما فتحوا العراق وبلاد الشَّام، فاستثارتهم للرّوم لاستنقاذ حِمْص من المسلمين في الواقع هو دفاع مباشر عن بلادهم، ومحاولة نقل مسرح العمليّات إلى خارج أرضهم، قبل أن تصبح بلادهم مسرحاً لعمليَّات فتوح المسلمين.

ولم ينجح أهل الجزيرة في خطّتهم السَّوْقِيَّة في نقل مسرح العمليَّات بعيداً عن بلادهم، لأنّ عمر بن الخطّاب بما عُرِفَ عنه من خطط سَوْقِيَّة سليمة، أجبرهم على التخلّي عن الرّوم في أحرج الأوقات، فعادوا أدراجهم إلى بلادهم للدفاع عنها، وهكذا أخفقت خطّة أهل الجزيرة في الدِّفاع عنها خارجها، وأخفقت نتيجةً لذلك خطّة الرّوم في حصار حِمْص واستنقاذها من المسلمين الفاتحين.

إلاّ أنّ القول بأنّ عمر بن الخطَّاب خطّط للتعرّض بإقليم الجزيرة وفتحه لصرف أهله عن معاونة الرّوم في حصار حِمْص واستعادتها إلى سيطرة الرّوم، كما كانت عليه قبل فتحها من المسلمين، لا يغني عن كل قول، فالواقع أنّ الرّوم الذين كانوا يحتلّون الجزيرة، يهدّدون تهديداً مباشراً الحدود الشماليَّة الغربيَّة للعراق والحدود الشماليَّة الشرقيَّة لبلاد الشَّام ما داموا في الجزيرة، وحماية هذه الحدود لا يكون إلاّ بفتح الجزيرة والقضاء على خطر الرّوم القادم من أرجائها.

إن استثارة أهل الجزيرة للرّوم على أهل حِمْص ثمّ كانوا مع الرّوم في حصارها، هو السبب المباشر لفتح الجزيرة، ولكنّه ليس السبب المهم، أما السبب غير المباشر فهو حماية الحدود الشماليَّة للعراق وبلاد الشَّام المتاخمة للرّوم، وهو السبب المهم، وقد يكون حصار حِمْص من الرّوم وأهل الجزيرة قد عجّل في فتح الجزيرة، إذ كان الفتح قادماً ولو بعد حين، تبعاً للظروف والأحوال.

وانطلق قادة فتح الجزيرة الأولون إلى أهدافهم المرسومة بموجب خطة واضحة: عِيَاض بن غَنْم الفِهْريّ، وسُهَيْل بن عَدِيّ الخزرجيّ، وعبد اللَّه بن عِتْبَان الأنصاريّ، والوليد بن عُقْبَة بن أبي مُعَيْط الأمويّ القرشيّ، وعُمَيْر بن سَعْد الأنصاريّ[1]، ففتحوا الجزيرة كلّها على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، حتى لم يبق منها موضع قدم إلاّ فُتح على عهده[2].

وفي رواية: أنّ فتح الجزيرة كان سنة ثماني عشرة الهجريَّة[3]، لا سنة سبع عشرة الهجريَّة كما ذكرنا من قبل. وفي رواية أخرى: أنّ فتحها كان سنة تسع عشرة الهجريَّة[4].

وفتحها سنة سبع عشرة الهجريَّة أصحّ، لأنّه جاء لغرض تخفيف الضّغط عن المحصورين بقيادة أبي عبيدة بن الجرَّاح في حِمْص من زحف الرّوم عليهم وحصارهم داخل تلك المدينة، وكان هذا الحصار سنة سبع عشرة الهجريَّة[5].

لقد كانت الجزيرة أسهل البلاد فتحاً[6]، وكان لعامل المباغتة أثر واضح في الإسراع بفتح الجزيرة، فقد هاجمهم المسلمون الفاتحون في وقت لا يتوقّعونه، إذ كانوا مدافعين في ساحة عمليَّات بلاد الشّام، وكانت المبادأة بيد الرّوم، وكان الرّوم هم المحاصِرين، وكان المسلمون هم المحاصَرين: ولكن مهاجمة الجزيرة مباشرة، قلب خطط المسلمين الدِّفاعية إلى خطط تعرّضيّة، وباغت الرّوم وأهلَ الجزيرة بخطط المسلمين

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح العراق والجزيرة (٥١٣ ـ ٥١٩).
(٢) فتوح البلدان (٢٤٠) والإستيعاب (٣/ ١٢٤٣).
(٣) فتوح البلدان (٢٣٧).
(٤) الطبري (٤/ ٥٣) وابن الأثير (٢/ ٥٣٣).
(٥) الطبري (٤/ ٥٠) وابن الأثير (٢/ ٥٣٠).
(٦) الطبري (٤/ ٥٤) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢).

التعرّضيّة وبسرعة تنفيذها، فلم يبق أمامهم إلاّ الإنسحاب والاستسلام، لأنّ التعرّض الإسلامي المباغت السريع أربك خطط المدافعين عن الجزيرة، فاستسلمت الجزيرة بسرعة ويُسْر للفاتحين.

٢ ـ فتح عِيَاض:

لما قصد الرّوم أبا عبيدة بن الجرَّاح، ومَن معه من المسلمين بحِمْص، كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطّاب بذلك، فكتب عمر إلى سعد بن أبي وقَّاص أن يسرِّح عِيَاض بن غَنْم، على أن يكون عِيَاض على المسلمين إذا نشب القتال.

وخرج عِيَاض وأمراء الجزيرة، فأخذوا طريق الجزيرة، وتوجّه كلّ أمير إلى المنطقة التي أُمِّر عليها، فأرسل سُهَيْل بن عَدِيّ إلى الرَّقة وقد انفضّ أهل الجزيرة عن حِمْص إلى كورهم حين سمعوا بقدوم أهل الكوفة إلى بلادهم، فنزل سُهَيْل على الرَّقَّة وحاصرها حتى صالحه أهلها، فبعث بذلك إلى عِيَاض، فقبل من أهل الرَّقَّة وصالحهم وصاروا ذمّة.

وخرج عبد اللَّه بن عِتْبَان إلى نَصِيبين، فلقوه بالصّلح وصنعوا كصنع أهل الرَّقَّة، وكتبوا إلى عِيَاض، فقبل منهم وعقد لهم.

ولما فتح المسلمون الرَّقَّة ونصيبين، ضمّ عِيَاض سُهَيلاً وعبد اللَّه، وسار بالناس إلى حَرَان، فلمّا وصل إليها أجابه أهلها على الجزية، فقبل منهم، ثمّ إنّ عِيَاضاً سرّح سُهَيلاً وعبد اللَّه إلى الرُّهاء، فأجابوهما إلى الجزية، فكانت الجزيرة أسهل البلاد فتحاً[١]، وكانت تلك السهولة مهجنة عليهم[٢]، لأنهم لم يدافعوا عن بلادهم كما ينبغي.

---

(١) الطبري (٤/ ٥٤) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢).
(٢) الطبري (٤/ ٥٤).

وكان نص كتاب عِيَاض لأهل الرُّها:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هذا كتاب من عِيَاض بن غَنْم ومَنْ معه من المسلمين لأهل الرُّها، إني أمنتهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ونسائهم ومدينتهم وطواحينهم، إذا أدّوا الحق الذي عليهم، وأن يصلحوا جسورنا، ويهدوا ضالّنا، شهد اللّه وملائكته والمسلمون.

وسار عِيَاض إلى سُمَيْسَاط، فصالحه أهلها على مثل صلح أهل الرُّها. وكان عِيَاض يغزو من الرُّها ثم يرجع إليها. وأتى عِيَاض سَرُوج ورأسكيفا[(١)] والأرض البيضاء[(٢)] فغلب على أرضها وصالح أهل حصونها على مثل صلح الرُّها. ثم إنّ سُمَيْسَاط كفروا، فلمّا بلغه ذلك رجع إليهم فحاصرها حتى فتحها ثانية. وبلغه أنّ أهل الرُّها قد نقضوا، فلمّا أناخ عليهم فتحوا له أبواب مدينتهم، ففتحها ثانية وخلّف عليها عامله في جماعة، ثم أتى قُرَيَّات الفرات وهي جسر مَنْبِج وذواتها، ففتحها على ذلك. وأتى عين الوردة وهي رأس عَيْن فامتنعت عليه، فتركها وأتى تلّ مَوْزَن[(٣)] ففتحها على مثل صلح الرُّها. ووجّه عِيَاضُ حبيبَ بن مَسْلَمَة الفِهْرِي[(٤)] إلى قَرْقِيسِيَاء ففتحها صلحاً على مثل صلح الرَّقَّة. وفتح عِيَاض آمِد بغير قتال على مثل صلح الرُّها. وفتح مَيَّافارِقِين على مثل ذلك، وفتح

---

(١) راسكيفا: أصلها: راس كيفا، من ديار مضر بالجزيرة قرب حرّان، انظر معجم البلدان (٤/ ٢٠٧).

(٢) الأرض البيضاء: البيضاء عين ماء قريبة من بومارية بين الموصل وتل يَعْفَر، انظر معجم البلدان (٢/ ٣٣٦).

(٣) تل موزن: بلد قديم بين مدينتي رأس عين وسروج، بينه وبين رأس عين نحو عشرة أميال، انظر معجم البلدان (٢/ ٤٠٩).

(٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد الروم.

حصن كَفَرتُوثا وفتح نصيبين بعد قتال على مثل صلح الرَّها. وفتَحَ طُور عَبْدِين[1]، وحصن مارِدِين ودارا على مثل ذلك. وفتح قَرْدَى وبازَبْدَى على مثل صلح نَصِيْبِين. وأتاه بطريق الزَّوْزَان[2]، فصالحه عن أرضه على إتاوة. ثم سار إلى أَرْزَن[3]، ففتحها على مثل صلح نصيبين، وكان عِيَاض قد فتح سِنْجار أيضاً.

ودخل (الدَّرْب)[4] فبلغ بَدْليس وجازها إلى خلاط وصالح بطريقها، وانتهى إلى العين الحامضة من أرْمِينِيَة فلم يَعْدُها، ثمّ عاد فضمّن صاحب بَدْليس خراج خِلاط وجماجمها وما على بطريقها، ثم انصرف إلى الرَّقَّة.

وبعث عُمَيْر بن سعد الأنصاري بأمر عمر إلى عين الوردة، ففتحها عُنْوَة، فلم يبق في الجزيرة موضع قدم إلاّ فُتِح على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه على يدي عِيَاض[5].

قال عِيَاض في فتح الجزيرة:

مَـنْ مُـبْـلِـغُ الأقـوام أنّ جـمـوعَـنـا	حَـوَتِ الـجـزيـرةَ يـوم ذات زِحـام[6]
جَمعوا الـجزيـرة والـغِياثَ فَنَفَّسُوا	عَـمَّـنْ بِـحِـمْـصَ غَـيَـابَـةَ الـقُـدَّامِ
إنّ الأَعِــزَّةَ والأكـــارِمَ مَــعْــشَـــرٌ	فَضُّوا الـجزيرةَ عن فِراخ[7] الـهـامِ

---

(١) طور عبدين: بليدة من أعمال نصيبين في بطن الجبل المشرف عليها المتصل بجبل الجودي، انظر معجم البلدان (٦/ ٦٩).

(٢) الزوزان: ناحية واسعة شرقي دجلة من جزيرة ابن عمر، انظر معجم البلدان (٤/ ٤١٥).

(٣) أرزن: مدينة مشهورة قرب خلاط، انظر معجم البلدان (١/ ١٩٠).

(٤) الدّرب: الطريق الذي يسلك ما بين طرسوس وبلاد الروم، انظر معجم البلدان (٤/ ٤٨).

(٥) انظر التفاصيل في فتوح البلدان (٢٤٠ ـ ٢٤٣)، وقد فتح نصيبين أولاً عبد الله بن عتبان، ويبدو أنها انتقضت.

(٦) في معجم البلدان: رجام، انظر معجم البلدان (٣/ ٩٨).

(٧) في معجم البلدان: فراج، انظر معجم البلدان (٣/ ٩٨).

غَلبوا الملوكَ على الجزيرةِ فانْتَهَوا عن غزوِ مَنْ يأوي بلادَ الشّامِ[1]

وقد صدق عِيَاض: إذ حالَ فتحُ الجزيرة دون غزو بلاد الشَّام، وحمى المسلمين الفاتحين في بلاد الشَّام من غائلة الغزو الروميّ.

وكان فتح عِيَاض، فتحاً سريعاً سهلاً، قليل التكاليف الماديَّة والمعنويّة.

ولا نعلم بالضبط تعداد المسلمين الفاتحين الذين كانوا بإمرة عِيَاض وإمرة قادته المرؤوسين الذين عملوا بقيادته في فتح الجزيرة، وما ورد أنّ تعدادهم كان خمسة آلاف[2]، غير منطقيٍّ، لأنّه قليل جداً.

٣ ـ فتح سُهَيْل:

خرج عِيَاض بن غَنْم ومَن معه من القادة، فأرسل سُهَيْلاً إلى الرَّقَّة، فسلك طريق الفِراض[3] حتى انتهى إلى الرَّقَّة. فحاصرها حتى صالحه أهلها، وبعثوا بذلك إلى عِيَاض، فقبل وصالحهم وصاروا ذمّة.

ولما فتح المسلمون الرَّقَّة ونصيبين، ضمّ عِيَاض إليه سُهيلاً وعبد اللَّه بن عِتْبَان وسار بالناس إلى حَرّان، فلمّا انتهى إليها اتّقاه أهلها بالإجابة إلى الجزية فقبل منهم، وأجرى مَنْ أجاب بعد غَلْبِه مُجرى أهل الذمّة.

ثم إنّ عِيَاضاً سرّح سهيلاً وعبد اللَّه إلى الرُّهاء، فاتقوهما بالإجابة إلى الجزية أيضاً[4].

وهكذا كان سُهيْل الساعد الأيمن لعِيَاض في فتح الجزيرة بسرعة ويُسْر وسهولة.

---

(١) الطبري (٤/ ٥٤ ـ ٥٥) ومعجم البلدان (٣/ ٩٨).

(٢) فتوح البلدان (٢٣٧).

(٣) الفراض؛ موضع عى تخوم الشام والعراق والجزيرة، في شرقي الفرات، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣٥٠).

(٤) الطبري (٤/ ٥٤) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢).

٤ ـ فتح عبد اللَّه بن عِتْبَان:

كان مجمل خطّة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، التي أصدرها لسعد بن أبي وقّاص، أن يسرِّح سُهيل بن عَدِيّ إلى الرَّقة، وأن يسرِّح عبد اللَّه بن عِتْبَان إلى نصيبين، فسلك عبد اللَّه الطريق المحاذية إلى مدينة الموصل، وعبر من هناك حتى وصل إلى نصيبين، فصالحه أهلها، وعقد لهم عبد اللَّه[1]. ولما أعطى أهل الرَّقَّة الصلح لسُهيل بن عديّ وأهل نصيبين الصلح لعبد اللَّه، ضمّ عِيَاض بن غَنْم إليه سُهيلاً وعبد اللَّه وسار بالناس إلى حَرَان وأخذ ما دونها، وعندما انتهى إليها أجابه أهلها إلى الجزية، فسرّح سُهيلاً وعبد اللَّه إلى الرُّهاء فأجابهما أهلها إلى الجزية أيضاً[2].

وعاد عبد اللَّه إلى الكوفة بعد انتهاء واجبه في فتح الجزيرة.

٥ ـ فتح الوليد بن عُقْبَة:

كان الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط الأمويّ في العراق حين قصد الرّوم أبا عبيدة بن الجرّاح ومَن معه من المسلمين بحِمْص، فأمر عمر بن الخطّاب سعد بن أبي وقّاص أن يسرِّح القادة الذين ذكرناهم لفتح الجزيرة ويسرِّح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتَنُوخ.

وقدم الوليد على عرب الجزيرة، فنهض معه مسلمهم وكافرهم إلاّ بني إياد بن نِزَار[3]، فإنهم ارتحلوا إلى أرض الرّوم[4].

وكتب الوليد إلى عمر بن الخطّاب بالمدينة يخبره بما صنعوا، وأقام ينتظر جوابه في أمرهم.

---

(١) الطبري (٤/ ٥٤) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢).
(٢) الطبري (٤/ ٥٤) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢).
(٣) إياد بن نزار بن معدّ بن عدنان، انظر جمهرة أنساب العرب (١٠).
(٤) الطبري (٤/ ٥٤) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢).

وكتب عمر إلى هِرَقل ملك الرّوم فقال: بلغني أنّ حيّاً من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك! فواللّه لتخرجنّه إلينا أو لنخرجنّ النصارى إليك، فلم يجد هِرَقل بُدّاً من النزول على ما أراد عمر، فأخرج إياداً من بلاده، فعاد أربعة آلاف منهم إلى منازلهم التي فتحها المسلمون وتفرّق بقيّتهم فيما يلي الشّام والجزيرة من بلاد الرّوم، فكلّ أياديّ في أرض العرب من أولئك الأربعة آلاف[1]. وإنما كتب عمر إلى هِرَقل هذا الكتاب، حتى لا يتّخذ المنهزمون أمام المسلمين أرض عدوِّهم ملجأً يتحصنون به ليوم ثأر، وحتى يجمع العرب كلهم في صعيد واحد تحت سلطان واحد[2].

وأبى الوليد أن يقبل من تَغْلِب إلاّ الإسلام، وكتب بذلك إلى عمر بن الخطّاب، فكتب إليه عمر: إنما ذلك لجزيرة العرب، لاَ يُقْبَل منهم إلاّ الإسلام، فدعهم على ألاّ يُنصِّروا وليداً ولا يمنعوا أحداً منهم من الإسلام، فلمّا بلغهم حكم عمر فيهم رضي بعضهم أن يدخل في دين اللّه، وأصرّ بعضهم على نصرانيته، ثم لم يقبل هؤلاء أن يكونوا أهل ذمّة يؤدون الجزية[3].

وقصد وفد من تغلب المدينة المنوَّرة، وكان بينهم قسم ممن أسلم منهم، فقال مسلموهم لعمر: لا تنفِّروهم بالخراج فيذهبوا، ولكن ضعِّفوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم، فيكون جزاء، فإنهم يغضبون من ذكر الجزية، على ألاّ يُنَصِّروا مولوداً إذا أسلم آباؤهم. وأصرّ عمر على أن يؤدّوا الجزاء، فقالوا: واللّه لئن وضعت علينا الجزاء، لندخلنّ أرض الروم! واللّه لتفضحنا من بين العرب، فقال لهم: أنتم فضحتم أنفسكم وخالفتم أمتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية، وتاللّه

(١) الطبري (٤/ ٥٤) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢).
(٢) الفاروق عمر للدكتور هيكل (١/ ٢٦٩).
(٣) الطبري (٤/ ٥٥) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢).

لتؤدنّه وأنتم صغرة قُماة، ولئن هربتم إلى الرّوم لأكتبنَّ فيكم ولأسبينّكم، فقالوا: فخذ منّا شيئاً ولا تسمِّه جزاء!!، فقال: أما نحن فنسمّيه جزاء، وسمّوه أنتم ما شئتم، فقال علي بن أبي طالب لعمر رضي الله عنهما: يا أمير المؤمنين! ألم يضعف عليهم سعد بن مالك[1] الصدقة؟، فقال عمر: بلى!، فرضي عمر منهم الصدقة بدل الجزاء، فرجعوا على ذلك. وكان في بني تغلب عزّ وامتناع، ولا يزالون ينازعون الوليد، فهمّ بهم، فخاف عمر أن يُحرجوه فيضعف صبره فيسطو عليهم، فعزله عن الجزيرة[2]، كيما يطمئن إلى توطيد العلاقة الحسنة بين الحاكم والمحكوم ويضمن أمن واستقرار الجزيرة، ويجنّبها القلاقل والفتن دون مسوِّغ، لذلك عزله عمر وولّى مَنْ يُحقِّق له هذه السياسة الحصيفة.

٦ ـ فتح عُمَيْر بن سعد:

كتب عمر بن الخطّاب رضي الله عنه إلى عِيَاض بن غَنْم يأمره أن يوجِّه عُمَيْر بن سعد إلى (عين الوردة)، فوجّهه عِيَاض إليها وقدّم الطلائع أمامه، فأصابوا قوماً من الفلاحين وغنموا مواشي من مواشي العدو، ولكن أهل المدينة أغلقوا أبوابها ونصبوا المنجنيقات، فقُتل من المسلمين بالحجارة والسِّهام كثيرون.

وكانت مدينة عين الوردة (رأس عين) قد امتنعت على عِيَاض بن غَنْم من قبل، ففتحها عُمَيْر بن سعد والي عمر بن الخطّاب على الجزيرة بعد أن قاتل أهل هذه المدينة المسلمين قتالاً شديداً، ولكنّ المسلمين فتحوها عَنْوَة، ثمّ صالحوا أهلها بعد ذلك، فدُفعت الأرض إلى أهلها الأصليين، ووضعت الجزية على كلّ فرد من أفراد المدينة أربعة دنانير، ولم تُسْب نساؤهم ولا أولادهم[3].

---

(١) هو سعد بن أبي وقاص فاتح العراق.
(٢) الطبري (٤/٥٦) وانظر فتوح البلدان (٢٤٩ ـ ٢٥٢).
(٣) فتوح البلدان (٢٤٢ ـ ٢٤٣) وانظر ابن الأثير (٢/٥٣٥).

ولما فتح عمير مدينة رأس عين، سلك الخابور وما يليه حتى أتى قَرْقِيسيَاء وقد نقض أهلها، فصالحهم على مثل صلحهم الأول. ثمّ أتى حصون الفرات حصناً حصناً، ففتحها على ما فُتحت عليه قرقيسياء، ففتح ثانية عانات والنّاووسة وآلوْسة. وفي مدينة هِيْت وجد عَمّار بن ياسر[1] وهو عامل عمر بن الخطّاب على الكوفة، وقد بعث جيشاً يستغزي المنطقة الكائنة شماليّ مدينة الأنبار وعليه سعد بن عمرو بن حرام الأنصاري[2]، فانصرف عُمَيْر إلى الرّقّة[3].

وكتب عُمَيْر إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، يعلمه أنّه أتى شِقّ الفرات الشّامي، ففتح عانات وسائر حصون الفرات، وأنّه أراد مَنْ هناك من بني تغلب على الإسلام، فأبوه وهمّوا باللّحاق بأرض الرّوم، وسألوه أن يأذن لهم في الجلاء، واستطلع رأي عمر فيهم، فكتب إليه عمر يأمره أن يُضعف عليهم الصدقة التي تؤخذ من المسلمين في كل سائمة وأرض، فقبلوا أن يؤخذ منهم ضعف الصدقة، فقالوا: أما إذا لم تكن جزية، فإنّا نرضى ونحفظ ديننا[4].

٧ ـ مجمل الفتح:

لم يبق بالجزيرة موضع قدم إلاّ فُتح على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه على يدي عِيَاض بن غَنْم[5]، كما ذكرنا ذلك في قصة فتح هذا الإقليم، وبمعاونة قادته المرؤوسين تحقّق هذا الفتح.

---

(١) عمار بن ياسر: انظر سيرته في: الإستيعاب (٣/ ١١٣٥) وأسد الغابة (٤/ ٣) الإصابة (٤/ ٢٧٣).

(٢) سعد بن عمرو بن حرام الأنصاري: انظر سيرته في: أسد الغابة (٢/ ٢٨٨).

(٣) فتوح البلدان (٢٤٦).

(٤) فتوح البلدان (٢٥٠)، ونص عبارتهم: (أما إذا لم تكن جزية كجزية الأعلاج، فإنّا نرضى ونحفظ ديننا).

(٥) فتوح البلدان (٢٤٠).

وقد جرى مجمل الفتح أو الفتح الأول لهذا الإقليم سنة سبع عشرة الهجريَّة[1] (٦٣٨ م)، وقد ذكر قسم من المؤرخين أنّ فتحها كان سنة ثماني عشرة الهجريَّة[2] (٦٣٩ م)، وذكر قسم منهم أنّ فتحها كان سنة تسع عشرة الهجريَّة[3] (٦٤٠ م)، وأيام من المحرّم سنة عشرين الهجريَّة[4].

إنّ الفتح الأول وهو الفتح الرئيس للجزيرة جرى سنة سبع عشرة الهجريَّة، وجرت بعض معارك استثمار الكنوز، وهي معارك تعبوية لتطمير جيوب المقاومة الجزريّة سنة ثماني عشرة الهجريَّة، أما سنة تسع عشرة الهجريَّة وسنة عشرين الهجريَّة فجرت معارك استعادة فتح البلاد الجزرية المنتفضة وفتح بعض المواقع الثانوية في الجزيرة، واستمرّت هذه المعارك إلى أوائل سنة عشرين الهجريَّة[5]، فلا تناقض بين المؤرخين في النصّ على سنة الفتح، لأنّ عمليَّات الفتح الأول كانت سنة سبع عشرة، وعمليَّات التطهير ومقاتلة المنتفضين جرت سنتي ثماني عشرة الهجريَّة وتسعة عشرة الهجريَّة وأوائل سنة عشرين الهجريَّة.

ولم يبق الرّوم مكتوفي الأيدي بعد خسارتهم الجزيرة، فكانوا يهاجمون مدنها بين حين وآخر، حين يجدون القوّة فيهم والضعف في المسلمين لتفرقهم، فإذا عادت الوحدة للمسلمين، استعادوا فتح المناطق التي خسروها، وتعرّضوا ببلاد الرّوم الأصلية وضمّوا أجزاء منها بين حين وآخر إلى الدَّولة الإسلاميَّة.

وقد كان للصّوائف نشاط ملحوظ في عهد بني أميّة خاصة، حيث

---

(١) الطبري (٤/ ٥٤) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢).
(٢) فتوح البلدان (٢٣٧).
(٣) الطبري (٤/ ٥٣) وابن الأثير (٢/ ٥٣٣).
(٤) فتوح البلدان (٢٤٢).
(٥) فتوح البلدان (٢٤١ ـ ٢٤٢).

كان لها نشاط كبير في الجزيرة وبلاد الرّوم أيضاً، ممّا سنذكره مفصلاً في كتاب: قادة فتح بلاد الرّوم.

ولم يكن نشاط تلك الصّوائف فتحاً بالمعنى الصحيح، بل كان استعادةً للفتح، أو للدفاع عن الجزيرة تجاه الرّوم، وذلك بالتعرّض ببلاد الرّوم والاستيلاء على جزء منها، وإشغال جيش الرّوم بالدِّفاع عن بلاد الرّوم الأصلية عن الطموح في استعادة الجزيرة أو جزء منها، لهذا آثرت ألاّ أتطرّق إلى تفاصيل تلك المعارك، لأنها لا تضيف فتحاً جديداً في الجزيرة، كما خشيت التّطويل والتكرار دون مسوِّغ.

أمّا فتح تَكْرِيت فقد كان على يدي عبد اللَّه بن المُعْتم العَبْسيّ[1]، وكان فتح الموصل على يدي رِبْعِي بن الأفكَل العَنْزي[2]، وتفاصيل الفتح في كتاب: قادة فتح العراق والجزيرة، وجرى الفتح سنة ستة عشرة الهجريَّة[3] (٦٣٧ م)، وقد كان فتح تَكْرِيت والموصل من فتوح أهل العراق دون منازع.

أما سائر الجزيرة، فمن فتوح أهل العراق في رواية، ومن فتوح أهل الشّام في رواية ثانية[4]، والذي يبدو أنّ سعد بن أبي وقّاص هو الذي جيَّش الجيوش وبعث القادة لفتح الجزيرة كما ذكرنا، فذهب أهل العراق بفخر فتح الجزيرة الأول سنة سبع عشرة الهجريَّة، فكتب أبو عبيدة بن الجرّاح الذي كان على بلاد الشّام إلى عمر بن الخطّاب يسأله أن يضمّ إليه عِيَاض بن غَنْم، فصرفه إليه[5]. ومعنى ذلك أنّه كان قبل هذا بإمرة سعد بن أبي وقّاص في أهل العراق، فصرفه عمر إلى أبي عبيدة حسب طلبه بعد فتح الجزيرة الأول.

---

(١) انظر سيرته المفصلة في قادة فتح العراق والجزيرة (٣٧٥ ـ ٣٨١).
(٢) انظر سيرته المفصلة في قادة فتح العراق والجزيرة (٣٨٣ ـ ٣٨٦).
(٣) الطبري (٤/ ٣٥) وابن الأثير (٢/ ٥٢٣).
(٤) ابن الأثير (٢/ ٥٣٣ و٥٣٤).
(٥) الطبري (٤/ ٥٥).

وصرف عمر بن الخطَّاب بعد استكمال فتح الجزيرة سُهَيْل بن عَدِيّ وعبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عِتْبَان إلى الكوفة ليصرفها سعد بن أبي وقَّاص على المشرق[١]، وهذا دليل على أنهما جاءا من العراق وعادا إليه بعد إنجاز واجبهما في الفتح.

وقد أمدّ عمر بن الخطَّاب عِيَاض بن غَنْم بحبيب بن مَسْلَمَة، فقدم على عِيَاض مدداً[٢]، وكان رجاله من أهل الشّام، فوجّهه عِيَاض إلى قَرْقِيسِيَاء ففتحها صلحاً على مثل صلح الرَّقَّة، وهذا يدلّ على أنّ أهل الشَّام شاركوا قليلاً بفتح الجزيرة الأول.

أما استعادة الفتح في ميدان الجزيرة، وبخاصة في عهد بني أميّة، فقد كان من حظّ أهل الشّام، كما كان استعادة الفتح في هذا الميدان على عهد بني العبّاس حتى خلافة المعتصم من حظّ أهل العراق.

لقد كان فتح الجزيرة الأول عراقياً كلّه إلاّ قليلاً، وكان استعادة فتحها عراقياً شامياً، فهو جهاد مشترك، لتحقيق هدف مشترك.

وأكبر الظن أنّ المسلمين الفاتحين لم يكن لهم أيّ نشاط في اقتناص مفاخرة الفتوح، فقد شُغلوا بالفتح وأعبائه، فلم يبق لهم وقت للمِراء، لأنّ أعمالهم كانت تغني عن الأقوال. ومضى عصر الفتح واستعادة الفتح، ومضى الفاتحون إلى جوار ربِّهم غير ملومين، وجاء من بعدهم أعقابهم فورثوا الفتح ومفاخره دون جهد، فكان المراء بينهم في نسبة مفاخرة الفتح إلى أقطارهم أو إلى بلدانهم أو إلى قبائلهم، إذ لم يترك لهم الفاتحون ما يفعلون، فلا بدّ لهم من ترديد ما يقولون، وهكذا اختلفوا في نسبة الفتح إلى أجدادهم، ولكنّ التاريخ خير مَنْ يفصل بالحق في مثل هذا الاختلاف.

---

(١) الطبري (٤/ ٥٥).

(٢) الطبري (٤/ ٥٥).

أما ما يبدو من تناقض وقع فيه المؤرخون القَدامى في توقيت الفتوح وفي أسماء القادة الفاتحين، فسبب التناقض في التوقيت هو أنّ قسماً منهم يذكرون سنة الفتح الأول، وقسماً منهم يذكرون سنة عمليَّات استثمار الفوز وهي عمليَّات تطهير جيوب المقاومة، وقسماً منهم يذكرون سنة أو سِنِيّ استعادة الفتح بعد انتقاض المنطقة المفتوحة أو استردادها من العدو، ونتيجة لذلك يتناقضون في أسماء القادة الفاتحين، لأنّ الفاتح الأوَّل قد لا يقوم بعمليَّات استثمار الفوز، وقد يكون الذي يستعيد الفتح قائداً ثالثاً، والمهم بالنسبة للمؤرخين المحدثين هو تتبّع مجرى الحوادث وسير العمليَّات العسكريَّة في المصادر العربيَّة الإسلاميَّة المعتمدة، والحذر من المراجع غير المعتمدة وبخاصة الأجنبيَّة منها، فليس سرّاً أنّ بعضها لا يخلو من دسّ مريب وتشكيك متعمّد، والمفروض أن يصحِّح المؤرّخون العرب والمسلمون ذلك الدّس والتشكيك، الذي قد يكون عن جهل أو سوء فهم أو مقصد مشبوه، لا أن ينقلوه نقلاً، ليُسمِّموا به عقول التلاميذ والطلاَّب والدَّارسين والقرّاء.

عبرة الفتح

كان الخليفة الثَّاني من الخلفاء الراشدين عمر بن الخطَّاب يتميّز بعقليَّة سَوْقِيَّة فَذّة، كما أثبت ذلك في خططه السّوقية التي وضعها في فتوح العراق والشّام والجزيرة ومصر وشمالي إفريقيّة وفارس، فكان عهد عمر عهداً ذهبياً للفتح الإسلامي العظيم.

وبصفته القائد الأعلى لجيوش المسلمين، فإنّه كان يضع القواعد العامَّة للحملة كلّها منذ بدايتها، ويعهد بتنفيذها إلى قائد ذي خبرة وأمانة وكفاية، ولا يتخلّى عن تبعته العظمى في مصائر الحرب كلّ التخلّي اعتماداً على القائد وحده، إذ ليس القائد مسؤولاً وحده عن مصير القوّات المقاتلة التي بقيادته.

فإذا رأى القائد العام رأياً وخالفه هو في رأيه، أعانه بالمدد والمشورة على الأخذ بالرأي الذي دعاه إليه، وأبطل معاذيره بتوضيح الأمر وإعانته عليه.

إنه يضع لقادته الخطط السَّوقيّة، ويترك لقادته أمر وضع الخطط التعبوية، فكان قائداً سَوقياً، يُعِدّ الخطط السّوقيّة، ويُصَدِّرُ أوامره ووصاياه إلى قادته العامّين وقادته المرؤوسين، مبيِّناً لهم السياسة العامَّة للحرب، ثم يترك لهؤلاء القادة تحمّل أعباء كلّ التفاصيل التنفيذيّة.

في سنة سبع عشرة الهجريَّة، قصد الرّوم أبا عبيدة بن الجرَّاح ومَن معه من المسلمين بمدينة حِمْص، فقد أرسل أهل الجزيرة إلى ملك الرّوم هِرَقل يحثّونه على إرسال الجنود إلى الشّام، ويذكرون له أنهم سيعاونونه. وحين علم المسلمون باجتماع الرّوم وأهل الجزيرة على حربهم، سحب أبو عبيدة مسالحه المتقدِّمة من مواضعها وعسكر بفناء مدينة حِمْص. وأقبل خالد بن الوليد من قِنَّسْرِين[1] إليهم، فاستشار أبو عبيدة خالداً وغيره من المسلمين في المناجزة أو التّحصين إلى مجيء الغِياث، فأشار خالد بالمناجزة، وأشار غيره بالتّحصين ومُكَاتبة عمر، فأطاع أبو عبيدة الذين رأوا التّحصين، وكتب إلى عمر بذلك.

وكان بالكوفة ـ كما ذكرنا ـ أربعة آلاف فرس، وكان في كلّ مصر من أمصار المسلمين الثمانية في حينه أفراس على قدره، فإن تأتِها آتية ركبها الناس وساروا إلى أن يتجهّز الناس الآخرون، فهي الاحتياط العام السيّار لجيوش المسلمين المحاربة في الخطوط الأماميَّة[2].

---

(١) قنّسرين: مدينة تقع في ديار ربيعة، منها إلى حلب مرحلة صغيرة، ومنها إلى معرّة النعمان مرحلة كبيرة، انظر تقويم البلدان (٢٦٦ ـ ٢٦٧) ومعجم البلدان (١٦٨/٧) والمسالك والممالك لابن خرداذَبة (٧٥) وأحسن التقاسيم (١٥٤) ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه (١١١).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٤/ ٥٠ ـ ٥١) وابن الأثير (٢/ ٥٣٠ ـ ٥٣١).

وكان مجمل خطّة عمر السَّوْقيَة هي: تحريك الاحتياطي العام السيّار من الكوفة بقيادة القعقاع بن عمرو التميميّ (فوراً) إلى حِمْص لاستنقاذ أبي عبيدة ومن معه من المسلمين المحاصرين فيها من الرّوم وأهل الجزيرة، وحماية حِمْص من القوّات المعادية بخاصة وبلاد الشّام بعامّة. ثم تحريك قوّات من المسلمين بقيادة عِياض بن غَنْم لفتح الجزيرة، لغرض إجبار أهل الجزيرة على الانسحاب من مواضعهم التي تحاصر حِمْص إلى بلادهم الجزيرة للدفاع عنهم، وبذلك يخفِّف الضغط عن المسلمين المحاصرين في حِمْص. فيصبح أمر الرّوم المحاصِرين لحِمْص وحدهم على المسلمين هيِّناً.

ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الرّوم على حصار حِمْص خبر الجنود الإسلاميَّة، تفرّقوا إلى بلادهم وفارقوا الرّوم. عند ذاك استشار أبو عبيدة خالداً في الخروج إلى الرّوم، فخرج إليهم وقاتلهم وانتصر عليهم. وقدم القعقاع بن عمرو بعد الوقعة بثلاثة أيام، فكتب أبو عبيدة إلى عمر بالفتح وبقدوم المَدَد عليهم والحُكم في ذلك، فكتب إليه: أشركوهم، فإنهم نفروا إليكم وانفرق لهم عدوّكم، وقال: جزى اللّه أهل الكوفة خيراً، يكفون حوزتهم، ويُمِدّون أهل الأمصار[١].

وأوّل ما نلاحظهُ في خطّة عمر السّوقيّة هذه، أنّه كان أعدّ في مختلف الأمصار خيولاً للطوارىء، تتحرّك بإنذار قصير إلى الأماكن المهدّدة بالخطر من دار الإسلام. وقد حمى عمر بعض المراعي لتلك الخيول، فحمى (الرَّبَذَة)[٢] ـ مثلاً ـ لخيول المسلمين[٣]، وكان عنده خيل موسومة على أفخاذها: حبيس في سبيل اللّه (١٦٨)، يحمل عليها

---

(١) الطبري (٤/٥١ ـ ٥٢) وابن الأثير (٢/٥٣١).
(٢) الرَّبذة: من قرة المدينة على ثلاثة أميال منها على طريق ذات عرق، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٢١).
(٣) ابن الأثير (٢/٥٣٠).

المجاهدين، وتتحرّك إلى أهدافها المرسومة، إذ تحرّك القعقاع من يومه باتجاه حِمْص[1].

ونلاحظ ثانياً أنّ عمر أمر بمشاغلة قوّات الرّوم بحِمْص بعد أن حرم الرّوم من معاونة أهل الجزيرة الأقوياء الأشدّاء لهم، وذلك بمهاجمة أهل الجزيرة في عقر دارهم.

ونلاحظ ثالثاً أنّ الإمدادات تحرّكت بسرعة خاطفة من العراق والشَّام والحجاز إلى حِمْص لضرب الرّوم وحلفائهم في حِمْص، ممَّا جعل التفوّق بالعدد إلى جانب المسلمين.

ونلاحظ رابعاً أنّ هذه الإجراءات السريعة الحاسمة، أمّنت عنصر المباغتة، فباغت المسلمين الرّوم وحلفاءهم، فانتقلت المبادرة من الرّوم إلى المسلمين وتحطيم معنويات أعدائهم، ممَّا أدّى إلى انتصار المسلمين وهزيمة الرّوم.

إنّ حركة أربعة آلاف فارس في يوم واحد إلى هدف بعيد ليس سهلاً... إنّه يكاد يكون مستحيلاً حتى في هذه الأيام، وهذا ما يدعو إلى الإعجاب بهذا الإنجاز العسكريّ الإسلاميّ قبل أربعة عشر قرناً خلت من عمر الزمن، وهو عمر جدّ طويل، وهو يدلّنا على ما بلغته العسكريَّة العربيَّة الإسلاميَّة حين ذاك من دقّة في التنظيم ومتانة في الضّبط، وهذا هو بعض الجواب على تساؤل المؤرّخين قديماً وحديثاً: كيف تمّ الفتح الإسلامي بالسرعة الخارقة التي تمّ بها؟!

والعبرة هنا في سرعة العمل، وتوخّي مبدأ المباغتة، ورفع المعْنَوِيَّات، والاحتفاظ بالمبادأة، كل ذلك بموجب خطّة سوقيّة تقلب الهزيمة إلى نصر، وتغيّر الموقف العسكري إلى أحسن حال.

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٠٦).

وما كان لمثل هذه الخطّة السوقيّة العمريّة أن يُكتب لها النجاح لو لم يكن عمر قد أعدّ الاحتياط العام السيّار في الأمصار الإسلاميَّة على امتداد دار الإسلام، وأعدّ لها القادة المناسبين للواجبات المناسبة.

العبرة هنا في أهمية وجود الاحتياط العام السيّار القادر، بقيادة قادرة متميِّزة، لمعالجة الأمور الطارئة التي ليست في الحسبان.

والقائد الذي ليست لديه قوات احتياطية، يجازف بمستقبله قائداً، وبمصير جيشه وأمته، ويقود رجاله إلى الهزيمة.

والعبرة التالية هي حرص عمر بن الخطَّاب على بقاء العرب في مواطنهم وتحاشي الهجرة منها إلى الرّوم، لأنّ العرب مادَّة الإسلام، والمحافظة عليهم وحشدهم في بلادهم قوّة للإسلام والمسلمين.

وحتى في حالة اختلاف عرب الجزيرة عن العرب الفاتحين في العقيدة، فقد كانوا أقرب إلى العرب المسلمين القادمين من صحراء جزيرة العرب وحواضرها من الرّوم.

وكمثال على ذلك في فتح مدينة تكْرِيت، فقد حصر عبد اللَّه بن المُعْتم الرّوم وحلفاءهم أربعين يوماً، وتزاحفوا أربعة وعشرين زحفاً. وأرسل عبد اللَّه بن المعتم إلى العرب الذين كانوا مع الرّوم يدعوهم إلى نصرته، وكانوا لا يخفون عليه شيئاً. ولما رأت الرّوم المسلمين ظاهرين عليهم، تركوا أمراءهم ونقلوا متاعهم إلى السُفن. فأرسلت تغلب وإياد والنّمر إلى عبد اللَّه بالخبر، وسألوه الأمان، وأعلموه أنّهم معه، فأرسل إليهم: إن كنتم صادقين فأسلموا، فأجابوه وأسلموا، فأرسل إليهم عبد اللَّه: إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنّا أخذنا أبواب الخندق، فخذوا الأبواب التي تلي دجلة واقتلوا مَنْ قدرتم عليه.

ونَهَدَ عبد اللَّه والمسلمون وكبّروا، وكبّرت تغلب والنّمر وإياد وأخذوا الأبواب، فظن الرّوم أنّ المسلمين قد أتوهم من خلفهم ممَّا يلي

دجلة، فقصدوا الأبواب التي عليها المسلمون، فأخذتهم سيوف المسلمين وسيوف العرب الذين أسلموا تلك اللّيلة، فلم يفلت من الخندق إلاّ مَنْ أسلم من تغلب وإياد والنّمر(١).

وقد ضعّف الصّدقة على عرب الجزيرة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، ورضي منهم الصدقة بدل الجزاء استرضاء للعرب واستمالة للنازحين منهم إلى بلاد الرّوم للعودة إلى ديارهم في الجزيرة، ولم يتساهل عمر مثل هذا التساهل مع غير عرب الجزيرة.

وهذا ما يدلّ على حرص عمر بن الخطّاب على العنصر العربيّ، وبذله ما استطاع لإبقائهم في وطنهم، فصالحهم المسلمون، ودُفعت الأرض إليهم، ولم تُسْب نساؤهم ولا أولادهم(٢).

ومن دراسة سير عمليّات فتح الجزيرة ابتداءً من السبب المباشر لفتحها وهو حصار حِمْص من الرّوم ومن حلفائهم أهل الجزيرة، وانتهاء بالسبب غير المباشر لفتحها، نجد أنّ أهل الجزيرة لم يقاتلوا كما ينبغي: في الثبات مع الرّوم في حصار حِمْص، وفي الدّفاع عن الجزيرة دفاعاً مشرّفاً، إذ انسحبوا من حصار حِمْص بسرعة إلى بلادهم، وخلّفوا الرّوم وحدهم في حصار حِمْص، كما لم يقاتلوا بضراوة دفاعاً عن بلادهم، فكانت الجزيرة أسهل البلدان أمراً، وأيسره فتحاً، فكانت تلك السّهولة مهجنة عليهم(٣).

فما هو تعليل هذا التهاون في الثبات وفي الدِّفاع؟!

لقد كان أهل الجزيرة ـ وأكثرهم من العرب ـ أشدّاء أقوياء، وكان بمقدورهم الثبات بشكل أفضل ممّا فعلوا والدِّفاع أحسن ممّا قاتلوا،

---

(١) الطبري (٤/ ٣٥ ـ ٣٦) وابن الأثير (٥٢٣ ـ ٥٢٤).

(٢) فتوح البلدان (٢٤٣).

(٣) الطبري (٤/ ٥٤).

وبخاصة وأنّ أكثر مناطق الجزيرة صالحة للدفاع المديد الموفّق، ويبدو أنّ تعليل تهاونهم في الثبات مع الرّوم في حصار حِمْص وفي الدِّفاع عن بلادهم هو أنّ الجزيرة كانت تحكم حكم الرّوم ولم يكونوا مستقلين، والمستعبد لا يقاتل كما يقاتل المستقل، لأنّ الأول يقاتل لمصلحة مستعبده، والثَّاني يقاتل لمصلحة بلاده، وشتّان بين القتالين، كما أنّ أهل الجزيرة كانوا محكومين من الرّوم، ولن يخسروا شيئاً إذا أصبحوا محكومين من العرب المسلمين، بل إنّ العرب المسلمين أقرب إليهم من الرّوم، لأن غالبية أهل الجزيرة من العرب كما أنّ المسلمين أرحم من الرّوم وأكثر عدلاً، وقد كان معظم أهل الجزيرة من النصارى وكان الرّوم من النصارى أيضاً، ولكن المسلمين أكثر تسامحاً من نصارى الرّوم (الأرثدوكس) مع نصارى أهل الجزيرة الذين كان ثمانون بالمئة منهم من النساطرة وعشرون بالمئة منهم من اليعاقبة، وكان معظم عرب الجزيرة من النساطرة، والعداوة بن الأرثدوكس والنساطرة واليعاقبة معروفة، وكان للعداوة المذهبية أثر في اضمحلال الرّوم كما هو معروف[١]، وكان المسلمون أكثر تسامحاً مع طوائف النصارى من الدَّولة الرومانية الشرقيَّة[٢].

وبقدر شعور المسلمين الإيجابي الذي تمثّل في حرصهم الشديد على الاحتفاظ بالعنصر العربي في الجزيرة وعدم نزوح العرب من الجزيرة إلى بلاد الرّوم، فقد كان شعور عرب الجزيرة سلبيّاً تجاه المسلمين، فما قاتل عربُ الجزيرة مع المسلمين الرومَ في أيام الفتح، ولا كان لهم تأثير

---

(١) أصبح الانقسام الديني في زمن هرقل شديداً: الامبراطور ومن معه يقول بطبيعتين ومشيئتين، واليعاقبة حزب آخر، والنساطرة حزب ثالث، مع أحزاب دينية أخرى، وكان لهذه الانقسامات تأثير شديد في السياسة لاختلاط السياسة عندهم بالدين، انظر: تاريخ التمدن الإسلامي (١/ ٤٢) ـ الطبعة الأولى.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (١/ ٥٥) ـ آدم متز.

إيجابي في الفتح، وكل ادِّعاء يخالف ذلك لا سند له تاريخياً، فقد استثار أهل الجزيرة الرّوم وكانوا معهم في حصار حِمْص، وكانوا مع الرّوم في فتح تَكْرِيت والموصل وقرقيسياء ورأس عين وغيرها من المدن الجزرية، فلمّا تبين لهم أنّ الرّوم لا يستطعيون مقاومة المسلمين الفاتحين، تخلّوا عن الرّوم وانحازوا إلى الفاتحين، فكان أهل الجزيرة بعامَّة مع القويّ دائماً على الضعيف، ولم يعاون المسلمين الفاتحين غير العرب الذين أسلموا من أهل الجزيرة، وعاونهم غير العرب أيضاً من الذين أسلموا، أما الذين لم يسلموا من أهل الجزيرة، فكانت قلوبهم مع المسلمين الفاتحين وسيوفهم مع الغالب على المغلوب.

وبعد فتح الجزيرة أصبح أهل الجزيرة غير المسلمين يتمتّعون بقسط عظيم من الحريَّة والاستقلال، فكان لهم شأن آخر في الدِّفاع عن بلادهم، غير شأنهم في الدِّفاع عنها أيام الرّوم، وإلا لماذا لم يدافع أهل الجزيرة عن بلادهم قبل الفتح، ودافعوا عنها دفاع الأبطال بعد الفتح!!

والعبرة هي أن الأحرار المستقلين يدافعون عن بلادهم كما يدافع الرجال، أما العبيد المستعبدون فلا يقاتلون.

والعبرة الرئيسية والأخيرة هي أنّ فتح الجزيرة دليلٌ ماديّ قاطعٌ، على أنّ الفاتحين لم يُكرِهوا أحداً من غير المسلمين على اعتناق الإسلام، فبقي النصارى الذين حفظوا دينهم من العرب وغير العرب على دينهم، يمارسون طقوسهم الدِّينية علناً بحريّة كاملة، ولا يزال أحفادهم منذ كان الفتح حتى اليوم على دينهم الذي ارتضوه لأنفسهم، يعيشون جنباً إلى جنب مع المسلمين في المدن والقرى والأرياف الجزرية، في حماية الإسلام والمسلمين مع كنائسهم وأديرتهم، لا يمسّهم مسلم حق بسوء ما داموا يحفظون عهودهم ومواثيقهم التي عقدوها وأبرموها مع المسلمين الفاتحين.

والادّعاء بأنّ الإسلام انتشر بالسّيف ادّعاء متهافت، زوّره الذين في

قلوبهم مرض من الحاقدين على العرب المسلمين، وردّده الأعداء والجاهلون بتعاليم الإسلام السّمحة وبالتاريخ الإسلامي العريق.

وإذا كان الإسلام قد انتشر بالسّيف، فكيف بقي غير المسلمين في قرى الجزيرة ومدنها وأريافها على دينهم بعد الفتح وحتى اليوم؟! ألم يكن بإمكان الفاتحين أن يحملوا غير المسلمين من أهل الجزيرة على الإسلام؟ أكان باستطاعة أهل الجزيرة بعد الفتح البقاء على نصرانيتهم لو أنّ المسلمين أرادوهم على الإسلام؟! ولماذا بقي قسم من أهل الجزيرة على دينهم الأول وأسلم قسم منهم مع مَن أسلم إذا لم يكن الخيار بيد أهل الجزيرة وهم أحرار في اختيار العقيدة التي يعتنقون؟!

ولا يحتاج الإدعاء بأن الإسلام انتشر بالسّيف إلى نقضه، لأنّ (الواقع) يدحضه، وبقاء النصارى وحتى يهود من أهل الجزيرة وبلاد الشّام ومصر وبلاد الرّوم على دينهم بعد الفتح الإسلامي وحتى اليوم، خير دليل على تهافت هذا الادّعاء.

ولكن لا بأس من ذكر تعاليم الإسلام في الذميين والقتال بإيجاز شديد، لأنّ الحق أبلج، والباطل زاهق، ولا بقاء لباطل يدحضه الواقع الملموس وحقائق التاريخ والفقه الإسلامي العظيم.

إنّ الذمّة في اللغة: الأمان والعهد، وأهل الذمّة هم المعاهدون من النصارى ويهود وغيرهم ممن يقيم في دار الإسلام[١]. وقد جاء في الحديث الشريف... ويسعى بذمّتهم أدناهم....، وفسّر الفقهاء (ذمّتهم) بمعنى الأمان[٢]، ويؤيد ذلك ما قالوه في تفسير عقد الذمّة بأنّه إقرار بعض الكفّار على كفرهم بشرط بذل الجزية والتزام أحكام الملّة[٣]. وعلى ذلك

---

(١) القاموس المحيط (٤/ ١١٥) وشرح السير الكبير (١/ ١٦٨)، فالمراد بالذمّة العهد مؤقتاً كان أو مؤبداً.

(٢) كشاف القناع (١/ ٧٠٤).

(٣) كشاف القناع (١/ ٧٠٤) وكشف المحذرات (٢٥٦).

يمكن القول بأنّ عقد الذمّة عقد يصير بمقتضاه غير المسلمين في ذمّة المسلمين، أي في عهدهم وأمانهم على وجه التأبيد، وله الإقامة في ديار الإسلام على وجه الدوام[1].

وقد شرع عقد الذمّة بعد فتح مكّة، ويؤيد هذا أنّ آية الجزية المتضمنة عقد الذمّة وهي قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾[2].

وهذه الآية الكريمة نزلت في السنة التاسعة الهجريّة، أي بعد فتح مكّة[3].

أما حكمة مشروعية عقد الذمّة، فهي أن يترك المقاتل غير المسلم القتال، مع احتمال دخوله في الإسلام على طريق مخالطته للمسلمين وإطلاعه على شرائع الإسلام، وليس المقصود من عقد الذّمة الحصول على المال[4].

وعقد الذمّة عقد لازم في حق المسلمين، فلا يملكون نقضه ما لم يظهر من الذميّ ما يقتضي نقضه. وأما في حق الذميّ فهو عقد غير لازم، إذ يحتمل النقض من جهته[5].

---

(١) أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام (٢٢).
(٢) الآية الكريمة في سورة التوبة (٩، ٢٩)، انظر تفسير هذه الآية الكريمة في الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٩ ـ ٣٠).
وتفسير ابن كثير (٤/ ١٤٤ ـ ١٤٥) وتفسير البغوي في هامش تفسير ابن كثير (٤/ ٤٤٣ ـ ٤٤٥) والبيضاوي (٣/ ٦٥).
(٣) أحكام القرآن للجصاص (١/ ١٤٣).
(٤) المبسوط (١٠/ ٧٧) والكاساني (٧/ ١١١) ونيل الأوطار للشوكاني (٨/ ٥٨) وشرح السير الكبير (٣/ ٢٥٤): (لأنّا إنّما قبلنا منهم عقد الذمّة ليقفوا على محاسن الدين فعسى أن يؤمنوا).
(٥) أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام (٤٢).

وحقوق الذميين على المسلمين: لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، قد قال الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «إنّما قبلوا عقد الذمّة لتكون أموالهم كأموالنا، ودمائهم كدمائنا»[1]، وفي شرح السير الكبير: ولأنهم قبلوا عقد الذمّة لتكون أموالهم وحقوقهم كأموال المسلمين وحقوقهم[2]، ويعلّل بعض الفقهاء مساواة الذميّ للمسلم في بعض التكاليف المالية، بأنّ الذميّ بعقد الذمّة صار له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين[3]. ومن هذا يتّضح أن الذميين ـ كقاعدة عامَّة كالمسلمين في الحقوق والواجبات[4].

وكان من حق الذميين التمتّع بالحقوق السياسية، كتولي الوظائف العامَّة عدا الخلافة[5] أي الإمامة، والإمارة على الجهاد[6]، فمن البديهي أن يكون رئيس الدَّولة الإسلاميَّة مسلماً، وأن يكون أمير المجاهدين مسلماً، لأنّ الجهاد يلتزم به المسلم دون الذميّ، وإن كان للذميين أن يشتركوا مع المسلمين في الدِّفاع عن دار الإسلام ويلتزموا هذا الواجب[7].

وفيما عدا الوظائف القليلة التي يشترط فيمن يتولاّها أن يكون مسلماً، يجوز إشراك الذميين في تحمّل أعباء الدَّولة وإسناد الوظائف العامَّة إليهم، وقد دلَّ على هذا الكتاب العزيز والسنّة المطهّرة. ففي الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ

---

(١) الكاساني (٧/ ١١١)، وسنن الدارقطني (٢/ ٣٥٠): (مَن كانت له ذمتنا، فدمه كدمنا).
(٢) شرح السر الكبير للسرخسي (٣/ ٢٥٠).
(٣) الكاساني (٢/ ٣٧).
(٤) أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام (٧١).
(٥) إرشاد إلى قواطع أدلة في أصول الاعتقاد (٤٢٧)، ومتن المنهاج ومغني المحتاج (٤/ ١٢٩ ـ ١٣٠).
(٦) الأحكام السلطانية للماوردي (٣٣) والأحكام السلطانية لأبي يعلى (٣).
(٧) أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام (٧٨).

أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾»[1]. وقد نزلت هذه الآية فيمن كان لهم ذمّة وعهد من رسول اللّه ﷺ[2]، وهي لم تَنْهَ المسلمين عن اتخاذ بطانة منهم بصورة مطلقة، وإنّما قيّدت النّهي بالقيود الواردة فيها، أي أنّ النّهي منصبٌ على مَنْ ظهرت عداوتهم للمسلمين، فهؤلاء لا يجوز اتِّخاذهم بطانة. ومعنى هذا أنّ الذمّيين الذين لا تُعرف لهم عداوة للدولة الإسلاميَّة، يجوز للمسلمين اتخاذهم بطانة يستودعونهم الأسرار ويستعينون برأيهم في شؤون الدَّولة[3]. ومعنى هذا أيضاً جواز إسناد الوظائف العامَّة إليهم التي هي دون البطانة في المركز والأهميّة.

وفي السِّيرة النبويّة ما يؤيِّد قولنا، من ذلك بصدد غزوة بَدْر الكبرى بين المسلمين بقيادة النبيّ ﷺ وبين مشركي مكّة، فقد أسر المسلمون في هذه الغزوة سبعين أسيراً، وكان من هؤلاء مَنْ لا مال له، فجعل النبيّ فداءهم أن يعلّموا أولاد الأنصار الكتابة، بأن يعلِّم الواحد منهم عشرة من غلمان الأنصار ويُخلي سبيله[4]، فهذا الأثر يفيد أنّ النبيّ ﷺ استخدم غير المسلمين في شأن من شؤون الدَّولة الإسلاميَّة، وهو تعليم بعض المسلمين الكتابة[5]. وفي السيرة النبوية أيضاً أن النبيّ لمّا توجّه إلى مكَّة سنة ست الهجريَّة، ووصل إلى مكان يدعى (ذي الحُلَيْفَة)[6]، بعث عيناً منه من خُزَاعَة يخبره عن قريش[7]، وكان هذا العين كافراً[8]، ومع هذا

---

(١) الآية الكريمة من سورة آل عمران: (٣: ١١٨).
(٢) تفسير الطبري (٤/ ٦٣ ـ ٦٤).
(٣) تفسير المنار (٤/ ٨١).
(٤) إمتاع الأسماع للمقريزي (١/ ٣٩، ٤١).
(٥) زاد المعاد لابن القيّم (٤/ ٢٠٢).
(٦) ذو الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة باتجاه مكة، ومنها ميقات أهل المدينة، انظر معجم البلدان (٣/ ٣٢٩).
(٧) زاد المعاد (٤/ ٣١٢).
(٨) الأحكام السلطانية للماوردي (٢٤ ـ ٢٥).

أسند النبيّ ﷺ إليه هذه المهمّة الخطيرة. ولا شك في أنّ النبيّ ﷺ أمنه ووثق به واطمأنّ إليه، ممّا يدلّ على جواز إسناد وظائف الدَّولة العامَّة إلى الذميين ما داموا أهلاً لها من حيث الكفاية والثقة والأمانة.

فالكتاب والسنّة إذاً يدلاّن على جواز إسناد الوظائف العامَّة إلى الذميّ ما دام ثقة ذا كفاية، وهذا في الحقيقة أقصى ما يمكن من التسامح والتساهل مع المخالفين في الدِّين لا نجد له نظيراً في القديم والحديث. وفي ظل هذا التسامح الإسلامي الكريم، صرّح فقهاء الشريعة الإسلاميَّة بجواز تقليد الذميّ وزارة التنفيذ[١]، ووزير التنفيذ يبلِّغ أوامر الإمام ويقوم بتنفيذها ويمضي ما يصدر عنه من أحكام[٢]، كما نصّ الفقهاء على جواز إسناد وظائف أخرى إلى الذميين كجباية الجزية والخراج[٣].

وإذا تجاوزنا أقوال الفقهاء إلى واقع الدول الإسلاميَّة، نجد أنّ المسلمين في مختلف العصور يشركون أهل الذمّة في أعمال الدَّولة. فعمر بن الخطّاب رضي الله عنه حين جاءه سبى قَيْسَارِيّة جعل بعضهم في الكتابة وأعمال المسلمين[٤]. وسليمان بن عبد الملك الخليفة الأمويّ عهد بالإشراف والنفقة على بنائه مسجد الجماعة ببلدة الرّمْلة الفلسطينية إلى كاتب نصرانيّ يقال له: البطريق ابن النّكا[٥].

ولما فتح المسلمون مصر أبقوا العمّال البيزنطيين، وكان من هؤلاء شخص يدعى: ميناس كان هِرَقل قد ولاّه أعمال المنطقة الشماليَّة من مصر. ومن الأشخاص المعروفين: أثناسيوس، الذي شغل بعض مناصب الحكومة بمصر في زمن الأمويين، حتى بلغ مرتبة الرئاسة في دواوين

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي (٢٥).
(٢) الأحكام السلطانية للماوردي (١٢٦) والأحكام السلطانية لأبي يعلى (١٢٤).
(٣) فتوح البلدان (١٩٣).
(٤) فتوح البلدان (١٩٥).
(٥) فتوح البلدان (١٩٥).

الإسكندريّة، وهكذا كانت عادة الأمويين في تعيين النصارى في وظائف الدَّولة. وقلّما خلا منهم ديوان من دواوينها، حتى كان لمعاوية بن أبي سفيان كاتب نصرانيّ اسمه: سرجون، وفي العباسيين عيّن الخليفة أبو جعفر المنصور يهودياً اسمه: موسى، كان أحد اثنين في جباية الخراج. وعيّن المأمون أحد وجهاء: (بُورة)[١] اسمه: بكام، رئيساً لبلدته وإقليمها. وقد تولى الوزارة في زمن العباسيين بعض النصارى أكثر من مرّة، منهم نصر بن هارون سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة الهجريَّة وعيسى بن نسطورس النصراني سنة ثمانين وثلاثمائة الهجريَّة[٢].

وقد جاء في كتاب: الحضارة الإسلاميَّة في القرن الرابع الهجري لآدم متز: ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يُغلق دون أهل الذمّة أيّ باب من أبواب الأعمال، وكان قدمهم راسخاً في الصنائع التي تدرّ عليهم بالأرباح الوافرة، فكانوا صيارفة وتجاراً وأصحاب ضياع وأطباء[٣]. أما حياة الذميّ عند أبي حنيفة وابن حنبل، فإنها تكافىء حياةَ المسلم، ودِيَته دِيّة المسلم، وهي مسألة مهمّة جداً من حيث المبدأ. أما عند مالك فَدِيَة اليهوديّ أو النصرانيّ نصف ديّة المسلم، وعند الشافعيّ ثلثها[٤] ولم تكن الحكومة الإسلاميَّة تتدخل في الشعائر الدِّينية لأهل الذمّة، بل كانه يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم[٥]. على أنّ الكنيسة الرسمية للدولة الرومانية الشرقيَّة قد ذهبت في معاداتها للمسيحيين الذين يخالفون رجالها في التفكير أبعد ممَّا ذهب إليه الإسلام بالنسبة لأهل

---

(١) بورة: مدينة على ساحل بحر مصر قرب دمياط، انظر معجم البلدان (٢/ ٣٠٢).
(٢) أهل الذمّة في الإسلام - أس. ترتون - ترجمة حسن حبشي - طبعة سنة ١٩٤٩ - ص (١٦٩).
(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (٥٢) نقلاً عن كتاب: الخراج لقدامة بن جعفر (٢٠٩) - ليدن - ١٨٨٩م.
(٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (٥٢).
(٥) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (٥٤).

الذمة، فلمّا أعاد الإمبراطور نقفور افتتاح جزء من بلاد الشَّام في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ـ كان ممَّا وعد به أهل الشَّام وأمّنهم به أن يحميهم من مضايقة كنيسة الدَّولة، ولكنه رغم هذا الأمان لم يَأْلُ جهداً في مضايقة اليعقوبيين، فاضطرهم مثلاً إلى الخروج من أنطاكية، لذلك نجد مؤرخي اليعقوبيين يصفون البطارقة التي عيّنتهم الدَّولة في أنطاكية بأنهم أضلّ من فرعون وأشدّ كفراً من بختنصّر. ولما أعيد احتلال مَلَطْيَة أخذ بطريرك اليعاقبة وسبعة من كبار أساقفتهم إلى القُسْطنطينيّة وسُجنوا هناك، ووضع الملكانيون أيديهم على الكنيسة الكبرى في مَلَطْيَة، فأما البطريرك فإنه مات منفياً على حدود بلغاريا، وكذلك مات أحد أصحابه في السجن، ورُجم الثالث أمام قصر الإمبراطوري، ورجع ثلاثة منهم عن المذهب اليعقوبيّ وأعيد تعميدهم، ولكنهم لم يجدوا السّكنية التي يرجونها، وصاروا موضع السخريّة كأنهم شياطين. وأخيراً لم يستطع رؤساء الكنيسة السريانيّة أن يقيموا في مقر بطريقهم بعد دخول المذهب الملكانيّ ـ بعد أن أعيدت أنطاكية إلى المسيحية كما يقول الملكانيون ـ فاضطروا إلى الانتقال إلى آمِد طلباً لتسامح أكثر في بلاد المسلمين. ولقد منعت الكنيسة الرسمية نصارى إِرْمينِيَة من استعمال النواقيس[١]، وكثيراً ما كان رجال السلطة المسلمون يتدخلون بين الفرق النصرانية لمنعهم من المشاجرات، حتى عَيّن حاكم أنطاكية في القرن الثالث الهجري رجلاً يتقاضى ثلاثين ديناراً من النصارى في الشّهر، وكان مقرّه قرب المذبح، وعمله أن يمنع المتخاصمين من قتل بعضهم بعضاً[٢]. وكان أهل الذمة يُعاملون في مستشفيات بغداد معاملة المسلمين[٣]، ولما كان الشرع الإسلامي خاصاً

---

(١) وهكذا فعلت الكنيسة الإنجليزية مع الكاثوليك حتى القرن التاسع عشر، وكما لا تزال إسبانيا وصقلية تفعلان حتى اليوم مع البروتستانت.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (٥٥).

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (٥٧).

بالمسلمين، فقد خلّت الدَّولة الإسلاميَّة بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم، والذي يعلمه من أمر هذه المحاكم، أنّها كانت محاكم كَنَسِيّة، وكان رؤساء المحاكم الروحيّون يقومون مقام كبار القضاة أيضاً، وقد كتبوا كثيراً من كتب القانون. ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج، بل كانت تشمل إلى جانب ذلك مسائل الميراث وأكثر المنازعات التي تخصّ المسيحيين وحدهم ممَّا لا شأن للدولة به[1].

ولكثرة إسناد الوظائف العامَّة إلى الذميين في الدَّولة الإسلاميَّة، وشيوع هذا الأمر، قال آدم متز أحد مؤرخي الغرب: من الأمور التي نعجب بها كثرة عدد العمّال والمتصرفين غير المسلمين في الدَّولة الإسلاميَّة[2].

والدَّولة العثمانية، وهي الدَّولة الإسلاميَّة المتأخرة، جرت على ما جرت عليه الدول الإسلاميَّة الأخرى وزادت عليه، فكانت تسند الوظائف المختلفة إلى رعاياها من غير المسلمين، وجعل أكثر سفرائها ووكلائها في بلاد الأجانب من النصارى[3].

ومن هذا العرض الذي قدمناه، يتضح لنا بجلاء أنّ اختلاف الذميين مع المسلمين في العقيدة لم يقم حائلاً دون إشراكهم في إدارة شؤون الدَّولة وتكليفهم بوظائفها، وهذا يدلّ على مدى تسامح الإسلام والمسلمين معهم.

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (٥٨)، انظر التفاصيل في هذا الكتاب (٤٤ ـ ٧٦).

(٢) كتاب، الإسلام انطلاق لا جمود ـ الدكتور مصطفى الرافعي ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ ١٩٥٩ ـ ص (١٦).
وانظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ـ آدم متز ـ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة (١/ ٦٧).

(٣) تفسير المنار (٤/ ٨٤).

وتظهر هذه الحقيقة بجلاء إذا ذكرنا أنّ الدَّولة الإسلاميَّة دولة عقيديّة قامت على أساس الإسلام ولغرض تنفيذ أحكامه تنفيذاً كاملاً سليماً في الداخل، والسعي على نشره بكل وسيلة مشروعة في الخارج، لأنّ الإسلام دعوة عالمية لا إقليمية. ودولة هذا شأنها لا يكون مستغرباً أن يتولى شؤونها المؤمنون بعقيدتها ونظامها وغايتها، بل لا يكون مستغرباً ألاّ يتولّى شؤونها غير المؤمنين بعقيدتها من شؤونها العامَّة ما داموا لا يؤمنون بما تؤمن به من عقيدة وغاية ونظام ولو حملوا جنسيتها. ولكن مع هذا نجد دولة الإسلام بتوجيه من الإسلام تتّسع لغير المسلمين وتفتح صدرها لهم ولا تضيق بهم، بل تشركهم في أعباء الدَّولة والمساهمة في إدارة شؤونها، وهي تعلم أنهم يخالفونها في عقيدتها وغايتها، وهذا أقصى ما يمكن من التسامح والثقة بالمخالف في العقيدة. والدول العقيدية حتى في القرن الحاضر، كالدول الشيوعية مثلاً، لا تعهد بشؤون الدَّولة ووظائفها العامَّة إلى غير الشيوعيين وإن كانوا من رعاياها، وحتى لو أقرّت لهم بالمساواة في الحقوق السياسية مع غيرهم من المواطنين. فإنها عملاً وواقعاً لا تسمح لمن لا يدين بالشيوعية أن يتولّى الوظائف العامَّة، وأقصى ما يمكن أن يطمح إليه غير الشيوعيين هو العيش بسلام وأمان لا يمسهم أذى من دولتهم[(١)].

وقد نصّ القرآن الكريم بوضوح على طريقة معاملة المسلمين لغير المسلمين:

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[(٢)].

---

(١) أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام (٨٢ ـ ٨٣).

(٢) الآيتان الكريمتان من سورة الممتحنة (٦٠: ٨ ـ ٩).

واقرأ الآية الكريمة، وهي من أواخر آيات القرآن نزولاً، فهي تحدد أيضاً علاقة المسلمين بغيرهم: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾[1].

من ذلك يُفهم أنّ علاقة المسلمين بغير المسلمين هي: برّ، وقِسْط، وتعاون، ومصاهرة، ولا يمكن أن تكون العلاقة بين أصحاب عقيدة بغيرهم الذين على غَير عقيدتهم بمثل هذه القوّة والرسوخ.

تلك هي مجمل تعاليم الإسلام في أصحاب الذمة، أما تعاليم الإسلام في القتال، فيمكن أن تلخّص في ثلاث كلمات: الإسلام، أو الجزية، أو القتال.

لما نزل خالد بن الوليد الحِيْرَة، خرج إليه أشرافها مع إياس بن قَبِيْصَة الطائيّ[2]، وكان أمَّره عليها كسرى بعد النُّعمان بن المنذر، فقال له خالد ولأصحابه: أدعوكم إلى اللّه وإلى الإسلام، فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم الجزية فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة، جاهدناكم حتى يحكم اللّه بيننا وبينكم، فقال إياس بن قبيصة: ما لنا بحربك من حاجة، بل نقيم على ديننا ونعطيك الجزية[3].

ولما دخل وفد سعد بن أبي وقَّاص على كسرى قُبيل معركة القادسية، قال النُّعمان بن مُقَرِّن المُزَنِيّ[*] ـ وكان على الوفد ـ مخاطباً

---

(١) الآية الكريمة من سورة المائدة (٥: ٥).
(٢) الخراج لأبي يوسف (١٧).
(٣) الطبري (٣/ ١٤٤).
(*) انظر سيرته المفصلة في كتاب قادة فتح بلاد فارس (٩٧ ـ ١٠٧).

كسرى: إن اللّه رحمنا، فأرسل إلينا رسولاً يدلّنا على الخير ويأمرنا به، ويعرّفنا الشّر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة.... ثمّ أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم، فندعوهم إلى الإنصَاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسّن الحسن وقبّح القبيح كلّه، فإن أبيتم فأمرٌ من الشرّ هو أهون من آخر شرّ منه: الجزاء، فإن أبيتم فالمناجزة. فإن أجبتم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب اللّه، وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن اتّقيتمونا بالجزاء قَبِلْنا ومنعناكم، وإلاّ قاتلناكم[1].

وإذا استقصينا كلام قادة الفتح كافة في مفاوضاتهم أهل البلاد الذين يريدون فتحها قبل الإقدام على القتال، لوجدناه يتلخّص في ثلاث كلمات: الإسلام، أو الجزية، أو القتال.

وليس عجيباً أن يتّفق كلّ القادة الفاتحين في كل البلاد المفتوحة، على هذه الكلمات الثلاثة، لأن هذه الكلمات هي روح تعاليم الإسلام في القتال، إذ تقضي هذه التعاليم بأنه إذا أراد المسلمون غزو بلدٍ وجب عليهم ـ أولاً ـ أن يدعوا أهله إلى الدخول في الإسلام، فإن أسلموا كانوا هم وسائر المسلمين سواء، وإن لم يُسلموا دعوهم إلى أن يسلّموا بلادهم للمسلمين ويحكمونها، ويبقون على دينهم إن شاؤوا ويدفعوا الجزية، فإن قبلوا ذلك كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وكانوا في ذمة المسلمين يحمونهم ويدافعون عنهم، وإن لم يقبلوا الإسلام ولا الدخول تحت حكمه ودفع الجزية، أُعلنت عليهم الحرب وقوتلوا[2].

تلك هي المبادىء التي تسيطر على تعاليم الإسلام في القتال: الإسلام ـ الجزية ـ القتال.

---

(١) الطبري (٣/٤٩٨ ـ ٤٩٩) وابن الأثير (٢/٤٥٦ ـ ٤٥٧).
(٢) انظر فجر الإسلام (١٠٦) ـ أحمد أمين ـ الطبعة الثالثة.

وليس هناك بين تلك المبادىء الإكراه على اعتناق الإسلام، فإذا ما دفعوا الجزية أقاموا على دينهم: ... بل نقيم على ديننا ونعطيك الجزية[1]، كما قال أهل الحيرة لخالد بن الوليد، وأضعف عمر بن الخطّاب ﷺ الصّدقة على نصارى بني تَغْلب عوضاً عن الجزية، فقالوا: أما إذا لم تكن جزية كجزية الأعلاج، فإنا نرضى ونحفظ ديننا[2]، وبنو تغلب من نصارى الجزيرة. وقد بقي على دينهم سائر أهل الكتاب في سائر البلاد المفتوحة من الذين لم يُسلموا وأعطوا الجزية للمسلمين الفاتحين، فلم يُكرههم المسلمون الفاتحون على الإسلام، تطبيقاً لتعاليم الإسلام في القتال ولتعاليمه التي نصّت عليها الآية الكريمة: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾[3].

إنّ الإدِّعاء بأنّ المسلمين الفاتحين نشروا الإسلام بالسّيف بعيد عن الواقع والحق والصواب.

فالواقع يثبت أنّ أحفاد غير المسلمين الذين لم يُسلموا وأعطوا الجزية، بقوا على دينهم ومارسوه بحريّة، ولا يزال أحفادهم يعيشون في بلاد المسلمين بعد الفتح وحتى اليوم.

والحق يثبت أنّ النصوص التاريخية المعتمدة، تشهد أنّ المسلمين الفاتحين دعوا أهل البلاد المفتوحة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلوهم بالتي هي أحسن، فاستجاب لهم من استجاب، وبقي مَن بقي على دينه من أهل الكتاب بعد دفع الجزية للمسلمين الفاتحين مقابل الدِّفاع

---

(١) الطبري (٣/ ٣٤٤).

(٢) فتوح البلدان (٢٥٠).

(٣) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢/ ٢٥٧)، انظر تفسيرها في: تفسير ابن كثير (٢/ ١٥ - ١٦) والبغوي (٢/ ١٦ ـ ١٧) وفي ظلال القرآن (٣/ ٢٩ ـ ٣٠).

عنهم، والذي دافع عن بلاده منهم مع المسلمين وُضِعَت عنه الجزية وسقطت عنه[1]، فقد بُعث النبيّ ﷺ هادياً ولم يُبْعث جابياً.

والصواب يثبت أنّ الإكراه في الدِّين ليس من الإسلام في شيء، وأنّ المسلمين لا يُكرهون أحداً على الإسلام، والعالم الإسلامي اليوم وقبل اليوم مكوّن من قسمين: البلاد المفتوحة، والبلاد غير المفتوحة، وتعداد المسلمين في البلاد غير المفتوحة أكثر من تعدادهم في البلاد المفتوحة، فإذا صحّ أنّ المسلمين الفاتحين حملوا غير المسلمين على الإسلام في البلاد التي فتحوها بالسّيف، فمن حمل غير المسلمين في البلاد التي لم تفتح على الإسلام؟!

مَن نشر الإسلام في الهند والصين وإندونيسيا وماليزيا والفلبين وفي مجاهل إفريقيا وفي أوروبا وأمريكا، وهي بلاد لم يصل إليها المسلمون الفاتحون؟!

لقد كان الجهاد حرباً عادلة، واتّسم الحكم الإسلامي بالعدل والإنصاف والحريّة، وحمل المسلمون المبادىء الإسلاميَّة لغةً وتشريعاً وعقيدةً ومُثُلاً في يد، وحملوا السّيف وأسلحة النصر في يد أخرى، لذلك كان الفتح الإسلامي فتحاً مُسْتَداماً منذ كان حتى اليوم، وسيبقى حتى يرث اللَّه الأرض ومن عليها، خلافاً لانتصارات من كان قبلهم ومن جاء بعدهم، لأن انتصارات المسلمين الفاتحين انتصارات مبادىء بالدرجة الأولى لا انتصارات سيوف.

إن المسلمين الفاتحين حملوا الإسلام إلى البلاد المفتوحة بالفتح، ولكنهم لم يحملوا أهل تلك البلاد على الإسلام بالفتح.

---

(١) انظر التفاصيل في: قادة فتح العراق والجزيرة (٥٢٥ ـ ٥٣٢).



بلاد الرّوم
الموقع والحدود

كان المسلمون يسمّون أقاليم الدَّولة البيزنطيّة في جملتها: بلاد الرّوم. ولفظ: الرّومي أي الرومانيّ في العصور الإسلاميَّة الأولى، كانت ترادف عند المسلمين كلمة: المسيحيّ أو النصرانيّ، سواء كان الموصوف بها من اليونان أو اللاَّتين.

وكانوا يسمّون البحر الأبيض المتوسِّط: بحر الرّوم، اسماً لأقرب الأقاليم المسيحيّة من بلاد الإسلام.

ومن ثَمّ صارت بلاد الرّوم اسماً لآسيا الصغرى عند العرب، وهي البلاد العظيمة التي انتقلت نهائياً من نهاية السنة المئة الخامسة الهجريَّة (القرن الحادي عشر الميلادي) إلى أيدي المسلمين باستيلاء السّلاجقة عليها.

وكانت الحدود بين بلاد المسلمين وبلاد الرّوم في أيام بني أُميّة وبني العبّاس، بل حتى قبل أن يقضي المغول القضاء المبرم على الدَّولة العباسية في بغداد بما ينيف على قرن ونصف قرن، تتألف من سلسلتي جبال طوروس وجبال طوروس الداخلة (أنتي طوروس). وكان يحدّ هذه الحدود ويحميها خط طويل من القلاع التي تعرف بالثّغور، يمتد من (مَلَطْية) على الفرات الأعلى، إلى (طَرَسُوس) بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط، وكان المسلمون يفتحون هذه القلاع تارة ويحتلها الرّوم تارة أخرى.

وتنقسم هذه القلاع إلى مجموعتين، إحداهما تحمي الجزيرة، وتسمى: ثغور الجزيرة، وهي الشماليَّة الشرقيَّة، والثَّانية تحمي الشّام، وتسمى: الثّغور الشَّاميّة، وهي الجنوبيَّة الغربيَّة.

وكان من ثغور الجزيرة: مَلَطْيَة، وزِبَطْرَة، وحصن منصور، وبَهْنَسَا، والحَدَث[1]، ثم مَرْعَش، والهارونيّة، والكنيسة وعين زَرْبَة (عين زَرْبَى)، وهي الثغور الشَّاميَّة، أما الثغور الشَّاميَّة التي بالقرب من السّاحل لخليج الأسْكَنْدَرُونة فهي: المَصِيْصَة، وأَذَنَة، وطَرْطُوس.

ويحدها من الغرب: بحر الرّوم وخليج القُسْطَنْطِينِيّة وبحر القَرِم، ومن الجنوب بلاد الشّام والجزيرة، ومن الشرق إِرْمينِيَة، ومن الشمال بلاد الكَرج وبحر القَرِم.

---

(١) انظر ما ورد عن هذه الثغور في: بلاد الجزيرة.

الثّغور الشَّاميّة

١ ـ مَرْعش:

سماها الروم: (مراسيون Marasion)، ويقال إنّها قامت في موضع جرمانيقيّة.

وهي مدينة من الثغور بين الشَّام وبلاد الرّوم، لها سوران وخندق، وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني بناه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أميّة، ثم حصّنها هارون الرَّشيد أيضاً.

٢ ـ عين زَرْبَى أو عين زَرْبَة:

بلد يشبه مدينة الغور، بها نخيل، وهي خصبة واسعة الثمار والزروع والمراعي، ولها سور مكين، تقع في الجبل، ذات قلعة مستعلية عنها، وهي من الثغور من نواحي المصِّيْصَة.

٣ ـ الهارونية:

مدينة صغيرة بالقرب من مَرْعش بالثغور الشَّاميَّة في طرف جبل اللّكام، استحدثها هارون الرَّشيد، وبها سوران وأبواب حديد. وجبل اللّكام: اسم أطلقه البلدانيون المسلمون على سلسلة جبال أنتي طوروس.

٤ ـ الكنيسة:

بلد بثغر المصّيصة، ويقال لها: الكنيسة السوداء، وسميت بالسوداء، لأنها بنيت بحجارة سود، بناها الرّوم قديماً وبها حصن منيع قديم أخرب

فيما أخرب منها، ثم أمر هارون الرَّشيد ببنائها وإعادتها إلى ما كانت عليه وتحصينها، ونَدَب إليها المقاتلة، وزادهم في العطاء، بينها وبين الهارونية اثنا عشر ميلاً.

٥ ـ المُثَقَّب:

حصن على ساحل البحر قرب المصِّيصة، سمي: المثقّب، لأنه في جبال كلّها مُثقّبة فيها كِوىً كبار، وكان أوّل مَن بنى حصن المثقب هشام بن عبد الملك.

٦ ـ المَصِّيْصَة:

مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشَّام بين أنطاكية وبلاد الرّوم، تقارب طرسوس، وهي من ثغور الإسلام، ذات سور وخمسة أبواب. فتحها عبد اللَّه بن عبد الملك وبنى حصنها على أساسه القديم، ووضع فيها سكّاناً من الجند من أرباب البأس والنّخوة، وبنى فيها مسجداً فوق تلّ الحصن. وبعد وقت قصير من فتحها نشأ في الجانب الآخر من نهر جيحان (نهر بيرامس) ربض أو ضاحية جديدة سميت: كفربيا .بنى فيها عمر بن عبد العزيز جامعاً اتّخذ فيه صهريجاً. ثمّ إنّ مروان بن محمد آخر خلفاء بني أميّة أنشأ ربضاً ثالثاً في شرقي نهر جيحان يقال له: الخصُوص، وبنى عليه حائطاً وأقام عليه باب خشب، وخندقَ خندقاً.

٧ ـ أَذَنَة:

بلد من الثغور قرب المصّيصة، تقع على نهر سيحان (نهر سارس)، وهي مدينة خصبة عامرة حصينة.

٨ ـ طَرَسُوس:

مدينة من أهم مدن الثغور الشَّاميَّة، تقع بين أنطاكية وحَلب وبلاد الرّوم، بينها وبين أذنة ستة فراسخ، عليها سوران وخندق واسع، ولها ستة أبواب، وهي تشرف على الدّرب المشهور عبر طوروس.

وعُني الخلفاء العبّاسيون الأولون، ولاسيما المهدي وهارون الرَّشيد بتحصين طرسوس وشحنها بالرِّجال.

المدن الأخرى

١ ـ العَلايا:

بلد محدثة، أنشأها علاء الدِّين أحد ملوك السلاجقة فنسبت إليه، فقيل إليه: العلائية، ثمّ خفّفها الناس وقالوا: العلايا.

وهي بلدة صغيرة على بحر الرّوم، وهي من فُرض تلك البلاد، وهي في الجنوب من أَنْطَالِيَة على مسيرة يومين منها، عليها سور، وهي كثيرة المياه والبساتين، ومساحتها أصغر من أنْطَالِيَة.

٢ ـ أَنْطَالِيَة:

بلدة كبيرة من مشاهير بلاد الرّوم، وهي حصن من حصون الرّوم المنيعة تقع على بحر الرّوم، ولها بابان إلى البحر وإلى البر، والمياه جارية بداخل البلد وخارجه، ولها بساتين كثيرة من المحمضات وأنواع الفواكه، تقع غربي قونية وعلى مسافة عشرة أيام منها.

٣ ـ أَنْقِرَة:

اسم للمدينة المسمّاة: أنكوريّة، وهي بلدة لها قلعة على تلٍ عالٍ، وليس لها بساتين ولا ماء سارح، وشرب أهلها من آبار نُبَّع قريبة المدى، وبين أنقرة وقسطمونية خمسة أيام: قسطمونية في الشرق والشمال، وأنقرة في الغرب والجنوب.

وهي مدينة قديمة، كما ورد ذكرها في شعر امرىء القيس، كما ورد ذكرها في شعر أبي تمّام الطائي أيضاً.

٤ ـ عَمُّورِيَة:

بلدة كبيرة، ولها قلعة داخلها حصينة، وأكثر ساكنيها التركمان، وبها

بساتين قليلة، وبها أعين ونهر، وهي التي فتحها المعتصم الخليفة العباسي في سنة (٢٢٣ هـ) وفتح أنقرة بسبب أسر العلويّة في قصة طويلة معروفة، وكانت من أعظم فتوح الإسلام.

٥ ـ آقْشَار أو آقْ شَهِر:

من أنزه المدن، وبها بساتين كثيرة وفواكه مفضّلة، تبعد عن قَوْنِيَة ثلاثة أيام شمالاً بغرب.

٦ ـ قُونِيَة:

مدينة مشهورة، لها جبل في جنوبيها، ينبع منه نهر ويدخل إلى قونية من غربها، ولها بساتين من جهة الجبل يقرب من ثلاثة فراسخ، وبقلعتها تربة أفلاطون الحكيم، ونهرها يسقي بساتينها ثم تصير بحيرة ومروجاً، والجبال دائرة بها من كلّ جانب، وتَبعُد عنها من جهة الشمال، والفواكه بها كثيرة، وهناك المشمش المعروف بقمر الدِّين.

٧ ـ قَيْسَارِيّة أو قَيصَارِيّة:

بلدة كبيرة ذات أشجار وبساتين وفواكه وعيون تدخل إليها، وداخلها قلعة حصينة، وبها دار للسلطنة، وهي منسوبة إلى قيصر، وفي شرقيها مدينة سيواس، وبين قيسارية وأقصرا أربعة مراحل.

٨ ـ أقصرا أو أقسرا:

بلدة في عرض أقشار وأطول منها، كثيرة الفواكه، تحمل منها إلى قونية على العَجَل في بسيط من الأرض كلّها مراع وأودية، بينها وبين قونية ثمانية وأربعون فرسخاً وكذلك من أقصرا إلى مدينة قيسارية، وبين أقصرا وقونية ثلاث مراحل:

وهي ذات أشجار وفواكه كثيرة، ولها نهر كبير داخل في وسط البلد، ويدخل الماء إلى بعض بيوتها من نهر آخر، ولها قلعة كبيرة حصينة في وسط البلد.

٩ ـ هِرَقْلَة:

بلدة في شرقي نهر ينزل من جبل العلايا إلى آخر سنوب، وهرقلة تقع قرب البحر، وفي شرقيها جبل الكهف، ويقال: إنّ فيه الكهف الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة الكهف.

١٠ ـ أماسِيَة:

بلدة كبيرة، لها سور وقلعة وبساتين ونهر كبير ونوافير تسقى بها، مشهورة بالحسن وكثرة المياه والكروم والبساتين، بينها وبين سنوب ستة أيام، فيها معدن الفضّة.

١١ ـ مَلَطْيَة:

بلدة ذات أشجار وفواكه وأنهار، يحف بها جبال كثيرة الجوز، وسائر الثمار مباحة لا مالك لها، وهي قاعد الثغور، مسوّرة في بسيط من الأرض والجبال تحفّ بها من بُعْدِن ولها نهر صغير عليه بساتين كثيرة يسقيها ويمرّ بسور البلد، وهي شديدة البرد، تقع في جنوبي سيواس بينهما ثلاث مراحل، وفي شمالي زِبَطْرَة وبينهما مرحلة كبيرة. ولمَلَطْيَة أيضاً قنىً تدخل البلد وتجري في دوره وسككه.

١٢ ـ سيواس:

وهي بلدة كبيرة مشهورة، وبها قلعة صغيرة، وهي ذات أعين، والشجر بها قليل، ونهرها الكبير يبعد عنها بمقدار فرسخ، وهي في بسيط من الأرض، المسافة بينها وبين قيساريّة ستّون ميلاً، تقع مدينة أرْزَن في شرقيها، وسيواس شديدة البرد.

١٣ ـ تَوْقَات:

بلدة صغيرة في لحف الجبل، تقع بين قُوْنِيَة وسيواس، ذات قلعة حصينة وأبنية مكينة، بينها وبين سيواس يومان، لها بساتين وأشجار فواكه جيدة، معتدلة في الحرارة والبرودة، وهي شمالي سيواس.

١٤ ـ أَرْزَن:

مدينة مشهورة قرب خَلاط، وهي آخر حدِّ بلاد الرّوم من جهة الشرق، وفي شرقيها وشماليِّها منبع الفرات.

١٥ ـ القُسْطَنْطِينِيّة:

مدينة شهيرة جداً، كانت عاصمة الإمبراطورية البيزنطية الشرقيَّة، بناها قسطنطين سنة (٣٣٠ م)، وهي مسوّرة بسورٍ حصين، ارتفاعه ما بين أربعة عشر قدماً وعشرين قدماً، ومحيطها أكثر من اثني عشر ميلاً.

١٦ ـ مرج الأسقف:

موضع قريب من غرب بدندس (البذندون).

١٧ ـ مَطْمُورة:

بلد في ثغور الرّوم، بناحية طرسوس.

١٨ ـ ذو القلاع:

كانت قلعة مشهورة، واسمها عند الرّوم تفسيره: الحصن الذي مع الكواكب. ويبدو أنها تطابق: (سيدبروبوليس Sideropolis) في بلاد القباذق.

١٩ ـ اللؤلؤة:

قلعة قرب طرسوس، واسمها عند البيزنطيين: لولون، سمّاها العرب: لؤلؤة ليضفوا على اسمها معنى من المعاني.

٢٠ ـ طُوَانة:

بلد بثغور المَصِّيْصَة، اسمها القديم: تيانا.

٢١ ـ الصَفْصَاف:

كورة من كوَر المَصِّيْصَة، ويرد ذكرها أحياناً: مدينة الصَّفْصَاف أو حصن الصفصاف، وهي قرب لؤلؤة على طريق القُسْطَنْطينيَّة.

٢٢ ـ حصن الصَّقالبة:

حصن يقع في جنوبي البذندون، وسمي باسم الصقالبة الذين فرّوا من البيزنطيين وعسكروا فيه. وكان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أميّة قد جعلهم في هذا الحصن لحراسة الدّرب.

٢٣ ـ مَلَقُونِيَّة:

بلد من بلاد الرّوم، قريب من قونية، تفسيره مقطع الرّحى، لأنّ من جبلها يقطع رحى تلك البلاد.

٢٤ ـ أُفْسُوس:

بلد بثغور طرسوس في بلاد الرّوم.

٢٥ ـ أنطاكية:

مدينة مشهورة تعتبر قصبة العواصم من الثغور الشّاميّة، وهي من أعيان البلاد وأمّهاتها، موصوفة بالنزهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير.

ولها سور فيه ثلاثمائة وستون برجاً من أبراج المراقبة، وشكل البلد كنصف دائرة، قطرها يتّصل بجبل، والسّور يصعد مع الجبل إلى قمته، وفي رأس الجبل دار السّور قلعة تبين لبعدها من البلد صغيرة، وللسور المحيط بها دون الجبل خمسة أبواب.

وبين أنطاكية والبحر نحو فرسخين، بها مرسىً في بُليد يقال له: السُّويديّة ترسي فيه المراكب، فترفع الأمتعة إلى أنطاكية على الدّواب.

٢٦ ـ أَطْرَابَزُنْدَة أو طرابزون:

مدينة من أعيان مدن الرّوم على ضفة بحر القُسْطَنْطينيَّة الشرقي، وهو المعروف ببحر بُنْطس (البحر الأسود). وإلى هذه المدينة منتهى جبل القبق ثم يقطعه البحر، وهي مشرفة على البحر وماؤه محيط بها كالخندق محفور حولها بأسرها، وعليه قنطرة إذا دَهِمَهم عدوّ قطعوها، ولها إقليم واسع،

ومقابلها مدينة كَرَاسِنْده على ساحل هذا البحر الغربي، وولايتها كلها جبال وعرة، من أعمال القُسْطَنْطينيَّة.

وهي أجلّ ميناء، كانت تجلب إليها السِّلع من القُسْطَنْطينيَّة وتحمل منها إلى بلاد الإسلام. وكان التّجار العرب ووكلاؤهم ينقلون السِّلع منها عبر الجبال إلى مَلَطْيَة وغيرها من مدن الفرات الأعلى، وأخصّ هذه السِّلع: ثياب الكتان اليوناني، وثياب الصوف والديباج والأكسية الروميّة، وكلها كان يجلب بحراً من الخليج إلى البسفور.

الجبال والأنهار

١ ـ الجبال:

بلاد الرّوم، أو ما يطلق عليها الجغرافيون المحدثون اسم: آسيا الصغرى (تركيا الحديثة)، عبارة عن شبه جزيرة عظيمة مكوِّنة لهضبة تحدّها الجبال، وتنحدر على وجه العموم نحو البحر الأسود[1].

وتقع هضبة آسيا الصغرى سلسلة بُنْتِك في الشمال وجبال طوروس في الجنوب[2].

وجبال بلاد الرّوم المهمّة هي: طوروس، وأنتي طوروس، وهما سلسلتان جبليّتان كانتا الحدود بين بلاد المسلمين والرّوم في أيام بني أميّة وبني العبّاس، وكان يعيِّن هذه الحدود ويحميها خط طويل من القلاع تعرف بالثُّغور، يمتدّ من مَلطية على الفرات الأعلى إلى طَرَسُوس بالقرب من البحر الأبيض المتوسط، ومن أهمّ هذه الثّغور: المَصِّيْصَة، وأَذَنَة، وطَرسُوس.

جبل اللُّكَّام اسم أطلقه البلدانيون المسلمون على سلسلة جبال أنتي

(١) الجغرافية العمومية اسمذارد بالاشتراك ـ القاهرة ـ ١٩١٩ ـ ص (١٨١).
(٢) الجغرافية العمومية ـ (١٦٩).

طوروس[1]، وقالوا في وصفه: الجبل المشرف على أنطاكية وبلاد ابن ليون والمَصّيصَة وطَرَسُوْس[2]، ثم يمتدّ إلى مَلطية وسُمَيْسَاط وقاليقلا على بحر الخَزَر، فيسمى هناك جبل القَبق[3]، وهذا يتّصل بجبال القوقاز الممتدة شمالاً وبجبال هندكوش التي تتّصل بجبال هملايا[4].

ويقطع جبال طوروس دروب كثيرة، سلك المسلمون اثنين منها بوجه خاص في غزواتهم السنوية لبلاد الرّوم.

الدّرب الأول: درب الحَدَث، وهو في الشمال الشرقيّ، وكان من مَرْعَش فشمالاً إلى (أبلستين Ablastin) وقد عرفت هذه المدينة بـ: (البُستان)، وهي (أبلستا البيزنطية Ablastina)، أي (عربسوس اليونانية Araissus) وكان يحمي هذا الدّربَ حصنُ (الحدث Adatha).

والدّرب الثّاني: كثيراً ما كان يُسلك في الأزمنة القديمة، وهو الدرب الضّارب شمالاً من طَرَسُوس، ومنه يأخذ الطريق العام إلى القُسْطَنْطينيَّة، وكان هذا الطريق هو الذي يسلكه سُعَاة البريد وتمرّ منه القوافل والوفود، كما أنّه الطريق التي تتبعه موجات المحاربين من المسلمين والنّصارى، وكان هذا الدّرب يعرف في قسمه الجنوبي بدرب السّلامة. وقد وصفه ابن خرداذبة في كتابه المسالك والممالك، فقال: من طَرَسُوْس إلى العُلَّيق اثنا عشر ميلاً، ثمّ إلى الرَّهْوَة ـ أي المكان المنخفض ولعلّها: مُبْسَكرينة Mopsukrene القديمة ـ ثمّ إلى الجوزات اثنا عشر ميلاً، ثمّ إلى الجردقوب سبعة أميال، ثمّ إلى البَذَنْدُون Podandos سبعة أميال، ثمّ إلى معسكر الملك على حمَّة لؤلؤة ـ لولون Loulon ـ والصَّفْصَاف عشرة أميال ـ قرب فان ستينوبوليس Fanstinopolis ـ وتصير إلى معسكر الملك وقد قطعت الدّرب حتى النهاية الشماليَّة من الدرب

---

(١) بلدان الخلافة الشرقية (١٦٢).

(٢) معجم البلدان (٧/ ٣٠٧).

(٣) معجم البلدان (٧/ ٣٢٠).

(٤) الجغرافية العمومية ـ (١٦٩).

الذي اخترق الجبل ـ وأصحرت. ومن معسكر الملك إلى وادي الطَّرفاء اثنا عشر ميلاً، ثمّ إلى مِنَى عشرون ميلاً، ثمّ إلى نهر هِرقْلَة ـ وهرقلة هي أراكيلة الحديثة وهرقلة Heraclia عند الرّوم ـ اثنا عشر ميلاً، ثمّ إلى اللبن ثمانية أميال، ثم إلى رأس الغابة خمسة عشر ميلاً، ثمّ إلى المسكنين ستة عشر ميلاً، ثمّ إلى عين بُرْغُوْث اثنا عشر ميلاً، ثمّ إلى نهر الأحْسَاء ـ أي النَّهر الذي تحت الأرض ـ ثمانية عشر ميلاً، ثمّ إلى ربض قونية إيكونيوم Iconium ـ ثمانية عشر ميلاً، ثمّ إلى العَلَمَيْن خمسة عشر ميلاً، ثمّ إلى وادي الجوز اثنا عشر ميلاً، ثمّ إلى عَمُّورِيَّة ـ آمورين Amorion ـ اثنا عشر ميلاً، * وطريق آخر: من العَلَمَيْن إلى عَمُّورِيَّى يبدأ من العلمين إلى قرى نصر الأقريطيّ خمسة عشر ميلاً، ثم إلى رأس بحيرة الباسليون ـ بحيرة الأربعين شهيداً عشرة أميال، ثم إلى حصن سنادة ثمانية عشر ميلاً ـ وسنادة هي سنادس Synades، ثمّ إلى مَغْل خمسة وعشرون ميلاً، ثمّ إلى غابة عموريّة ثلاثون ميلاً، ثمّ إلى قرى الحرّاب خمسة عشر ميلاً، ثم إلى صَاغَرِيَ ـ وهو Sangarius ـ نهر عمورية ميلان، ثمّ إلى العلج اثنا عشر ميلاً، ثمّ إلى فلامى الغابة خمسة عشر ميلاً، ثم إلى حصن اليهود اثنا عشر ميلاً، ثمّ إلى سندابرى ـ سنتابريس Santabaris ـ ثمانية عشر ميلاً، ثمّ إلى برج حُمُر الملك في دَروْبُلِي خمسة عشر ميلاً، ثمّ إلى كنائس الملك ـ وهي Silica of Anna Comnena ـ ثلاثة أميال، ثمّ إلى التلول خمسة وعشرون ميلاً، ثمّ إلى الأكوار خمسة عشر ميلاً، ثمّ إلى مَلاجِنَة خمسة عشر ميلاً ـ وملاجنة هي Malagina ـ ثم إلى إصطبل الملك خمسة أميال، ثمّ إلى حصن الغبراء ـ وهي كيبوتس Kibotos ـ ثلاثون ميلاً، ثمّ إلى الخليج ـ وهو بوسفور القُسْطَنْطينيَّة Bosporus ـ أربعة وعشرون ميلاً، ونيقِيَة بإزاء الغبراء أي جنوب الغبراء[١].

---

(١) المسالك والممالك لابن خرداذبة (١٠٠ ـ ١٠٢ و١١٠ ـ ١١٣) وقد جاء في (١٠٢ ـ ١٠٣) وصف طرق تختلف بعض الشيء عن هذا الطريق، انظر كتاب بلدان الخلافة الشرقية (١٦٦ ـ ١٦٧).

وهذا هو ما أطلق عليه الدّرب، وإذا أُطلق هذا اللّفظ أُريد به ما بين طرسوس وبلاد الرّوم لأنّه مضيق كالدّرب، وإياه عنى امرؤ القيس بقوله:

بكى صاحبي لمّا رأى الدّربَ دونه وأيقن أنّا لاحقان بقَيْصَرا
فقلت له لا تبك عينك إنّما نُحاول مُلْكاً أو نموت فنُعذرا[1]

ولجبال طورس وأنتي طورس فروع يذكر قسماً منها البلدانيون المسلمون بأسماء مختلفة وهي عبارة عن فروع من طورس وأنتي طورس.

٢ ـ الأنهار:

أشهر أنهار بلاد الرّوم نهران هما: سَيْحَان وجَيْحَان، وقد أطلق المسلمون على نهر (سارس Sarus) اسم نهر سَيْحَان، وأطلقوا على نهر (بيرامس) اسم نهر جَيْحَان، وكانا حدّاً مائياً بين بلاد المسلمين وبلاد الرّوم.

ومنابع هذين النّهرين في المرتفعات شمال إرْمِينِيَة الصّغرى، وكان نهر جيحان الذي كان يقارب نهر الفرات في الكبر، وتسميه العامّة: جهان، ويسير من الشمال إلى الجنوب بين جبال في حدود الرّوم، حتى يمرّ بالمَصِّيْصَة من شماليها، وجريانه عندها من الشرق إلى الغرب، ويتجاوز المَصِّيْصَة مغرباً ويصبّ بالقرب منها في بحر الرّوم[2] بمدينة تعرف بكَفَرْبَيَا بإزاء المَصِّيْصَة، وعليه عند هذه المدينة قنطرة عجيبة روميّة من حجارة قديمة عريضة، فيدخل منها إلى المَصِّيْصَة وينفذ منها فيمتدّ أربعة أميال، ثم يصب في بحر الرّوم[3].

أما نهر سيحان الذي يمرّ ببلاد الرّوم، فيجري من الشمال إلى

---

(١) معجم البلدان (٤/ ٤٨).
(٢) تقويم البلدان (٥٠).
(٣) معجم البلدان (٣/ ١٨٦).

الجنوب غربيّ مجرى جيحان، وهو دون جيحان قدراً فهو أصغر منه، ويمرّ على سور أَذَنَة من شرقيّها ويتجاوز أَذَنَة، وهي دون مرحلة عن المَصِّيْصَة، ويلتقي مع جيحان تحت أذنة والمَصِّيْصَة، ويصيران نهراً واحداً، ويصبّان في بحر الروم[1]. ونهر سيحان هو الذي ذكره المتنبّي في مدح سيف الدَّولة فقال:

أخو نخوات ما تُغِبّ سيوفُه ... رقابَهم إلاّ وسَيْحَانُ جامدُ

يريد أنه لا يترك الغزو إلاّ في شدّة البرد إذا جمد سيحان[2].

ونهر حَمَاة، ويسمى نهر: الأرنط، والنَّهر المقلوب لجريه من الجنوب إلى الشمال، ويسمى أيضاً: العالي لأنّ غالب الأنهر تسقي الأرض بغير دواليب ولا نواعير بل بأنفسها تسقي الأرض، ونهر حماة لا يسقي إلاّ بنواعير تنزع منه الماء. وهو يجري بكليته من الجنوب إلى الشمال، وأوله نهر صغير من ضيعة قريبة من بَعْلَبَك تسمى: (الرأس) في الشمال من بعلبك على نحو مرحلة عنها، ويسير من الرأس شمالاً حتى يصل إلى مكانه يقال له: (قائم الهرمل) بين جُوسِيَة[3] والراس ويمرّ ببلدٍ هناك، وينبع من هناك غالب النَّهر المذكور من موضع يقال له: (مغارة الراهب). ويسير شمالاً حتى يتجاوز جُوسِيَة ويصب في بحيرة: قَدَس[4]، في غربي حِمْص، ويخرج من البحيرة ويتجاوز حِمْص إلى: الرَّسْتَن[5]، إلى حماة، ثم إلى شَيْزَر ثم على بحيرة: أَفَامِيَة، ثمّ يخرج من بحيرة

---

(١) تقويم البلدان (٥٠).

(٢) معجم البلدان (٥/ ١٩٨).

(٣) جوسية: قرية من قرى حمص على ستة فراسخ منها من جهة دمشق، انظر معجم البلدان (٣/ ١٧١).

(٤) قدس: بلد قرب حمص بضفاف بحيرة قدس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٨٠ ـ ٨١) و(٧/ ٣٥).

(٥) الرستن: بليدة قديمة بين حمص وحماة، انظر معجم البلدان (٤/ ٢٤٩).

أفامية ويمرّ على: دركوش، على جسر الحديد، وذلك جميعه في شرقي جبل اللُّكَّام.

فإذا وصل على جسر الحديد، ينقطع الجبل المذكور هناك، ويستدير النَّهر المذكور، ويرجع ويسير جنوباً ومغرباً، ويمرّ على سور أنطاكية حتى يصب في بحر الرّوم عند السُّوَيْدِيَّة[١].

ويصب في نهر الأرنط المذكور عدّة أنهر، منها نهر منبعه من تحت أفامية، يسير مغرباً إلى بحيرة أفامية، ويختلط بنهر حماة. ومنها نهر في شمالي أفامية على نحو ميلين ويُعرف بالنّهر الكبير، يسير مدّاً قريباً ويصبّ أيضاً في بحيرة أفامية، ويخرجان منها مع نهر الأرنط. ومنها النَّهر الأسود، يجري من الشمال، ويمرّ تحت دَرْبَسّاك[٢]. ونهر يَغْرا[٣]، ومنبعه قريب يغرا، ويصبّ في النَّهر الأسود المذكور، ويصبَّان في بحيرة أنطاكية أيضاً. ونهر عِفرِين[٤]، يأتي من بلاد الرّوم، ويمرّ على الرّاوِنْدَان[٥] إلى الجُوْمَة[٦]، ويمرّ في الجومة ويتجاوزها إلى العَمْق[٧]، ويختلط بالنَّهر الأسود، وتصير هذه الأنهر الثلاثة، أعني النَّهر الأسود ونهر يَغْرا ونهر عِفِرين نهراً واحداً، ويصبّ في بحيرة أنطاكية، ويخرج منها ويصبّ في نهر عاصي حماة فوق أنطاكية بالغرب منها[٨].

أما نهر أَنْقِرَة فيسقي مروجها وضياعها، ويصب في بحر الرّوم،

---

(١) السويدية: شمالي اللاذقية، وهي ميناء أنطاكية، انظر تقويم البلدان (٢٩).
(٢) دربسّاك: بلدة من قنسرين، ذات قلعة مرتفعة، انظر تقويم البلدان (٢٦٠ ـ ٢٦١).
(٣) يغرا: قرية على نهر باسمها بالقرب من بحيرة أفامية، انظر تقويم البلدان (٤٢).
(٤) عفرين: اسم بلد على نهر باسمها بالقرب من بحيرة أفامية، انظر تقويم البلدان (٤٢).
(٥) الراوندان: قلعة حصينة ـ وكورة طيبة معشبة مشجرة، من نواحي حلب، انظر معجم البلدان (٤/ ٢١٤).
(٦) الجومة: من نواحي حلب، انظر معجم البلدان (٣/ ١٧٦).
(٧) العمق: كورة بنواحي حلب، انظر معجم البلدان (٦/ ٢٢٤).
(٨) المعلومات الخاصة بنهر حماة من: تقويم البلدان (٤٩ ـ ٥٠).

وجريانه من الجنوب إلى وسط الشمال[1].

أما نهر هِرَقْلَة، فينزل من جبال العلايا[2] على جهة سنوب[3] وهرقلة على شرقي هذا النَّهر قرب البحر[4].

والبَرَدان نهر بثغر طرسوس، مجيئه من بلاد الرّوم، ويصبّ في بحر الرّوم على ستة أميال من طرسوس: ولا أعرف بالشَّام موضعاً أو نهراً يُقال له: البردان غيره. والبردان أيضاً نهر يسقي بساتين مَرْعَش وضياعها، مخرجه من أصل جبل مرعش[5]، ويسمى هذا الجبل: الأقرع[6]، ويصب في بحر الرّوم، وهو نهر كوردس القديم.

وعلى مرحلة من طَرَسوس، نهر كان يؤلِّف حداً مائياً في الأزمنة الأولى، وهو نهر (لموس، سمّاه العرب نهر: اللاّمس وعليه يكون الفداء إذا فودي بين المسلمين والروم[7].

ونهر الفرات الذي ينبع من شمالي مدينة أَرْزَن الرّوم وشرقيها، وأرْزَن في آخر حدّ بلاد الرّوم من جهة الشرق، ثم يأخذ النَّهر إلى قرب مَلَطْيَة، ثم يأخذ إلى سُمَيْسَاط، ثم يأخذ مشرّقاً ويتجاوز قلعة الرّوم، وهي حصن منيع على جنوبيّ الفرات وغربيّها، وتمرّ الفرات مع جانب الحصن من شماليّه وشرقيّه، ثم يدخل الفرات بلاد الشَّام، ومنه إلى العراق[8]، وقد ذكرنا الجزء الذي يمر ببلاد الرّوم فقط من هذا النَّهر.

---

(١) تقويم البلدان (٥٠ ـ ٥١).

(٢) علايا بلدة محدثة صغيرة في الجنوب من أنطاكيا على بحر الروم، انظر تقويم البلدان (٣٨٠ ـ ٣٨١).

(٣) سنوب: بلدة بالقرب من القسطنطينية.

(٤) تقويم البلدان (٥١).

(٥) معجم البلدان (٢/ ١١٥).

(٦) انظر التفاصيل في: تقويم البلدان (٥١ ـ ٥٣).

(٧) انظر التفاصيل في: تقويم البلدان (٥٣ ـ ٥٧).

(٨) تقويم البلدان (٣٨١).

أما نهر دجلة، فينبع من جبال شهرزور فوق آمِد على حدود إرْمينِيَة، ويمرّ بجبال السلسلة، ثمّ بمدينة آمِد ومدينة مَيَّافارِقِين في ديار بكر من إقليم الجزيرة قبل أن يصل إلى مدينة الموصل.

وقد ذكرنا الجزء الذي يمرّ ببلاد الرّوم والجزيرة فقط من هذا النَّهر، لأنّ هذا ما نحتاج إليه في هذا المكان[1].

وتكثر العيون في بلاد الرّوم، لتساقط الثلوج شتاء، وذوبانها في الربيع والصيف، فترفد العيون والأنهار بهذه المياه.

وعلى كلّ حال، فإنّ المياه متوفرة في جميع أصقاع بلاد الرّوم.

الموارد الاقتصاديّة

١ ـ مجمل الزراعة والصناعة:

بلاد الرّوم عموماً غنيّة في إنتاجها الزراعيّ ومواردها الطبيعيّة، يرويها بضعة أنهر كبيرة وصغيرة، وعيون كثيرة جداً، والأمطار ومياه الثلوج.

وقد ذكر قسم من البلدانيين المسلمين بعض ما يتيسّر في تلك البلاد من موارد اقتصادية ينعم بها سكّانها المحليون، ويصدِّرون ما يفيض منها على حاجاتهم المعيشية.

فالعلايا كثيرة المياه والبساتين[2]، وأنطاكية بداخل البلد وخارجه المياه جارية، ولها بساتين كثيرة من الحمضيّات وأنواع الفواكه[3]. وأنطاكية موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير، تزرع الحنطة والشعير تحت شجر الزيتون، قراها

---

(١) تقويم البلدان (٣٨١).
(٢) معجم البلدان (١/ ٣٥٤).
(٣) تقويم البلدان (٣٨٣).

متّصلة ورياضها مزدهرة ومياهها متفجّرة[1]. ومدينة آقُ شَهْر (أقشار) من أنزه المدن، وبها بساتين كثيرة وفواكه مفضّلة[2]. وأَمَاسِيَة لها بساتين ونهر كبير ونواعير تسقى بهان وهي مشهورة بالحسن وكثرة المياه والكروم والبساتين[3]. وأَذَنَة في مرج وقرىً متدانية جداً وعمارات كثيرة، وهي على نهر سَيْحَان[4]. ومدينة تَوْقات لها بساتين وأشجار وفواكه جيدة. ومنطقة (سِيْواس Sebastia) مشهورة بثياب الصوف التي تحمل منها، وهي ذات هواء بارد يكثر فيها القطن والقمح[5]. وعَمُورِيَّة لها دخل وافر، ولها رحىً تغلّ مالاً[6]. وبها بساتين قليلة، ولها أعين ونهر[7]. أما قَيْسَارِيّة فبلدة كبيرة، ذات أشجار وبساتين وفواكه وعيون تدخل إليها[8]. ومدينة قُونِيَة لها جبل في جنوبيّها، ينزل منها نهر ويدخل إلى المدينة من غربيّها. ولها بساتين من جهة الجبل، ونهرها يسقي بساتينها ثمّ تصير عنه بحيرة ومروج، والفواكه بها كثيرة، وهناك المشمش المعروف بقمر الدِّين[9] الذي يصدّر إلى العراق والجزيرة وبلاد الشّام، وينمو في مزارعها القطن والقمح[10]. ومدينة المَصّيصة على شاطىء نهر جَيْحان، وبها بساتين كثيرة يسقيها هذا النَّهر[11]. ومدينة مَلَطْيَة ذات أشجار وفواكه وأنهار، ويحتف بها جبال كثيرة الجوز، وسائر الثمار مباحة لا مالك لها، ولها نهر صغير

---

(١) تقويم البلدان (٣٨٤).
(٢) معجم البلدان (١/ ١٦٦).
(٣) تقويم البلدان (٣٨٥).
(٤) بلدان الخلافة الشرقية (١٧٩ ـ ١٨٠) نقلاً عن المستوفي.
(٥) معجم البلدان (٣٨٥).
(٦) تقويم البلدان (٣٨١).
(٧) تقويم البلدان (٣٨١).
(٨) تقويم البلدان (٣٨٣).
(٩) بلدان الخلافة الشرقية (١٨١).
(١٠) معجم البلدان (٨/ ٨٠).
(١١) تقويم البلدان (٣٨٥).

عليه بساتين كثيرة[١]، ومياه بلاد الرّوم كثيرة غزيرة[٢]، والأرض التي بين القُسْطَنْطِينِيّة وأنطاكية مأهولة مسكونة لا تنقطع سابلتها من نواحي أنطاكية ورستاقها، وهو رستاق كثير الخير والمير إلى خليج القُسْطَنْطينيَّة[٣]، وما يقال عن إقليم أنطاكية يقال عن سائر أقاليم بلاد الرّوم.

وما ذكر عن خيرات المدن، يشمل أقاليم تلك المدن أيضاً وقراها، فهذه البلاد زراعية بالدرجة الأولى، وأرضها مزروعة أو مروج ومراع للأغنام والماشية والأبقار والخيول والبغال والحمير.

وحاصلات البلاد الزِرَاعيَّة تتلخص في: القمح، والشعير، والعدس، والحِمْص، والباقلاء، والبصل والثوم، والقطن، وأنواع الفواكه، والحمضيات، وأنواع المخضرات، والزيتون، والجوز، واللّوز، والفستق، والبندق، والبلّوط، والكروم.

ويصنع فيها النبيذ، وتربّى بها دودة القزّ[٤]، والأغنام والمواشي، والأبقار، وتصدّر إلى بلاد الشّام والجزيرة والعراق المواشي والأغنام والأبقار والبغال.

أما الصناعة في البلاد، فموجزها هي: أنّ المَصِّيْصَة كانت تعمل بها الفراء التي تُحمل إلى الآفاق، وربما بلغ ثمن الفرو ثلاثين ديناراً[٥]، وكانت سِيْواس مشهورة بثياب الصوف التي تحمل منها، وكانت تجلب السلع إلى طرابزون من القُسْطَنْطينيَّة، وأخصّ هذه السلع: ثياب الكتان اليوناني، وثياب الصوف والديباج، والأكسية الروميّة، وكلّها كان يجلب

---

(١) صورة الأرض (١٨١).
(٢) صورة الأرض (١٨٣).
(٣) الجغرافية العمومية (١٨١).
(٤) تقويم البلدان (٣٨٣).
(٥) بلدان الخلافة الشرقية (١٦٨) نقلاً من: صور الأرض لابن حوقل.

من الخليج أي البسفور[1]، وكان في مَلَقُونِيَة يقطع الرّحى لتلك البلاد من جبل تلك المدينة[2].

٢ ـ الزراعة:

كانت الأرض أسلم أنواع الاستثمار المالي، لأنّ الأرض شيء ثابت، فوضع صاحب رأس المال ماله في الأرض، وكذلك فعلت الدَّولة، لأنّ الأرض أضمن موارد دخلها، وكان الكيان المالي تبعاً لذلك، يستند في الدَّولة البيزنطية على دعامَّة رئيسة هي ضريبة الأرض التي كانت تجبى في كل مكان بشدّة وقسوة وبدون لين أو رحمة.

وكانت ضريبة الأرض تُجمع على شكل جزء من محصول الأرض، لتموين الجيش والموظفين المدنيين، وكان على الولايات أن تقدّم من ضرائبها الجرايات التي لم يكن الإمبراطور على استعداد لشرائها، فكان يَصدر مرسومٌ يسمى: (التفويض الإلهي) تُقدّر فيه نفقات الإمبراطورية، ومقدار ما ينبغي على الفرد دفعه في العام التالي.

وقد قسمت الأرض إلى درجات، روعي في تقسيمها قدرة تربتها على الإنتاج: فهناك الصحراء التي لا يبلّلها القطر فتعجز عن الإنبات، وهناك الأرض التي يمكن استصلاحها، وهناك أرض تغذّيها الأنهر مباشرة أو بالنواعير، وهناك أرض تغمرها المياهُ فيتعذّر النموّ على البذور، وتتوقف درجات الإنتاج الزراعي على هذا التصنيف الواضح للأرض، وكانت الدَّولة تفرض حقوقها على المزارعين بعد أن تصنّف وتُسجِّل هذه الاختلافات في نوعيّة الأرض، وتضع خطاً بيانياً يحدِّد طاقة كل منهم، فمثلاً كانت الوحدة المكوّنة من خمسة أفدنة من الكروم، تساوي عشرين

---

(١) معجم البلدان (٨/ ١٥٢).

(٢) مقتبس من الفصل السادس، بعنوان: ملكيّة الأرض والضرائب، كتاب: الإمبراطورية البيزنطية ـ نورمان بينز تعريف الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زائد ـ ط ٢ ـ القاهرة ـ ١٩٥٧. ص (١٢٩ ـ ١٤٦).

فداناً من الأرض المحروثة، وتساوي خمس وعشرين ومائتي شجرة من الزيتون إذا كانت الأرض تلالاً. وكانت هناك ثلاثة أنواع من الأرض المزروعة، جعلت مساحة الواحدة منها عشرين فداناً وأربعين فداناً وستين فداناً، بالنسبة لإنتاجها الزراعي كل سنة.

وهكذا قُسِّمت الأرض المنتجة إلى وحدات ضرائبية، تُقدّر على الأغلب بناء على شهادة أصحاب الأرض في مُدَدٍ منظمة بين حين وآخر، وكانت هذه الضريبة تُجبى على الأرض المفتوحة.

ومن الواضح أنّ نظاماً كهذا النظام، لم يكن ليُستطاع تطبيقه بنجاح إلاّ إذا احتُفظ بالتعادل بين وحدات الأرض ووحدات العمل التي كانت مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، وكانت المحافظ على هذا التعادل مصدر قلق للمالك والحاكم البيزنطيّ، وكان من نتائج هذا القلق الدائم تصميم الحكومة على ربط الفلاّح الحر (معمِّر الأرض Colonus) بالأرض التي يحرثها.

وعلى ذلك، حين يقرِّر (التفويض الإلهي) حاجة الإمبراطوريّة من المال اللاّزم لإدارتها في السنة المقبلة، توزّع هذه الكمية الضخمة من المال المطلوب على ألوية الإمبراطورية، ويقوم حاكم اللِّواء بتقسيمها بين الولايات التي ينقسم إليها لواؤه، ثمّ يُعهد لحاكم الولاية بتوزيع هذا الحمل بين بلديات الولاية، ويُعهد لأعضاء البلديات تقرير ما تدفعه كلّ من القرى الواقعة في نطاق بلدهم، وأخيراً يقوم موظّفوا القرية بتقدير المبلغ الذي يخصّ كلّ وحدة ضريبيّة في نواحيهم.

وكان هناك ميل قويّ خلال القرن الرابع للميلاد، لاستبدال ما يعادل الضريبة العينية من المال بالضريبة العينيّة، وانتهى الأمر بتعميم قبض الضريبة مالاً لا عيناً، وجُعل ذلك إجبارياً، وأصبح (التفويض الإلهي) يقرِّر الضريبة المالية المعادلة لها في نفس الوقت.

وكان الحاكم المطلق يضع نصب عينيه دائماً أن يهيىء لرعاياه بأيّ

ثمن، الوسيلة لزراعة الأرض وتوفير الأيدي العاملة لها. ولهذا كان رجال الدَّولة البيزنطية ينظرون إلى ما كان يعمد إليه الفلاّحون الأحرار من العمل عند غيرهم بالتعاقد مع مَنْ يعطيهم أكبر أجر ممكن على أنّه خطر اقتصادي، فربطوا الفلاّح بالأرض التي يشتغل عليها. وهكذا أصبحت الطريقة التي يعمر بها الناس الأرض تقوم على أساس تشريعيّ، ذلك أنّ معمّرِ الأرض كان شخصاً متميِّزاً عن العبد. وكان الفلاح عاملاً حرّاً له الحق في أن يجوز أرضاً وأن يمتلكها. إلاّ أنّه أصبح مُجبراً على القيام بواجبه نحو زراعة قطعة معيّنة ثابتة له من أرض الدَّولة، أو الأرض الداخلة في حدود أرض يمتلكها مالك آخر.

ولم يقف الأمر عند إجبار الناس على الاستقرار في قطع معيّنة من الأرض وإلزامهم بزراعتها، بل أُلزمت الجماعة بعد ذلك بضمان هذا الالتزام، وأصبح مفروضاً على هيئة كبراء كلّ بلد الذين كانوا يكوِّنون مجلسها، أن يلتزموا بسداد الضرائب المستحقة على البلد وما يحيط به من القرى في حالة ما إذا هرب أحد الملاّك ولم يخلفه في القيام بالتزاماته أحد. وما دامت المدينة تقرر هذه المسؤولية الإجماعيّة، فقد أصبح من الضروري أن يوضح ضمان لذلك لصالح الخزانة، فكُوِّنت مجالس جديدة لتحمل هذا العبء. وترينا سجلاّت هذا العصر، كيف كان هذا العبء ثقيلاً، فبينما كان الغنيّ يستطيع أن يرشو ليحصل على الإِعفاء، كان الفقير لا يجد مَنْ يعينه حيثما وجّه وجهه، وليس أمامه إلاّ القنوط والاستسلام أو الهرب بجلده. وإذا هجر أرضه فإنّ المال المقدّر عليه يقع على كاهل الباقين في أرضهم. وهدّد الخراب الطبقات المتوسطة، وأخذ القروي والمزارع يبحث عمن يحميه من مطالب الدَّولة، وكان المالك الكبير على استعداد بالقيام بحمايته، فتمكّن بذلك من أن يُحقّق غاية في نفسه، إذ أصبح وليّاً للقرية يدين له أهلها بالولاء، وأخذت هذه العلاقة بينهم وبينه أشكالاً عديدة كان أشيعها أن يتنازل المزارع لذلك المالك الكبير عن أرضه، ويصبح مزارعاً عنده.

وقد تميّز القرنان الخامس والسادس للميلاد بنمو قوّة الملاّك الكبار، وأصبح تاريخ الإمبراطورية من وجهة الزراعة نزاعاً بين الدَّولة وهؤلاء المُلاّك الكبار. وشهد القرن السادس الميلادي جماعات من المواطنين يكوِّنون عصابات مسلّحة. وكانت هذه العصابات تهديداً مباشراً للأمن في الولايات، وكانت خصومات النبلاء الكبار صوراً للرّعب المدلهم، وكانوا بعصاباتهم المنظّمة يتحدّون السلطات المدنيّة، ولكن غزوات الصّقالبة من الشمال، وغزوات الفرس والعرب من الشرق والغرب، استطاعت أن تكسر شوكتهم.

وحين استتبّ النظام ثانية في عهد بيت هِرَقل، كانت هناك فرصة للمالك الصغير، إلاّ أنّ المُلاّك الكبار بذلوا محاولات سلطانهم على المزارعين الصغار.

وبالإمكان التأمل في حياة المزارع القروي البيزنطي، ولكن علينا أن نميّز قبل كل شيء بين القرية الحرة والقرية المملوكة لواحد من كبار الملاّك. كان الفلاحون في كلتا القريتين مرتبطين بالأرض التي يزرعونها، إلاّ أن الأرض في القرية المملوكة للسيد يكون مالكها هو المسؤول أمام الدَّولة عن جميع الضرائب بالنيابة عن عبيده ممّن ليس لهم الحق في امتلاك الأرض، فهي دائماً تحت تصرّف سيِّدهم، وأما الأرض في القرية الحرّة التي يسكنها المعمِّرون، فتخصّ جماعة القرية أو المزارعين أنفسهم وكان هؤلاء أحراراً في امتلاك الأرض أو التصرّف بها. وإذا دخلنا قرية حرّة لرأينا أرضها تشتمل على الكروم والبساتين التي كانت تزرع فيها الخُضَر، وكذلك الأرض المفلوحة والمراعي. وكانت الكروم والبساتين تحاط بخنادق وسياجات شائكة تشدّها الأوتاد، وكانت الماشية تتعرض للأذى إذا اقتحمتها. أما الأرض غير المفلوحة فلم تكن مسوّرة وكانت على الأغلب ملكاً للأفراد يستطيع المزارع أن يتصرّف بها كما يشاء في حدود ملكية جماعته وكانت المراعي تكوّن الأرض غير الصالحة للزراعة،

كالأحراش التي لم تقطع أشجارها والأرض الوعرة، وكانت هذه المراعي تقع في أطراف القرية بعيدة عن مركز الحياة فيها، وكانت على الأغلب ملكاً للجماعة، ثمّ يمتلكها المزارعون قطعة فقطعة، ثمّ تنظف وتُعدّ للزراعة، ثمّ تُقسّم على المزارعين، وبهذا تدخل قِطَع جديدة في ملكيّة الأفراد. وقد تكون الأحراش ملكاً للأفراد، فإذا أراد أحد المزارعين أن يزرع قطعة منها، طلب إلى صاحبها أن يأذن له بزراعتها، ويستطيع بذلك أن يستثمرها ويحتفظ لنفسه بغلّتها ثلاث سنين تعود بعدها لصاحبها، ولكنه إذا زرعها بدون إذن فَقَدَ الحقَّ في المطالبة بمحصولها.

وكان رعاة الماشية يسوقونها في الصباح إلى هذه الأحراش العامّة لترعى، تصحبهم كلابهم القويّة الشرسة، حتى إذا اصطبغ الأفق بحمرة الشّفق عادوا بها إلى حظائرها. وكان كلّ خروف أو ثور يحمل جرساً حول عنقه لئلا يضلّ، وإذا تجرّأ لصّ وقطع الجرس وتسبّب عن ذلك ضلال الحيوان وضياعه، أُلزم بدفع تعويض مقابل تلك الخسارة.

وكانت دعامَة ثروة جماعة القرية هو ما تملك من قطعان الماشية بأنواعها، وكان الراعي يأخذ أجره على عمله، فيعهد إليه المالك الصّغير بثوره الخاص وخروفه فيرعاهما مع القطيع.

فإذا شرد وأحدث ضرراً للأرض المزروعة أو الكروم، لم يَضِعْ على الراعي أجره، ولكن أُلزم تعويض الخسارة. وكانت الحيوانات المفترسة تحوم حول القرية، كالذئاب التي كانت تتربص الخراف والحمير لتفترسها، وإذا هاجمت هذه الوحوش القطيع ليلاً، فالويل كلّ الويل للصّ الذي يتّضح أنّه سرق كلب الحراسة، إذ كان يُلزم بدفع قيمة الخسارة، ليدفع تعويضات عن القطيع كلّه والكلب. وكان يُسمح للماشية بعد حصاد الأرض أن ترعى بقايا الزّرع، إلاّ أنّه لم يكن يُسمح لرجل أن يطلق ماشيته في أرضه إلاّ إذا فرغ كلّ جيرانه من حصادهم.

أما مكانة المزارع، فقد يكون صاحب حصة من الأرض، ويستطيع

في هذه الحالة أن يتصرف بها تصرّفاً مطلقاً في حدود دائرة جماعته. وقد يكون مستأجراً للأرض، وهو في هذه الحالة أحد اثنين: إما مزارع لمزرعة في حالة جيدة، أو مستأجر لأرض لم تكن تزرع على شريطة أن يعيدها لصاحبها بعد أجلٍ معيّن، ففي الحالة الأولى يقوم المالك بتقديم المال الرئيس لإقامة ما يلزم من المنشآت في المزرعة، ولا يؤجّر المزرعة في هذه الحالة إلاّ لمدة قصيرة قد تكون سنةً، فيدفع المزارع للسيّد أجراً باهظاً يبلغ نصف المحصول السّنويّ، وهو ما يقابل في حسابنا أكبر إيجار يمكن دفعه، وعلى المؤجّر في الحالة الثّانية أن يقدِّم رأس المال، أي أنّه في واقع الأمر يقوم بإنشاء مزرعة جديدة، ويكون استئجاره للأرض على هذا إما للأبد أو لعدد كبير من السنين، ويدفع عادة أجراً يساوي عشر المحصول. وربما كان يلزم بمقتضى شروط أخرى أن يؤدي لصاحب الأرض بعض الخدمات، أو أن يؤدي إليه كميّات من المحصول.

وكانت روابط القرابة في الجماعات القرويّة متينة جداً بطبيعتها. وإذا وجدنا فلاّحين مشتركين في ملكيّة أرض فلا بد أن نجد أنّهما متصاهران في نفس الوقت غالباً. فإذا أراد أحدهما أن يبيع نصيبه كلّه كان لقريبه حق الشّفعة إذا دفع ثمناً مساوياً لمّا يدفعه أي غريب عنهما، وحتى إذا لم يكن المتجاورون أقرباء وكانوا شركاء تمتّعوا بحق مشابه.

لكن حق المزارع الحرّ في التصرّف لم يكن يخلو من خطر، فقد كان المالك الكبير دائم السّعي لتوسيع ملكه، فكان من السّهل عليه أن يضطرّ المالك الصغير الحرّ إلى التّخلّي عن أرضه لجاره القويّ. وحاول التّشريع الإصلاحي في القرن العاشر الميلادي أن يحرِّم على المالك الكبير حيازة أرض علاوة على أملاكه الأخرى في حدود أرض القرية، سواء كان ذلك عن طريق الهبة، أم لاعتبار آخر مهم، وسواء أكان ذلك المالك سيِّداً مدنياً أم هيئة كنسيّة، ولكنّ هذا المنع لم يكن ليعيش طويلاً في هيئته هذه، ولهذا عُدِّلت القوانين، وأُخذ بالقاعدة التي تقول بأن انتقال الملكيّة

لا يصحّ إلاّ بين ناس من نفس الطبقة الإجتماعية: الفقير ينقل للفقير، والغنيّ للغنيّ، أي كلّ لمن هو من طبقته في كل حالة. وتداعت القاعدة القانونيّة لنقل الملكيّة نقلاً مطلقاً من كلّ قيد أمام ما كانت السياسة تفرضه على رجال الدَّولة من حماية الضعيف، وظلّ مركز المالك الكبير القويّ بالنسبة للمزارع الصغير الضعيف في الإمبراطورية البيزنطيّة الشرقيَّة وسلامته يعتبران القاعدة التي يجب أن تنحني أمامها سائر النظريات القانونية، وبقي المجتمع مقسّماً إلى طبقات بعضها فوق بعض، وكان ذلك دعامَّة بناء المجتمع في القرن الرابع الميلادي، كما كان دعامته في القرن العاشر الميلادي أيضاً[١].

٣ ـ التجارة والصناعة:

كانت التجارة مع الشّرق تحتلّ المكان الأول من الأهميّة بالنسبة لإيطاليا في عصور الإمبراطورية الأولى، فقد كانت تُستورد من الشّرق أسباب التّرف التي كانت قد أصبحت من ضروريّات الغرب. وكانت التجارة مع الشرق لا تزال تستنزف معظم نشاط تجار الرّوم، بعد أن نقلت العاصمة من رومة إلى القُسْطَنْطينيَّة. وكانت الدَّولة بدورها تبدي اهتماماً بالتجارة، إذ أنّ كنوز الهند والصين التي كانت الدَّولة تغدقها على أمراء القبائل المتبربرة في الغرب، كانت كافية للإبقاء على سيادتها الإمبراطوريّة حتى في النّواحي التي لم تكن جيوشها قادرة على السيطرة عليها.

وكانت هناك ثلاثة طرق يمكن للمنتجات الشرقيَّة أن تصل عن سبيلها من المشرق الأقصى إلى الشرق الرومي: كان أقصرها يعبر واحات بلاد الصُّغْد (سَمَرْقَنْد وبُخَارى) مخترقاً فارس، ومن ثم إلى حدود الإمبراطورية البيزنطية. والثّاني يخترق المحيط الهندي إلى البحر الأحمر،

---

(١) الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ـ الدكتور أسد رستم ـ ص (٩٦/٢ ـ ٩٧) ـ بيروت ـ ١٩٥٦.

والثالث وهو طريق أكثر صعوبة، يمتد من وسط آسيا إلى بحر الخزر، ومن ثم إلى البحر الأسود بعيداً عن دولة فارس. وقد ازداد الإقبال على الحرير بصورة مضطردة مع زيادة أسباب التّرف، وأصبح ارتداء الثياب الحريرية المصنوعة من الحرير الخالص في هذا العصر مألوفاً في الحياة البيتيّة، وأخذت الكنيسة أيضاً ترحب بهدايا من هذه المادَّة الثمينة للألبسة الكهنوتيّة والسُّتر والأغطية، ولتزيين المذابح ـ بعد أن كانت أوّل الأمر ترفض استخدام الحرير للأغراض الدِّينية، بينما احتكرت الدَّولة صنع أشكال معيّنة من ثياب الحرير كانت تُلبس في مراسم البلاط. وكانت الدَّولة على كل حال تعتمد على القوافل التي تقطع فارس في إمدادها بهذه المادَّة الجديدة. وقد لحق بتجارة الرّوم ضرر من جرّاء عرقلة المواصلات ورفع ثمن المادَّة الحريرية الخام، وكنتيجة لتحميل البضائع المستوردة ضرائب كمركيّة باهظة قبل أن تجتاز الحدود إلى بلاد الرّوم، وبسبب الحروب البيزنطية الفارسية.

وفي القرن الخامس الميلادي، أخذت الدَّولة تتدخّل في التجارة، فقصرت السّماح بشراء الحرير على ولاة الدَّولة في الحدود، لكي لا يكون لها منافس، ومن ثمّ يباع إلى الأفراد بالسعر الجاري بعدئذ.

وجلبت شرانق دود القز إلى بلاد الرّوم في أواسط القرن السادس الميلادي، وبدأت أشجار التوت تزرع وأخذت الإمبراطورية البيزنطية تنتج ما يلزمها من الحرير، وظلّت الدَّولة تحافظ على احتكارها لصناعة الحرير باهتمام، وتستخدم ألوف العمال في ذلك.

وفي خلال النصف الأخير من القرن السادس الميلادي فتح طريق التجارة الشمالي بعد انقطاعه، وكانت موانىء القرم تتاجر مع الهون وجنوب روسيا، فتجلب الجواهر وتحف الصناعة الروميّة الفاخرة وتستبدل بها الجلود والعبيد من الشمال، بينما كان أهل قبائل القوقاز يبيعون الجلد والفرو للحصول على القمح والملح والخمر.

وكان طريق التجارة الجنوبي أهم من ذلك بكثير، حيث تمرّ التجارة الهندية والصينية والحبشية بالبحر الأحمر، وكانت سيلان أهم مركز تجاري في حينه، يلتقي على أرضها تجار الشرقين الأقصى والأدنى وتجار الهند والحبشة والصين. كما كان للرّوم تجارة مع الرّوس، واستطاع الروس دخول القُسطنطينية على شريطة أن يكون دخولهم من بوابة واحدة غير مسلّحين، وألاّ يدخل أكثر من خمسين منهم في المرّة الواحدة، وهناك كانوا يستطيعون قضاء الصيف على ألاّ يطول مكثهم عن ذلك. وكانت الحكومة البيزنطية تهيِّىء المسكن والطعام والحمَّامات للتجار الروس طول مدة زيارتهم دون مقابل، وكانت تختصّ رسلَ أمير (كييف) الروسية التجاريين بمنح خاصة، فلم تكن تحصل من التجار الروس على ضرائب كمركيّة. وكانت التجارة جميعها تقريباً تجري عى أساس المقايضة، فكان الفراء الروسيّ والشمع والعبيد تقايض بالخمور اليونانية والفواكه والأقمشة الحريريّة. وكانت الدَّولة البيزنطية تجهِّز التجّار عند رجوعهم بالمؤن اللازمة لهم أثناء رحلتهم، كما كانت تمنحهم أدوات لسفنهم كالمراسي والحبال الضخمة والصغيرة والأشرعة، ممَّا كانوا بحاجة إليها لإصلاح سفنهم وإدامتها.

وفي القرن العاشر الميلادي، أصدرت الدَّولة البيزنطية مجموعة القوانين لنقابات القُسْطَنْطينيَّة التجارية. وأبرز مواد تلك القوانين، تلك التي تنص على منح الحماية للمستهلك والمنتج على السّواء، فكانت الدَّولة تحرِّم على التجّار جَمْع البضائع من السوق بقصد رفع الثمن والانتفاع من ذلك، وكذلك كان من المحرّم شراء البضائع جملة والكسب من وراء بيعها تفاريق، فكان يجب ـ في حدود الإمكان ـ أن يُشرى كلّ شيء ويباع دون تدخّل الوسطاء. ووضعت مادَّة تحفظ للعامل أجره الذي يستحقه، وتكبح جشع الرأسماليين، وتمنع احتكار أقلية غنيّة لصناعة ما. وكان المشتغلون بكلّ حرفة من الحرف يجتمعون في نقابة خاصة بهم، وكان الجمع بين عضوية نقابتين في وقت واحد محرّماً. وفي الحالات التي

تمسّ مصلحة الدَّولة، كحالة التموين مثلاً، نجد أنّ القواعد التي كان أعضاء النقابة الخاصّة بذلك الموضوع خاضعين لها مفصّلة تفصيلاً خاصاً، فكانت الحكومة تقرّر الثمن الذي تشترى به المواد الخام وسعر بيع المأكولات، ويظهر أنّه كان في استطاعة الدَّولة أن تطلب بعض الخدمات من النقابات دون مقابل، وربما كان هذا لتقليد يوناني قديم، كانت الدَّولة تفرض بموجبه على مواطنيها الأغنياء أن يتطوّعوا للقيام بخدمات لها. وربما كان تعيين رؤساء النقابات يتوقف في كلّ حالة على موافقة محافظ المدينة، بينما كانت الدَّولة تشترط لكي تسهل عليها مراقبة كل المبيعات أن تكون العمليَّات علنية، وكان من المحتّم أن تتمّ هذه العمليَّات في أماكن معيّنة محدّدة لكلٍّ حرفة. وكان للنقابة وحدها أن تشتري المواد ثمّ توزعها على أعضائها، وكانت تلك الصفقات التي يقوم بها موظّفو النقابات لا تتمّ إلاّ في مواضع معيّنة. وكان انتهاك حرمة هذه النظم يعرّض مرتكبها للعقاب بالفصل من النقابة ومصادرة أملاكه، أو بتغريمه مالاً، أو بجلده وقصّ شعر رأسه ولحيته، وإذا كانت الحالة أكثر خطورة يُنفى أو تقطع يده. وكان على التجار الأجانب حال وصولهم العاصمة، أن يخطروا السلطات الحكومية، ولم يكن باستطاعتهم أن يمكثوا في العاصمة أكثر من ثلاثة أشهر إلاّ بموجب اتِّفاقٍ خاص. وإذا انتهت هذه المدّة دون أن يبيعوا بضائعهم، قامت الدَّولة بوضع التَّرتيبات لبيعها. وكان كل ما يشترونه من البلدة نفسها خاضعاً لرقابة دقيقة، ولم يكن يُسمح لهم أن يحملوا معهم شيئاً من الأمتعة التي كان تصديرها محرّماً كالمواد الحريرية المتميّزة. وكانت الحكومة تكشف عن كل البضائع كشفاً دقيقاً، فإذا أبيح بعدئذٍ تصدير بضاعة ما طبعت بخاتم الدَّولة.

غير أن التجارة البيزنطية اضمحلّت في القرنين الحادي عشر والثَّاني عشر للميلاد، لأنّ الدَّولة اضطرّت إلى أن تمنح مدينة البندقيّة امتيازات شديدة الخطر، في مقابل الحصول على معاونتها، وذلك بعد أن أخفقت في الاحتفاظ بأسلوبها. ولا شك في أن هناك أسباباً عِدَّة لاضمحلال

التجارة البيزنطية، وحسبنا أن نذكر سبباً يظهر أنّه قد لعب دوراً مهماً، وهو: لم يكن أغنياء الرّوم على استعداد لأن يجازفوا برؤوس أموالهم في تجارة تذهب إلى ما وراء البحار، بل كانوا يفضّلون استثمار أموالهم في الأرض، لأن الأخطار البحريّة كانت في الواقع عظيمة: أخطار شبوب النار في السفن، كما كان هناك ناس كثيرون يتربّصون بالسّفن على الشواطىء لإغراقها، وكانت هناك أخطار لصوص البر وقرصان البحر. وكانت السّفن تتعرّض لمّا يسمى بالقصاص، وذلك أن دولة من الدول تمنح لرعاياها الذين أنزل بهم حيف من دولة أخرى الحق في أن ينتقموا لنفسهم بمهاجمة كل سفينة تابعة للدولة التي اعتدى أهلها على رعاياها. وهناك خطر الوقوع في يد القرصان المسيحيين. الذين يكسبون عن هذا الطريق المال الذي يعينهم على الخروج للحج إلى بيت المقدس.

ومن هنا كانت السفن تسير جماعات في قوافل لتتبادل المساعدة، وكانت تحمل رجالاً مسلّحين للدفاع عنها.

لهذا لم يكن أغنياء الرّوم مستعدين للمجازفة بأموالهم في مخاطر التجارة البحرية، فكانوا يستثمرون أموالهم في شراء الأرض وتثميرها، فاضمحلت تجارة الرّوم، وتفوّقت عليها تجارة البندقية فواقاً بعيداً[١].

وأما خلال القرنين التاسع والعاشر للميلاد، فكان الصانع منهمكاً في أشغاله ميسوراً، فدولة الرّوم لم تعرف عهداً في تاريخها زهت فيه الصناعة والتجارة زهوهما في هذين القرنين ولم تكن القُسْطَنْطينيَّة في أي وقت من أوقاتها أكثر نتاجاً وأوفر ربحاً، وأصبحت بوفرة مالها وحذق صنّاعها أمّ المال والذهب والفنّ والعجائب للعالم أجمع، وقصدها أمهر الصنّاع وأطمع التجار من سواحل البلطيق حتى الأسود والأدرياتيكي، ومن إِرْمِينِيَة والقوقاز حتى إسبانيا والبرتغال، وتمنى بذخها وثروتها أمراء الإقطاع شرقاً وغرباً.

---

(١) الآيات الكريمة من سورة الروم (٣٠: ١ ـ ٣).

فعلاوة على البقالين واللّحامين والخبازين والبنائين والنحاتين والرخامين والنجارين والحدادين والخياطين والرسامين، كان هناك طبقة من التجار والصناع يعنون بنسج الحرير وصبغه وتزيينه بالرسوم وبالفضة والذهب، وهؤلاء أدهشوا العالم بدقّة صنعهم ومهارتهم فجمعوا أموالاً طائلة، وجعلوا من القُسْطَنْطينيَّة قبلة أنظار أهل البذخ والترف في الشرق والغرب معاً. كما أن صناعة الروائح العطريّة لم تقلّ شأناً عن صناعة الحرير.

وشجّعت الحكومة هذه الصناعات وأخفت أسرارها، ونظّمت أمورها، ثمّ حمت هذه الصناعات من مزاحمة الأجانب، فحدّدت الاستيراد أو منعته[1].

لقد كانت تجارة الرّوم وصناعتهم في تقدّم تدريجي حتى نهاية القرن العاشر الميلادي، حيث بلغت أوج تقدّمها، ثم اضمحلت بعد ذلك خلال القرنين الحادي عشر والثّاني عشر للميلاد، فتأخّرت وتقدّم عليها غيرها من الأمم، كما ذكرنا ذلك.

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (٣٢٩) - محمود فؤاد عبد الباقي - القاهرة - ١٣٧٨ هـ.

تاريخ بلاد الرّوم قبل الفتح الإسلاميّ وفي أيامه الأولى

١ - مولد الإمبراطورية البيزنطية:

الرّوم عند العرب قبل الإسلام وبعده هم الرومان وخلفاؤهم البيزنطيون، والبيزنطيون عند أنفسهم روم، أي رومان. وعاصمتهم: (رومة الجديدة) أي القُسْطَنْطينيَّة، ولا يزال الرّوم الأرثوذكس يدعون القُسْطَنْطينيَّة مركز البطريرك المسكون حتى يومنا هذا: (رومة الجديدة).

واللّفظ: روم في نقوش الصفا اسم بلاد واسم شعب، وورد اسم الرّوم في القرآن الكريم في ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾[١] في آية واحدة، مرة واحدة فقط، وحملت السّورة التي جاءت فيها الآية الكريمة اسم: سورة الرّوم، وهي من السور المكيّة[٢].

وكانت رومة عاصمة الرّوم الأولى، ولكنها تقهقرت لأسباب كثيرة نذكر أهمها بإيجاز شديد.

فقد كان من جرّاء التوسع العسكري الروماني، أن تعاظم كسب الجيش وضبّاطه وحكّام الولايات وكبار الموظفين، فعادوا إلى أوطانهم

---

(١) الروم (٩ - ٣٣)، حول التفاصيل.

(٢) الروم (٥١ - ٦٤)، حول التفاصيل.

متمتِّعين بجميع ضروب التنعّم والتّرف، مشبّعين بغطرسة مَنْ ذاق لذّة السلطة المطلقة، بعيداً عن وازع الشّريعة الرومانيّة وقيود النّظم الجمهوريّة.

وتهافت الأمراء والكبراء على اقتناء المزارع الواسعة المترامية الأطراف، وحشروا فيها ما ملكوا من أرقاء ولم يَقْوَ المزارع الصغير على مزاحمة جاره المزارع الكبير، فضمّ أرضه الصغيرة إلى أرض جاره الكبيرة، وربط نفسه بتلك الأرض إلى الأبد. ومع هذا النظام الإقطاعي لم يجعل من المزارع الصغير الذي لا أرض له رقيقاً للكبير فقط، فإنّه أيضاً فَقَدَ حريّته في أن يذهب حيث يشاء. وكانت حياة الرّقيق في هذه المزارع الكبيرة شاقة تعسة. فكان يكوى بمياسم ليبقى الوسم علامة يُعرف بها عند الفرار، فنفر الرقيق من صحبة سيده، وانقبضت نفسه عن العمل له بإخلاص وأمانة. وتضاءلت على الأيام حقول القمح وبساتين الزيتون وكروم العنب، وبار قسم من المزارع وتُرِك لينبت فيه العشب والدّغل. واعتمدت رومة على قمح مصر وحبوبها لتغذية أبنائها وأبناء المدن الإيطالية الأخرى، وقلّت الأيدي العاملة لهجرة الفلاحين إلى المدن، فبارت الأرض لهذا السبب أيضاً، وضعف الإنتاج الزراعي.

وكان هناك عداء مزمن بين الفقراء الأغنياء، فثار الأرقاء أكثر من مرة على سادتهم، ونفر المزارعون الصغار في إيطاليا وغيرها وأحرقوا المزارع الكبيرة التي أنشأها كبار الملاّكين. بيد أن الأرقاء لم يوحدوا صفوفهم، ولم يكن لديهم في وقت من الأوقات برنامج سياسي معيّن يسعون لتحقيقه، وجلّ ما بلغوا إليه أنهم كرهوا أسيادهم وثاروا في وجوههم وتمنّوا زوال نعمتهم، وذلك بعمليّات فردية في غالب الأحيان.

وأدّى توسع رومة في الشمال والجنوب والشرق والغرب، إلى توسّع مماثل في أفق أبنائها العاملين في مجال الصناعة والتجارة، فخرجوا من إيطالية إلى الولايات الجديدة يوظفون أموالهم فيها، وقام من أبناء هذه الولاية نفسها ولاسيما الشرقيَّة منها مَنْ شاطر هؤلاء عملهم وإنتاجهم،

فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة في الولايات. ومع الزّمن فقدت إيطالية سيادتها الاقتصادية التي كسبتها في حروب التوسّع المتتالية، وقلّ إنتاجها الصناعي وتدنّى، فأصبح في أوائل القرن الثالث الميلادي قليلاً، فقل الدخل عموماً وقلّ دخل الدَّولة، لتأخر الصناعة والتجارة وانحسر دخلها ومواردها ووارداتها.

وكانت خدمة العسكريَّة في أوائل عهد رومة محصورة في المواطنين الرومانيين، ولما جاء يوليوس قيصر منح حقوق المواطن الروماني بعض وجوه الولايات وأعيانها. وقضت ظروف الحرب والاستيلاء والتوسع بتكبير الجيش، فجنّدت رومة أبناء الولايات في وحدات مساعدة، ثم تساهلت رومة مع كل مَنْ لمست فيه استعداداً لتفهمهما والامتزاج بأبنائها ومنحته هذا الحق الكبير. وفي سنة (٢١٢ م) أبيح هذا الحق لجميع سكّان الإمبراطورية، فأصبح الجيش مؤلفاً من جميع عناصر حوض البحر الأبيض المتوسط، ممَّا أدّى إلى انحطاط الجيش الذي أصبح ضخماً في كميّته هزيلاً في كيفيته.

كما أن التوسّع العسكري الكبير أدّى إلى تغيير آخر في الجيش، فالحدود الشاسعة الطويلة، والأعمال الحربية المتتابعة، قضت بتطويل مدّة الخدمة العسكريَّة. والانحطاط الاقتصادي واضطر الحكومة الرومانية إلى أن تُقطع جنود الحدود أرضاً يحرثونها، وأن تجيز لهم أن يتأهّلوا ويقيموا في أكواخهم قرب الحدود، فقضى الجنود بحياتهم بأكملها في خدمة الجيش، وأصبحوا طائفة عسكريَّة تعيش لنفسها لا جيشاً من الشّعب يقوم بخدمة الدَّولة.

كما عجّل كثيراً في انحطاط الجيش أنّ الجند أصبحوا يختارون مَنْ يرضون عنه ليصبح إمبراطوراً، ويعزلون مَنْ لا يرضون عنه ويعيّنوا مكانه غيره، كما أمسى الإمبراطور نفسه قليل المهيبة والاحترام، وهذا أدّى إلى إنهيار الضّبط والرّبط في الجيش، ولا قيمة لجيش لا يتحلى بالضبط العالي والرّبط المتين.

وكان الإمبراطور في بدء الأمر وجيهاً رومانياً كبيراً خُوِّل سلطة عسكريّة واسعة في ظروف حربيّة قاهرة، وكانت هذه السّلطة أو القيادة تنتهي بانتهاء الحرب. ثم جاءت الإمبراطوريّة بطولها وعرضها وتعدّدت مشاكلها، فوكلت رومة القيادة إلى رجل واحد طوال عمره. وبقيت سيادة الدَّولة الرومانية تظلُّ هذا الإمبراطور الفرد ومنها يستمد سلطته، وبقي هو ممثل الجمهورية الأوحد، واستحقّ لقب: (أوغوسطس) أي قديس لأنّه كان في نظر الرومانيين رمز آلهة رومة الحيّ. وانحصرت السلطة التشريعية بيد مجلس الشيوخ، وكذلك إدارة الدَّولة وفرض الضرائب وجبايتها، ولما كانت القوّة العسكريّة بيد الإمبراطور، كان من الطبيعي جداً أن يتطاول على حقوق مجلس الشيوخ في نطاق سلطته، وأن تتدرّج الدَّولة الرومانية الجمهورية في سُلّم الملكيّة.

وتبين أن الجيش بعد أن انفصل عن الشعب الروماني وأصبح خليطاً من كل مَنْ هَبَ ودبَ، بقي يمارس سلطة هائلة في انتقاء الإمبراطور بالمشاركة مع مجلس الشيوخ، ولكن هذه السلطة أصبحت غاشمة بعد انحطاط الجيش.

وتساقط الأباطرة واحداً بعد آخر قتلاً بأيدي جنودهم أو بأيدي جنود أعدائهم، وتكاثرت الحروب على الرّوم، وتصاعدت الأفكار الفلسفية التي فرّقت الشعب دون جدوى.

وظهرت المسيحيّة، فعانت ما عانت من اضطهاد الرّوم، ويشير المؤرخون عادة إلى عشرة اضطهادات بين سنة أربع وستين للميلاد إلى سنة ثلاث عشر وثلاثمائة الميلادية[1]، حيث كانت سنة البراءة التي تنفّس فيها المسيحيون الصعداء.

فقد تنصّر قسطنطين الكبير (٢٨٠ ـ ٣٢٧ م) سنة (٣١٢ م)، فظهرت

---

(١) انظر التفاصيل في كتاب: الإمبراطورية البيزنطية (١٦ ـ ٣٩).

رسوم مسيحية على مسكوكاته، وجعل شارة الصليب على رايته، واهتمّ بالنصارى واعتنى بهم، وحرّم التبشير باليهوديّة والدعاية لها سنة (٣١٥ م)، وأصبح حبر الأمة الأعظم يرعى جميع الأديان وبخاصة المسيحية، ولكنه لا يُكره أحداً على أن يذهب مذهبه، ولكلّ من رعاياه أن يتبع الرأي الذي يراه.

وقضت ظروف قسطنطين السياسية والعسكريَّة ببقائه في الشرق أكثر من الغرب، فعزم على إنشاء عاصمة في الشرق تسهل الدِّفاع عن الولايات الغربيَّة والشرقيَّة، ووقع اختياره على بيزنطة. ولا نعلم بالضبط متى خطط قسطنطين عاصمته الجديدة، ولكننا نعلم أنّ تدشينها جرى في الحادي عشر من أيار سنة (٣٣٠ م)، وسمّاها: رومة الجيدة، ولكن الشعب أطلق عليها اسم: القُسْطَنْطينيَّة[1].

٢ ـ الحياة الإجتماعية:

كانت الهوايات والنزعات في الإمبراطورية البيزنطية الشرقيَّة دينيّة، وكانت الأمور من سياسية واجتماعيّة تلبس ثوباً دينيّاً.

لقد كان البيزنطي يعيش في عالم تملأه وتسيطر عليه القوى الخفيّة، فكانت عطلاته أعياداً دينيَّة، وألعابه في الملعب تُستهلّ بالتراتيل الدِّينيّة، وعقوده التجاريّة توسم عليها علامة الصليب أو تحتوي على ابتهال للثالوث المقدّس. وإذا أراد أن يستخير اللّه لم يفعل ذلك إلاّ عن طريق النُسّاك أو عن طريق الرُّؤى التي يتمثّل فيها القديسون الأموات. وكان يتخذ من التمائم المقدّسة تعاويذ له، ويرى في الغبار المحتوي على قطرة عرق انحدرت من جسم قديس من الذين ماتوا على الأعمدة انجع دواء عنده.

---

(١) كان تتويج الأباطرة منذ القرن السابع يجري في الكنيسة الكبرى، ويحضره أعضاء مجلس الشيوخ وممثلون عن الجيش والشعب الذي كان يهتف للإمبراطور داخل الكنيسة وخارجها، وكان التتويج قبل القرن السابع في ميدان السباق خارج المدينة.

وكانت حروبه صليبية مقدسة وإمبراطوره خليفة للّه في أرضه، وكل حادثة مروِّعة في الطبيعة فهي إما نذير أو بشير ليثنيه أو يُحفِّزه.

وكانت النتيجة لهذه النظرة أن أصبح العِلْم متّهماً، فقد وجد أحد أطباء العاصمة أنّ نسبة الوفيات عالية في الطبقة العاملة الذين يعيشون في مساكن تحت الأرض، وكان ذلك في طاعون القرن الرابع الميلادي، فأعلن للملأ أنّ ذلك سببه قلّة الهواء النقيّ، فاتّهم الطبيب بالكفر. ولما أصيب بالمرض وقضى نحبه، انتصر رجال الدِّين المسيحي، واعتقد الناس أنّ موته كان عقاباً له على زندقته.

والحق أنّ البيزنطي تحوّل بالسليقة إلى القديس بعد أن عاين عجز الطبيب، وبعد أن كان الناس ينامون في الهياكل الوثنية ليبرؤوا من أسقامهم، أخذ المسيحي حينئذٍ يتردّد إلى الكنيسة أو إلى مقام أحد الشهداء، وتولى الملاك ميكائيل مهمّة شفاء الناس التي كان يتولاّها الإلٰه القديم في المعبد، وأخذ القديس المسيحي يحل محلّ الإلٰه الوثني الذي كان يدرأ الأذى عن المدينة.

وهذا الشعور المستمر بوجود القوى الخفيّة، هو الإطار الذي كان يعيش فيه الإنسان البيزنطي، ذلك أنّ ميله إلى اللاهوت كان يظهر في كبار الأمور وصغارها، وكان العالَم المحجوب عن الأبصار يدور معه في الآجلة والعاجلة.

ولم يكن ساكن العاصمة يعيش في جوّ دينّي حسب، ولكنّه كان يعيش في جوٍّ خطر، ولا شك في أنّ أعصابه كانت في بعض القرون تحيا في توتّر مستمر، لأنّ مدينته كانت تقاسي حصاراً بعد حصار. وممّا لا جدال فيه أنّ الإمبراطورية الرومانية في الغرب سقطت لأن أعداءها فاقوا جيشها عَدَداً، ولو تيسّر للمدافعين يومئذ البارود والمدفع لباءت هجمات أعدائهم بالإخفاق والزوال، والسلاح كان يكفي ليسدّ العجز العدديّ عند الرومان. وكانت أسوار القُسْطَنْطينيَّة تمثل في الشرق بمعنى من المعاني

المدفع والبارود اللذين حُرمتهما الإمبراطورية الغربيَّة، فآل أمرها إلى الزوال ولكن لا بد للأسوار من رجال، وإذا كان المدافعون عنها فئة قليلة، فلا بد من أن تلعب الخدعة الحيلة والخيانة الصراح ـ إذا دعت الحاجة إليها ـ دَوْرها بالنيابة عنهم. وهكذا مال الخلق البيزنطي إلى ألوان من الدّهاء لا تعرف المبادىء ولا حدود الأخلاق، تلك الخصال التي نستطيع أن نلمسها حتى في الشخصيات والناس عامَّة. ونستطيع أن نقرّر من غير حَرَج أنّ النَّفْعِيَّة الذاتيّة التي انغرست في النفوس دون شك كانت شائعة في الرّوم الشرقيين رفيعهم ووضيعهم.

ذلك أن التوتّر الدائم له ردّ فعل، هو الإفراط في التّراخي.

ومن العبث أن ننكر أنّ العنف والوحشية والجور ـ وهي خصال كانت متأصلة في نفوس البيزنطي ـ كانت تلعب دوراً كبيراً، فقد كان جمهور العاصمة ينظر باستخفاف إلى قيم الحياة البشريَّة نتيجة لسخطه على السّاسة الذين أبغضهم بغضاً مريراً، ونتيجة للسهولة التي كان التحريق والقتل يقترفان بها أمام أعينهم كلّما وقع شغب وهياج. وزادت الحكومة سوءاً، فضربت للناس أسوأ المثل في هذه الناحية، بما كانت تطبِّقه من معاقبة المجرمين بتوقيع عقوبات تقوم على قطع الجوارح، كقطع الأيدي، وجدع الأنوف، وسمل الأعين.

وعلى الرغم من الخطر المحدق بالعاصمة دوماً كان البيزنطي يتطلب لنفسه تسلية ومرحاً، وكانت مراكز الحياة الثلاثة في العاصمة هي: القصر، وميدان السباق، والكنيسة. فإذا أغلقت الحمَّامات وأقفلت أبواب ميدان السباق، فقدت الحياة عند البيزنطي بهجتها، وأصبحت تافهة ضحلة لا غناء فيها.

وكان المتسابقون يعيشون في عالم تسوده الخرافات الوثنية، حتى لقد كانوا يحاولون بالتعاويذ السحريّة والتمائم أن يقيّدوا منافسيهم برُقيّ حتى يفوزوا دونهم، وكثيراً ما كان السائقون يُفتِّشون قبل بدء السباق حتى

لا تكون معهم الخرزة السحرية التي تكفل لهم الفوز دون استحقاق، مع كثير من الشعوذات الأخرى.

وكان ميدان السباق مكاناً تعرض فيه الانتصارات الإمبراطورية، حيث كان الأباطرة يضعون الحذاء الأرجوانيّ ـ رمز السيادة ـ على رؤوس المنافسين المقهورين أو الأعداء المغلوبين. كما كان أيضاً محكمة جنايات، يتّخذ فيها القضاة مجالسهم بانتظام. حتى إنّ الإمبراطور إذا اقتنع بارتكاب أحد الحكّام جريمة من الجرائم، قضى على المجرم أن يُحرق حيّاً على مرأى من الرعيّة. وكذلك كان الملعب مسرحاً لتلك المواكب التي اعتاد الناس أن يروا فيها رجلاً من رجال البلاط أو رجال الدِّين المغضوب عليهم، يُسار به بين صفوف الشعب الساخر، وربما أُركب حماراً وجُعل وجهه إلى ذيله. كذلك كان الملعب متحفاً فيه روائع فنّ النحت القديم، حيث كان رجال الكهنوت في الكنيسة المسيحية، وقد رضوا عمّا يجري في الملعب بعد أن كانوا يهاجمونه بعنف، يتأمّلون الآلهة الوثنية التي حلّت المسيحية محلّها. . . لقد كان الملعب مرآة للعالم البيزنطي.

وكان للرجل البيزنطي بطلان هما: الفائز في سباق العربات، والقدِّيس المتقشِّف. أما الأول، فكان تُنصب الصور والتماثيل إجلالاً له في كل مكان، وكان سائق عجلة السباق يمنح امتيازات خاصة، فكان في نجوة من كل عقاب بدنيّ، وإليه كان رجال الأدب يرفعون أحسن مقطوعاتهم.

أما المتقشِّف الزاهد، فكان الحجّاج يأتون إليه من كلّ صوب، يحدوهم شوق لاهف ليروا القديس على عموده، وينالوا بركته، وليحملوا معهم تمثالاً صغيراً من تماثيل الرجل الطاهر، التي كانت تصنع لتباع بالجملة لكلّ مَن يطلبها من الأتقياء. وهذا التمثال مع القنديل المعلّق به، كان يحمي دكّان المتبرِّك وبيته من كل أذى، ويعطيه ثقة جديدة وشعوراً متجدِّداً بالاطمئنان وسط أخطار الحياة.

وكان هناك وحدة في الأسرة وإخلاص متبادل بين أفرادها. والمرأة ربّة البيت، ولها نفوذها الملموس في مجال عملها على زوجها وأطفالها. وكانت البنت تتزوج في سنّ مبكرة، وكان اختيار الزّوج ممّا تُعنى به الأسرة، وقلّما كانت البنت ترى زوجها قبل الزواج. على أنّ المرأة البيزنطية لم تكن سجينة بيتها على أيّة حال، على الرّغم من أنّ الحرائر المحصنات لم يكنّ يَرْتَدْنَ دور التمثيل. وكانت نظرية الرّوم عن السيادة لا ترى غضاضة في زواج الأمير بامرأة لا يجري في عروقها دمُ الملوك. بلا كثيراً ما كان النّسل الإمبراطوري يتقوّى باختيار عروس من الطبقات المتوسطة، حتى كان الإمبراطور أحياناً ينتخب شريكة حياته من بين سرب العذارى الجميلات اللّواتي انْتُقين من الولايات لتلك الغاية[1].

٣ ـ السيادة البيزنطية:

جمعت سلطة النّافذة داخل حدود الإمبراطورية البيزنطية في شخص الإمبراطور، فكان هو مصدرها الأوحد. ولكن ظلّ حق الإمبراطور في العرش يخضع للانتخاب طيلة تاريخ الإمبراطورية، فكان مجلس الشيوخ والجيش ينتخبان الحاكم: الجيش يمارس حقوقه الوراثية في تنصيب الملوك، والشعب يؤيّد ذلك، فكان باستطاعة مجلس الشيوخ أو الجيش، أن يتقدّم أحدهما فيعيّن مرشحاً، ثم يزكيه الطرف الآخر. أي أنّ انتخاب الإمبراطور كان يمرّ بالأدوار التالية:

١ ـ ينادي مجلس الشيوخ أو الجيش بوضع المرشّح في وضع دستوري يجعله في مكان الإمبراطور المنتظر، على أن يكون من الجائز بعدئذٍ تثبيت ذلك أو إلغاؤه.

٢ ـ أن يوافق الطرف الآخر على ذلك، لأنه يملك الحق ذاته في الترشيح.

---

(١) أي الباسيليوس Basileus.

٣ ـ التصديق على هذا الاختيار حين يهتف الشعب الروماني الذي يجتمع عادة في ميدان السباق[(١)].

٤ ـ تتويجه بالتّاج على يد البطريرك الأعلى قائماً بتمثيل المنتخبين لا الكنيسة... وقد جرت العادة بذلك وإن لم يكن شرطاً أساسياً.

تلك هي الإجراءات التي ينصّ عليها التقليد الدستوري في منح السلطان لأحد من الناس، لكنها لا تكفل له سوى لقب بشريّ. بيد أن عرش الإمبراطور كان يقوم على أسس أكثر رسوخاً، فالإمبراطور صفيّ الإلٰه، وقد وقع عليه الاختيار منذ ولادته لتحقيق إرادة السماء، وإذاً فالمرشح الناجح هو بالضرورة مَنْ اختارته مشيئة اللّه، بغض النّظر عن الطريقة التي اكتسب بها هذا النّصر، فنجاحه هو المسوّغ الوحيد، وهذا النجاح يطمس صفحة ماضية، وهو الأساس الذي يُلزم النّاس بطاعته.

وإذاً فمن الواضح أنّ الإمبراطور ملك كاهن، ومنصبه كهانة ملكية، وما الإمبراطور إلاّ أحد رجال الدِّين، فهو يستطيع أن يدخل المعبد المقدس، ويقترب من المذبح حيث لا يُسمح لأحد من العلمانيين (غير رجال الدِّين) بالمرور. وفي استطاعته أن يُقبِّل ستار المذبح، وأن يتناول بيده الخبز المقدّس. وعهدت له العناية الإلٰهية ـ كما عهدت لبطرس من قبل ـ في رعاية أتباع السيد المسيح، ولكن يظهر هذا الجانب من كهانة الإمبراطور بوضوح أكثر، أُضيف منذ القرن التاسع الميلادي ـ على ما يُظن ـ عمل آخر رمزي في حفل التتويج، ألاّ وهو أن يقوم البطريرك بمسح الإمبراطور بالزيت المقدّس، ولم يكن يعبِّر عن إرادة الدَّولة، بل عن المشيئة الإلهيّة.

غير أن النظرية (الإلٰهيّة) في أصل الملكية كانت تحمل في طياتها نتيجة أبعد مدى، فمصدر الرفعة هو اللّه يعزّ مَنْ يشاء ويذلّ مَنْ يشاء، وإذاً

---

(١) انظر التفاصيل في كتاب: الإمبراطورية البيزنطية (٧٣ ـ ٩٤).

فالعرش الإمبراطوري مباح للجميع، فلاحهم ونبيلهم، جاهلهم وعالمهم، على السّواء، غير أنّه اشتُرط في الإمبراطور أن يكون مسيحياً، وأضيف بعد ذلك أن يكون مسيحياً أرثوذكسيّاً، وفيما عدا ذلك يمكن لأي واحد من الناس أن يقع عليه اختيار اللّٰه عظيماً كان أم حقيراً، غنيّاً أم فقيراً.

بيد أنّه لم يكن هناك من سبيل دستوري لإسقاط الإمبراطور بعد انتخابه سوى ثورة ناجحة، وهنا أيضاً لا يحول اختيار العناية الإلهيّة له، دون أن يُعتبر مجرّد غاصب في حالة إخفاقه، وإذا فالثورة تصبح مشروعة، بل وجزءاً من الدستور المعمول به.

بيد أن اختيار الأباطرة بطريق الانتخاب وحده لم يكن ليضمن للناس سير الأمور سيراً حسناً، ما دام اغتصاب العرش مباحاً في هذه الدَّولة، ولا يعتبره الناس خيانة إلاّ في حالة الإخفاق، ثمّ إننا لا ينبغي أن ننسى أنّ هذا الاغتصاب كان يدعم القوّة الإمبراطورية في بعض الأحيان. ومن ثمّ عُدِّلت النظرية الرومانية القديمة ـ فيما يختصّ بطريقة اختيار الحاكم الأعلى للدولة ـ كما يلي: إنّ تفويض الحكم للإمبراطور، يخوِّله حق تتويج خلف له أثناء حياته، ويظلّ مستبداً وحده بالسلطان طالما بقي في قيد الحياة، رغم وجود خليفة إلى جواره، فإذا تُوفي انتقل السلطان إلى خليفته من تلقاء نفسه.

وهكذا فَقَدَ المنتخبون حق الانتخاب، ولم يبق أمامهم إلاّ أن يحبّوا الحاكم الجديد، قائلين: مات الملك، يحيا الملك!.

وكان ممّا يميِّز الأباطرة الشرقيين العسكريين كفايتهم العسكريَّة كقادة للجيوش في ميادين القتال.

ولم يكن الإمبراطور ملك الملوك[1]، كما كان يسمى رسمياً بعد

(١) انظر التفاصيل في كتاب: الإمبراطورية البيزنطية (٩٩ ـ ١٠٥).

سقوط الإمبراطورية السّاسانيّة، التي كان كسرى المنازع الوحيد له في هذا اللّقب، فقد قال المسيح: إنّه وارث هذا العالم، فعلى نائبه ـ وهو الإمبراطور ـ أن يدّعي إدخال العالم في دائرة ملكه. أليس الآخر مخلِّصاً للعالم؟ أليست قوّته هي المدبِّرة له؟ إذاً فهو الحاكم الأعلى، وله الحق في السيادة على العالم كله.

ولم يكن الأمر ليقف إلى هذا الحدّ، فإنه لمّا كانت مملكة الأرض مصوغة على مثال مملكة السماء، إذاً فهي ليست عالميّة فحسب، بل خالدة أيضاً، وليس باستطاعة بشر أن يقوِّض دعائمها. أما الأباطرة الفاسدون، فليسوا إلاّ عقاباً إلهيّاً للناس، حتى إذا انتهت مدّة عقاب البشر، وتاب أهل البلاد عن خطاياهم، أشرقت شمس رحمة اللّه مرة أخرى، وهكذا تصبح المسيحية مصدراً دائماً لبعث جديد، وكانت هذه العقيدة راسخة قبل المسيحية في رومة، فاستحال ذلك إلى عقيدة دينيَّة.

وإذا كان الأمر كذلك، فما هي القيود العملية والنظرية التي تحدّ من ادعاء الأباطرة السيطرة على الكون؟.

بالرغم من أن الإمبراطور هو المشرِّع الأعلى، وبالرغم من أنه لا يسأل عمّا يفعل، فقد كان عليه لهذا السبب ذاته أن يُلزم نفسه بمراعاة القوانين. ولا ننسى أولئك الذين كانوا يحيطون بالإمبراطور، فهم رجال فقهوا التقاليد المحافظة، تقاليد هيئة الحكم الشّديد التّعقيد. وقد أصبح مجلس الشيوخ ـ إذا استثنينا ممارسته لسلطته القديمة في تنصيب الملوك ـ مجلس حكّام يفضِّلون السّبل المطروقة، ومن المؤكد أنّ الأباطرة لم يُعدموا كثيراً من الحكماء والناصحين، ووجدوا عندهم من الحكمة ما جعلهم يأخذون بنصحهم.

وقد كان سكّان العاصمة ـ إلى جانب حرس المدينة الرسمي، حتى القرن السابع الميلادي على الأقل ـ يكوِّنون قوّة فاعلة، وكانوا على قوّة تمكِّنهم من الإخلال بالأمن إذا ما فقدوا سيطرتهم على أنفسهم، وعلى

استعداد لتقديم مرشّح آخر ينافس صاحب العرش، ونشر الفوضى عن طريق الحرق والقتل. والظاهر أنّه حين خمدت المقاومة الشّعبيّة المنظّمة لإرادة الإمبراطور زمن بيت هِرَقل، أقام الرّهبان نوّاباً للشعب، وحملوا لواء المقاومة ضد الأباطرة، واستطاعوا أن يعتمدوا على مؤازرة الأتقياء، وأثبتوا أنّهم خصوم أشدّ خطورة على الإمبراطور من البطريرك الذي كان بإمكان الإمبراطور أن يعزله. واستطاع الجيش أيضاً أن يوقف بعنف أي إجراءات لا يرى تنفيذها، اعتماداً منه على قوّته.

إلاّ أن هناك قيداً أعمق ممّا ذكرناه، ذلك هو التأثير الخفيّ لتقليد يفترض في الأباطرة: (حبّ الخير للناس) يحتِّم على الإمبراطور إسداء خدمات إنسانية جليلة لشعبه، وكان هذا المثل الأعلى - في الواقع - قوّة كابحة لجماح الإمبراطور.

وأخيراً، كان المنتخبون قبل أن يوافقوا على منح أحد من الناس السّلطة الإمبراطوريّة يستخلصون منه وعداً صريحاً بمراعاة ذلك، ومع مضي الزّمن أخذ الإمبراطور عند تتويجه يُقسم قسماً رسميّاً، يبدأ بالاعتراف بالعقيدة الأرثوذكسيّة، ويتضمن توكيداً منه لمنشورات بطارقة العالم السّبعة ومجامع دينيَّة محليّة أخرى، وحقوق الكنيسة وامتيازاتها، ويَعد بأن يظلّ خادماً مخلصاً للكنيسة المقدّسة، وابناً باراً بها وحامياً لها، ويأخذ عهداً على نفسه بأن يظلّ إنسانيّاً في حكمه لشعبه، عادلاً بينهم، وأن يتجنّب توقيع عقوبات التّنكيل بالناس أو الحكم بالإعدام ما استطاع إلى ذلك سبيلا. . . . . وصيغة القسم من الأهمية بمكان، بحيث تظهر لنا ما كان يتطلّبه البيزنطيّون من حاكمهم.

وكانت قواعد السّلوك في البلاد صارمة، وفيها وصف دقيق مفصّل للأدوار التي تقوم بها كل طبقة من الهيئة الحاكمة الإمبراطورية في سلسلة الاستقبالات والاحتفالات التي كانت تكوّن: (السّنة المسيحيّة) البيزنطية. وفيها ذكر مفصّل للملابس والحركات ومواضعها وأوقاتها، والكلمات الرسمية التي جعلتها العادة مع مرور الزّمن مقدّسة.

ولنتصوَّرْ زعيماً بربريّاً من أحد السّهول أو الصّحاري وصل إلى البلاط البيزنطيّ، ونزل في ضيافة القصر، وشاهد عجائب العاصمة في رعاية موظفي الإمبراطور، كان عليه أن يمثل بين يدي الإمبراطور، تراه يمرّ في متاهات من الدّهاليز الرّخاميّة، وغرف غنيّة بالفسيفساء الأردية الذهبية، وبين صفوف حرس القصر الذين يرتدون زيّاً أبيض واحداً، يحفّ به النبلاء والأساقفة والقادة وأعضاء مجلس الشيوخ، بينما يعزف أرغن الكنيسة، تصاحبه فرق المغنين بالكنيسة والخصيان، ثمّ أخيراً يسجد مبهوراً بهذه الفخامة التي بغير حدود، في حضرة الإمبراطور الصّامت الوقور، سيِّد رومة الجديدة، ووريث قسطنطين، وهو متربّع على عرش القياصرة. وقبل أن يُسمح له بالنهوض، يرى الإمبراطور وقد تغيّرت حلّته بالعرش وقد تبدّلت زينته التي رآها حين نظر إليه آخر مرة. . . . . يرى الإمبراطور وهو ينظر إليه كما ينظر الإله إلى واحد من البشر. تُرى، مَن ذا الذي يسمع زئير الأسود الذهبية حول العرش، وتغريد الأطيار، ثمّ يستطيع بعد ذلك أن يرفض أوامر الإمبراطور؟ وعلى هذا النحو يطويه الإمبراطور تحت جناحه، ويحارب من أجل المسيح الروماني وإمبراطوريته، وتُغدق عليه الامتيازات والهبات والهدايا من أجل وعده بالدِّفاع عن الحدود، وربما مُنِح مركزاً رسمياً في الحكومة، فيصبح نبيلاً أو قائداً في الجيش، وربما حالفه الحظ فتكون مساعدته ذات قيمة كبيرة للإمبراطوريّة، فيوعَد عندئذٍ بتزويجة من أميرة بيزنطيّة، كما فعل هِرَقل مع زعيم الخَزَر، فيعتنق المسيحيّة، وسيقوم الإمبراطور نفسه بدور جستنيان عند الحوض المقدّس، ومن ثَمّ ينتدب أحد الأساقفة من أَتباع بطريرك القُسْطَنْطينيَّة للإشراف على مصالح الرّوم في بلاده. وفي حالة قيام شعبه ضدّه وإسقاطهم له، يسمح له بالالتجاء إلى الإمبراطورية، ومن ثمّ يُعاد بحراب الرّوم إلى مركزه، وفي هذه الحالة لا يبقى عند رجال الدَّولة ريب في إخلاصه.

ومع أنه لم يكن للإمبراطوريّة ممثّلون دائمون لدى الحكومات

الأجنبيّة، إلاّ أنّ بعثاتها كانت تتوالى فتُخط تقاريرها في ديوان الرّسائل الإمبراطوريّة.

٤ ـ الكنيسة الأرثوذكسيّة:

لم تُكتب الحياة لطقوس رومة الشرقيَّة فحسب، بل احتفظت الكنيسة حتى اليوم بطبيعتها التي اكتسبتها أيام الأباطرة المسيحيين، فآراء هذه الكنيسة في اللاهوت، وشعائرها، وصيغها التي كانت تلقى أثناء المراسم الدِّينية، ولون حياة الرّهبنة والتّقشف، وقديسوها وأعيانها، ذلك كلّه تراث من أيام البيزنطيين، لا تزال تُبقي على سلامته روح المحافظة التي لا تلين.

أصبحت القُسْطَنْطينيَّة في عصر قسطنطين مدينة مسيحيّة، إلاّ أنّها ظلّت فيما يختصّ بحقّ التّشريع الكنسي تخضع لأسقف هِرَقْلَة، ونجد أنّ التاريخ الداخلي للكنيسة بعد أن اعترف بها مجلس الشيوخ، يكاد يكون سرداً لجهاد أسقف القُسْطَنْطينيَّة في سبيل الظّفر باستقلاله عن مطران هرقلة من جهة، وفي سبيل سيطرته على منافسه في الإسكندرية من جهة أخرى. ولقد خرج بطريرك رومة الجديدة منتصراً، وشاركه الإمبراطور هذا النّصر، فقد رأس جستنيان الكنيسة كملك كاهن، وأصبحت عاصمته مركز حياة الكنيسة وتنظيمها.

وكان إذا رغبت إحدى الأسقفيّات في تقديم نفسها على غيرها من مثيلاتها، نظر الناس فيما إذا كانت قد أُسِّست على يد أحد الرُّسل، وكان هذا هو المقياس المعترف به في تقديم الكنائس بعضها على بعض. أما الشرق، فقد حاول أن يجد تسويغاً لهذا النظام، وانتهى إلى النظرية القائلة: بأن أسبقية المدينة في الميدان الكنسي لا بدّ أن تقوم على أسبقيتها في الميدان المدني. وسعت بيزنطة بعد ذلك إلى الإنتصار على رومة بحجّة أخذتها من منطق رومة نفسها، فإذا كانت رومة تقول بأنّ القديس بطرس هو مؤسسها. فقد اكتشفت رومة الجديدة أنّ باستطاعتها في

اعتمادها على تزوير وقتيّ أن تدّعي أنّ القديس إدريس (إندرياس) هو مؤسسها، والقديس إدريس هو الذي أحضر بطرس إلى المسيح لأول مرّة. غير أنّ قساوسة المجمع الدِّيني العالمي الثَّاني الذي عُقد في القُسْطَنْطينيَّة سنة (٣٨١ م)، اعترفوا بالنظرية القديمة اعترافاً صريحاً، وحكموا الأسقفية العاصمة بالمكان الأول في الكنيسة الشرقيَّة بعد السدّة الرسولية في رومة: لأنّ القُسْطَنْطينيَّة هي رومة الجديدة، وبذلك تحرّرت مدينة الأباطرة من سيطرة هرقلة.

وقد نشأت خصومات داخل الكنيسة، نتيجة لتصميم أساقفة الإسكندرية على أن يستخدموا تأثيرهم وسيطرتهم في مقاومة قوّة القُسْطَنْطينيَّة الكنسية الناشئة، وقد انتصرت الإسكندرية عدة مرات على القُسْطَنْطينيَّة، وأخيراً هزمت الإسكندرية في مجمع خلقيدونية سنة (٤٥١م)، لأن البابا والإمبراطور صمّما على تحطيم كبرياء مصر، لكن بطريرك الإسكندرية لم يذعن، فخُلع ونُفي، وكان هدف مجمع خلقيدونية انتصار القُسْطَنْطينيَّة والانحياز الكلي للكنيسة الشرقيَّة.

وأجاز المجمع الصيغة الغربيّة التي نقّحها البابا ليو الكبير وأوردها في رسالته العقيديّة المسمّاة: (Tomos) حيث قال: هناك طبيعتان يجب تمييز إحداهما عن الأخرى في المسيح حتى بعد تجسّده وهما الإلاهيّة والإنسانية، وقد ظلّ الاختلاف بينهما باقياً بالرغم من وحدة الشخصيّة. وكانت وجهة النظر اللاهوتية عند الإسكندريين تتّجه دائماً إلى الصوفيّة والرّمز، وتؤكد طبيعة المسيح المقدّسة، حتى إنّها لتهمل طبيعته البشريَّة، وهكذا ابتلعت الناحية المقدّسة الجانب البشريّ، وبذلك وصلت الكنيسة المصريّة إلى اعتقادها طبيعة مقدّسة واحدة. وهكذا وقعت الفئة التي أسّست الكنيسة القائلة بطبيعة واحدة صفاً واحداً في مقاومة التّعريف الذي انتهى إليه مجمع سنة (٤٥١ م) وفي نبذ عقيدة البابا ليو الكبير، وعلى هذا فقد انتهى بالناس إلى الحرب لا إلى الصّلح.

ولقد وحّد منشور (زينو Zenos Henoticon) بين الكنائس الشرقيَّة سنة (٤٨٢ م)، إلاّ أنّ ثمن ذلك كان الانشقاق عن رومة سنة (٤٨٤ م)، كما أسّس يعقوب البرادعي (Baradaeo Jacobus) أسّس الكنيسة اليعقوبيّة المستقلّة في حكم جستنيان. وسعى بيت هِرَقل مرة أخرى لإيجاد اتحاد مع أصحاب العقيدة المقدّسة الواحدة غير أن العقيدة القائل بالقوة الناشئة عن طبيعة واحدة أو إرادة واحدة في المسيح المتجسّد لم يكن باستطاعتها الثبات طويلاً، ولم تكُفّ هذه المعضلة عن إزعاج سياسيِّي الإمبراطورية البيزنطية، إلاّ حين استولى المسلمون على سوريّة ومصر، موئل الهراطقة، واستطاعت الإمبراطورية بعد ذلك أن تكون أرثوذكسيّة، وهكذا استطاع جستنيان الثَّاني أن يعقد الصّلح مع رومة.

وعندما أصبحت البطريركيات الرومانية الشرقيَّة أسقفيّات في بلاد المسلمين، بقي بطريرك القُسْطَنْطينيَّة بلا منازع، وأصبح تشريعه يسري على الإمبراطورية، إلاّ أنّ بطريرك العاصمة عاش في ظلّ القصر الإمبراطوري. وكان إخفاق بابوات الغرب في نزاعهم مع كنيسة القُسْطَنْطينيَّة، قد علّمهم كيف يحلّون المعضلة الدوناتية[١]. ولم يعد إمبراطور الدَّولة البيزنطية يستطيع بعد ذلك أن يترك للسلطات الكنسيّة حكومة الكنيسة غير المنظّمة، فقد أبان منشور الإمبراطور ـ الذي دعا به إلى عقد مجمع نيقية ووجّهه لخلفائه ـ الطريق بحيث لم يعد بمقدور أيّ بطريرك لرومة الجديدة أن يقاوم الإرادة الإمبراطوريّة أو أن يجتنب أوامرها. وهكذا كان انتصار الأرثوذكسيّة الخلقيدونيّة، وانتصار فكرة توحيد الكنيسة، ختاماً للنزاع الذي قام من أجل السيادة داخل الكنيسة الشرقيَّة.

---

(١) الدوناتية: فرقة نصرانية ظهرت في إفريقية في العصر البيزنطي، وهي منسوبة إلى أسقف يسمى: دوناتوس، عارض أسقف قرطاجنة، والتفّ حوله طائفة من القساوسة، وتكوّنت منهم فرقة دينية، ظلّت تناوىء كنيسة قرطاجنة حتى أيام جستنيان.

وشهد القرن السادس الميلادي آخر هجوم شنّ على الوثنيّة الباقية في الإمبراطوريّة، وتوالت التشريعات في محاربة الهراطقة من جهة والوثنيين من جهة أخرى خلال أكثر من مائتي سنة، واستعمل قسطنطين العنف في القضاء على الدوناتيين الإفريقيين بحجّة أنّهم مهدِّدون للأمن أكثر منهم مارقين على العقيدة. وحيل بين الهراطقة وبين الاشتراك في وظائف الكنيسة، ونفوا من القُسْطَنْطينيَّة وحُرِّم على الوثنيين حق الوراثة والتوريث ودخول وظائف البلاط والجيش، وجرِّد الهراطقة أيضاً من حق دخول الجيش. وبالرغم من أنّ الهراطقة كانوا يؤدون ما يقع على غيرهم من المواطنين من أعباء، فقد حرِّم عليهم التمتّع بامتيازاتهم. وحرَّمت عليهم قوانين جستنيان الاشتغال بالمهن الحرّة، بل تقرّر هدم كنائسهم، وأغلقت دونهم الاجتماعات العامَّة، وأصبحت شهاداتهم القانونية ضدّ الأرثوذكسيين غير مقبولة، وأضحت وصاياهم لاغية، وفقدوا ما يخوِّلهم حق الوراثة ولو بوصية اختيارية، وحق وراثة شخص توفّي دُون أن يوصي، فأصبح المنشق عن الكنيسة منبوذ المجتمع. وكانت سياسة جستنيان فيما يختصّ بالمانويين (أتباع مذهب ماني) سياسة إبادة، فخصائص الروح فوق خصائص الجسد، وإذاً يجب القضاء التام على كلّ ما من شأنه أن يسبب العدوى.

ويمكن تلخيص آراء جستنيان في الحكومة بالعبارة الموجزة: حكومة واحدة، وقانون واحد، وكنيسة واحدة.

وقد صدرت سلسلة أخرى من القوانين ضد الوثنية، وأدخل في القرن السادس الميلادي ألوف من الوثنيين في المسيحية قسراً دون أن يعتنقوها فعلاً. ونتج عن تلك التشريعات دخول كثير من غير المسيحيين في المسيحية، بيد أن الغالب من هؤلاء المتنصِّرين الجُدد كانت رهبتهم للإله المسيحي ناتجة عن خوف من الناس، في حين ظلّت قلوبهم في وادٍ آخر، إذ ظلّت على ولائها للعقيدة القديمة.

وهكذا انحطّت المقاييس الأخلاقيّة والدِّينية داخل الكنيسة، وشعر

الناس أنّ الحياة المسيحية أخذت تفقد مُثُلها العليا المتشدِّدة، فأخذوا يجاهدون في سبيل الإفلات من عالم لا يُحتمل في نظرهم، وامتلأت صحاري مصر بطالبي العزلة الذين يبغون الوصول إلى اللّه، غير أنّهم لم ينفصلوا عن الكنيسة المنظمة انفصالاً فعلياً، لكنّهم كَفُوا أنفسهم بأنفهسم، وكانوا في غنى عن حظيرة الكنيسة. وهكذا قامت الرّهبنة منفصلة عن الكنيسة، وكانت من ناحية احتجاجاً فردياً على نظام قام بأكبر نصيب في تأييد الدَّولة. ولما كانت الكنيسة تسعى لتركيز سلطانها في إدارتها الداخلية، فقد قرّرت أن تحول دون بقاء أيّة حركة دينيَّة خارجة عنها، ولا مفرّ لأيّ لون من ألوان التديّن من أن يؤيّد قضيّتها، وإذا كان لا بد من تكييف الحركة الجديدة بما يلائم أغراض الكنيسة، فإنها - أي الكنيسة - كانت مستعدة لترتيب معونة مالية مؤقتة توصلها إلى أغراضها، فإذا لم يخضع الميل الجديد إلى التقشّف لإدارتها، أصبح من اللاّزم عليها تحطيمه، وأصبح على الزّاهد أن يتّصل بأولئك الذين يشاركونه الاعتقاد بمثُله العليا، إذ أنّ ذلك يفسح المجال أمامه لممارسة فضائل المسيحية.

ومهما يكن من أمر، فإن مساكنهم التي اتّخذوها لتنسُّكهم في الكهوف المنعزلة أو جعلوها معلّقة فوق صخور الجبال، هو الذي أيقظ الشعور بالإجلال والرّهبة والحماسة العاطفية في نفوس عامَّة الشّعب، فهرع الحجّاج من الشرق والغرب لإلقاء نظرة على القديس العمودي الذي قضى سنين طويلة على عموده، حتى فَقَدَ القدرة على الوقوف، وأصبح لا يعينه على الوقوف سوى الرباط الذي يمسكه بعموده.

وسعت الكنيسة مرة أخرى لتحويل هذا التنسّك المحبّب الشّائع لخدمة أغراضها بشتى الوسائل، فكان نجاحها في هذا المجال محدوداً.

وقد رأينا أنّ الحاج إلى الأماكن المقدّسة كان يعود حاملاً معه تمثالاً أو صورة للقدّيس، وربما كانت هذه العادة من العوامل التي أعانت على تقوية عبادة الصور التي نشأ عنها نزاع اللاصوريّة الذي طال أمده.

وقد ضاعت كتابات اللاصوريين، ونستطيع أن نتبين أسس مهاجمتهم لعبادة التماثيل ممَّا كتبه خصومهم. فلم يكن محطِّمو الصور من أنصار المذهب العقلي، بل كانوا مصلحين دينيين، فكانوا ينظرون إلى شعور الناس بالتقديس نحو الصور والتماثيل نظرتهم إلى عبادة الأصنام أو نوع من أنواع الوثنية.

ولم يكن عبّاد الصوّر أقلّ إخلاصاً لمبدئهم، فالواقع أنّ كثيرين منهم نظروا للنزاع على أنه جهاد للبقاء، فشعر صنّاع الصور المجيدون أنّ الخطر يتهدّد مورد رزقهم، لأنّهم كانوا يعيشون من رسم الصور المقدّسة. وظلّ بعض أنصار الصور ينافحون عن مبدئهم بحجة كان الشرق يقول بها في وقت مبكّر منذ القرن الرابع الميلادي، وأخذها الغرب فيما بعد، ألاّ وهي أن الصور المقدّسة إنجيل الجاهل، فالصور ما هي إلاّ مذكِّر، وهي للنّظر بمثابة الكلمات للأذن، مهمّتها الإفهام والتّقريب.

وأخيراً، انتصر عباد الصور، وعاشت الصور المقدّسة في الكنائس بخاصة والأماكن العامَّة أيضاً.

وبقي هناك موضوع الخصومة مع رومة، فقد اتّسعت الهوّة بين لشرق والغرب مع السنين، حتى لقد انقطعت الصلة بين البلاطين الشرقي والغربي في أوائل القرن الخامس، إلاّ أن يكون بعض ما كان يثور بينهما من نزاع في اتّصال أحدهما بالآخر اتصال عداء، فكانت مشاكل الغرب والشرق في هذا العصر اللاّهوتي مختلفة، حيث نزاعات قوّاد كنيسة الغرب كانت عمليّة تدور حول علاقة الإنسان باللّه، فكانت مسائلهم تختصّ بتخليص الإنسان أو تحريره من إرادته الإنسانية، ومضوا تحت تأثير أوغسطين ينشئون لعقيدتهم نظاماً خاصاً مقنّناً. أما النزاع في الشرق فيدور حول علاقة أفراد الثالوث المقّدس بعضهم ببعض، ودار فيما بعد حول الطبيعة المزدوجة لابن الإله المتجسّد. وكانت رومة هي الملجأ الأخير الذي تطلب عونه كلّ طائفة قليلة مغلوبة على أمرها في الكنيسة الشرقيّة،

وكان تدخّل الغرب على ذلك في نظر الأكثريّة تدخّلاً تنظيمياً من شأنه أن يقوِّم هرطقات الشرق، فلم تكن كنيسة رومة على وفاق مع كنيسة القُسْطَنْطينيَّة خلال نصف مدّة القرون الخمسة التي تقع بين وصول قسطنطين للعرش والمجمع الدِّيني العالمي السابع الذي عقد سنة (٧٨٧ م).

وكان اختلاف اللّغة بين الكنيستين أهمّ من ذلك كلّه، فبينما كانت رومة الجديدة تقوم في وسط يتكلّم اليونانية، كانت إيطالية في القرن الرابع الميلادي لا تعرف اليونانية، بل تتكلّم اللاتينية، فكانت رسائل البابوات للمجامع الدِّينية الشرقيَّة تقرأ أولاً باللاتينية ثم تترجم إلى اليونانية لكي يتسنّى لرجال الدِّين الشرقيين فهمها، وكثيراً ما كانت تترجم ترجمة خاطئة.

إن الشرق والغرب لم يستطيعا التفاهم، لأنّ كلاً منهما يجهل لغة الآخر.

ولم يكن كبار البطارقة البيزنطيين في الحقيقة على استعداد لإطاعة ما تمليه رومة، فانتهزوا بشوق فرصة اكتسابهم محبّة الشّعب، وهاجموا مزاعم البابويّة. ولما كان البطريرك والبابا شخصيّتين بارزتين في الوقت نفسه، فقد نتج الإنشقاق الدِّيني عن ذلك. وكانت رومة كثيراً ما تلقِّن القُسْطَنْطينيَّة درساً في موضوع الأرثوذكسية، ولكن بيزنطة حرصت على أرثوذكسيتها الخاصة بها، واستطاعت أن تدافع عنها في وجه الغرب.

وقد حان الوقت لنتبيّن نواحي القوّة والضعف في الكنيسة الأرثوذكسية.

إنّ تديّنها ينفِّرنا حين نقرأ أدبها اليوم، إذ أنّها علّقت أكبر قيمة على فضيلة البكاء، مدفوعة إلى ذلك بشعور متجدِّد بالخوف من الخطيئة، وفيض الدّمع إنّما هو تأثّر نفسيّ خاص بصاحب الترتيل العاطفيّ بشكل رئيس. وإنّ الإنسان ليشعر أنّ فضيلة رجل الكنيسة البيزنطي إنّما كانت صادرة عن الأمل بالجزاء في العالم الآخر. كما أنّ الكنيسة الشرقيَّة أخذت

تشكّ في القيم الإنسانية وتسعى لكبتها، فقد اعتبرت الأدب الكلاسيكي القديم خطراً، واعتبرت تلميذ أفلاطون في عداد الهراطقة، وكان يُعَدّ خائناً. وكانت الكنيسة إغريقيّة، فرضت اللّغة الإغريقية على أتباعها، وهكذا قُضي على لهجات آسيا الصغرى الوطنية. وقد أنقذت الكنيسة الإمبراطورية البيزنطية، ومالت في آخر الأمر إلى السّعي للتوفيق بين رغباتها ورغبات الدَّولة، ولم تكن تفرض على الداخل في مذهبها أعباء كثيرة، فكانت تبدي تسامحاً كبيراً فيما يختص بعقيدته وعبادته السابقتين.

ولكن يجب أن نقرِّر أنها حدّدت للعالم المسيحي معاني العقيدة، وإذا كانت كنيسة تابعة للدولة إلى حد بعيد، فقد كانت مشبعة بروح تبشيرية، ونجد أنّ جميع الفنون البيزنطية التي كتب لها البقاء ذات طابع كنسيّ. وإذا كانت هذه الكنيسة قد خضعت للدولة، فإنّ من رجالها مَنْ عانى التّشريد والعذاب والتنكيل من أجل العقيدة. وقد احتفظت الكنيسة في القرون المظلمة بجذوة الهيلينية حبّة تحت الرّماد، ولا تزال تلك الكنيسة على ولائها لأهدافها التي وضعتها منذ قرون خلت حتى اليوم.

٥ ـ القوات المسلّحة البيزنطية:

أ ـ القوات البرية:

أولاً: التنظيم:

تطوّر جيش الرّوم بالتدريج أسوة بالجيوش العالميّة الأخرى، فقد كان الناس في أوائل أدوار تمدّنهم قبائل يدافع عنها القادرون على حمل السلاح من رجالها، فإذا هدّد القبيلةَ خطر عسكري، اجتمع رجالها بلا ترتيب ولا نظام، ويعد المعركة ينال كل فرد من أفراد القبيلة من الغنيمة ما يستطيع الحصول عليه بنسبة شجاعته وقوة شكيمته ونفاذ شخصيته. ولما تحضّر الناس وتقاسموا الأعمال ونشأت الدول، كان من أقدم المهن عندهم الكهانة والجنديّة.

وأوّل دولة نظّمت الجند على أسس تنظيميّة ثابتة هي الدَّولة

الفرعونيّة في مصر، فقد جنّدت جنداً من الزّنوج والأحباش حوالي القرن العشرين قبل الميلاد، أخضعت بهم سكّان سواحل البحر الأحمر، ثم انتشر أمر التجنيد في الدول القديمة: الآشوريّة، والبابليّة والفينيقيّة واليونانيّة والرومانيّة والفارسيّة.... إلخ.

وكان نظام جيش الفراعنة هو نظام الصّفوف المتعاقبة المتراصّة، والمشهور أن رمسيس الثّاني هو منظِّم الجيش المصري على هذا النظام المعروف.

واقتبس اليونان نظام الجند المصري ونوّعوه، فأنشؤوا نظام الفرق، حيث تتراص الجنود صفوفاً متعاقبة، وكانت الفرقة مؤلفة من أربعة آلاف رجل، يصطفّ رجالها الواحد بجانب الآخر على بضعة أقدام في صفوف متعاقبة الواحدة وراء الآخر، فجعلها فيليب المقدوني ضعفي ذلك، ثم جعلها ابنه الإسكندر أربعة أضعاف، وقارب ما بين الرِّجال حتى كادت تتماس أكتافهم وتترابط رُؤوسهم، ثم اصطنع لهم رماحاً طول بعضها أربعة وعشرون قدماً. وفي هذا النِّظام تكون رماح الصّف الأمامي قصيرة، ورماح الصف الذي وراء الصف الأول أطول، حتى تبرز رماح الصف الخامس ثلاثة أقدام نحو الأمام. وكان فيليب قد نظّم فرقةً من الفرسان، فأضاف إليها ابنه الإسكندر آلات الحرب ومن جملتها المنجنيق، وبهذا التنظيم تغلّب الإسكندر على كثير من الجيوش في كثير من المعارك قبل الميلاد بأربعة قرون.

فلما نشأت دولة الرّوم اقتبست نظام الفرق من اليونان، وأدخلته في تنظيم جيشها البريّ.

كان الجيش البيزنطي منظّماً في فرقٍ، تَعداد كلّ فرقة عشرة آلاف جندي[1]، تتألف الفرقة من ثلاث طبقات من المقاتلين: الشّباب ومنهم

---

(١) في رواية: أنّ تعداد الفرقة ستة آلاف جندي، ويبدو أنّ التنظيم مرن، فهو بين العشرة الآلاف والستة آلاف.

يتألّف الصف الأول في الحرب، والكهول في الصف الثّاني، وأهل الدربة والحنكة في الصف الثالث والصفوف المتعاقبة الأخرى، وكان يُلحق بكل فرقة من المشاة كتيبة من الفرسان تتسلّح بالسِّهام والمقاتلين والمزاريق[١] لمشاغلة الأعداء في حرب المشاة، ولإجراء الاستطلاع قبل الاصطدام بالقوات المعادية، ولحماية المشاة قبل الاصطدام بالعدو وأثناءه، وللقيام بالمطاردة السريعة بعد هزيمة الأعداء.

وكانت كل فرقة من فرق المشاة تضمّ عشرة آلاف رجل بقيادة بطريق[٢]، وقد قسّم الرّوم الفرقة إلى قسمين: كل قسم مؤلف من خمسة آلاف رجل بقيادة (طومرخان[٣] Turmarch)، وهو ما يشابه تنظيم اللواء في العصر الحديث، أي أنّ كل فرقة بيزنطية مؤلفة من لوائين، تعداد كل لواء خمسة آلاف مقاتل.

وقسّموا كل لواء إلى خمس كراديس[٤]، تعداد كل كردوس ألف رجل، بقيادة قائد اللواء (طرنجاريّة[٥] Drungairs).

وقسّموا كل كردوس إلى خمسة سرايا، كل سريّة مؤلفة من مائتي رجل[٦] بقيادة (قومس)[٧].

---

(١) المزاريق: جمع مزراق. والمزراق: الرّمح القصير.

(٢) البطريق: من أشراف الروم يحمل رتبة عسكرية هي رتبة قائد فرقة، ويشابه في التنظيم الحديث قائد فرقة برتبة لواء.

(٣) طومرخان: قائد لواء يحمل رتبة عسكرية، تشابه رتبة قائد لواء في الوقت الحاضر برتبة عميد أو عقيد.

(٤) الكراديس: جمع كردوس، وهي كلمة يونانية معرّبة استعملها العرب، ومعناها: ألف جندي. والكردوس يشابه تنظيم الوحدة أو الفوج في المشاة والكتيبة في الخيّالة بالنسبة للتنظيم الحديث.

(٥) طرنجارية: يشابه قائد وحدة، فوج أو كتيبة في التنظيم الحديث الذي يكون برتبة مقدّم.

(٦) يشابه تنظيم السرية في الوقت الحاضر.

(٧) قومس: يشابه قائد سرية في الوقت الحاضر الذي يكون برتبة نقيب أو رائد.

وقسّموا كل سريّة إلى خمس فصائل، كل فصيلة مؤلفة من أربعين رجلاً[1] بقيادة (قمرطخ)[2].

وقسّموا كل فصيلة إلى أربع حضائر، كل حضيرة مؤلفة من عشرة جنود بقيادة (الدّمرداغ) وهو ضابط صف (انظر المخططات المرفقة).

هذا هو مجمل تنظيم جيش الرّوم البري حين ظهر الإسلام وفي أيام الفتح الإسلامي على عهد الخلفاء الراشدين وبني أُميّة، لذلك قسّم خالد بن الوليد رضي الله عنه جيشه إلى كراديس في معركة اليرموك الحاسمة سنة ثلاث عشرة الهجريَّة (٦٣٤ م)، وهي تعبية لم تُعبّها العرب من قبل[3]، وقسّم الكردوس إلى عشرة أقسام، على كل قسم (نقيب)، وقسّم كل قسم من تلك الأقسام على عشرة أقسام فرعيّة، على كلّ قسم منها (عريف).

ولو لم يطوّر المسلمون تنظيم جيشهم في معركة اليرموك، لكان من المشكوك فيه أن ينتصروا، لأن الرّوم كانوا متفوّقين عليهم فواقاً ساحقاً.

ثانياً: التسلح:

كان الفرسان والمشاة في جيش الرّوم يُقسّمون إلى فرقٍ خفيفة السّلاح، وفرق ثقيلة السّلاح، وكان الفارس ذو السّلاح الثّقيل يلبس الخوذة الفولاذيّة ودرعاً من الزّرد يكسوه من رقبته إلى فخذيه وقفازاً من الحديد وأحذية من الفولاذ. وكان يحمل عباءة خفيفة يرتديها فوق سلاحه صيفاً وعباءة فضفاضة من الصّوف يتدثّر بها شتاء. وكان سلاحه سيفاً عريضاً وخنجر ورمحاً وقوساً للرماية وجَعْبَة[4] للسّهام.

---

(١) يشابه تنظيم الفصيلة في الوقت لحاضر التي تكون بقيادة ملازم.

(٢) قمرطخ: رتبة عسكرية لقائد الفصيلة، تشابه رتبة الملازم في الجيوش الحديثة.

(٣) الطبري (٣/٣٩٦) وابن الأثير (٢/٤١١).

(٤) الجعبة: وعاء السّهام والنبال.

وإذا كان الفارس ممن يقفون في الصفوف الأماميَّة ويقوم بالهجوم، وضعت دروع فولاذيّة على صدر حصانه وعصابات فولاذية على جبهته.

وكان الفارس ذو الأسلحة الخفيفة عادة من الرماة، ويرتدي سترة من الزّرد. تغطي أنصاف أجسادهم العليا وخوذاً فولاذيّة. وكانت أسلحتهم السيف والرمح وفأساً لها نصل قاطع من ناحية وسن مدبّبة من ناحية أخرى.

وكان الجنود المشاة المسلّحون بالأسلحة الخفيفة من الرماة بالقوس، أو من الذين يطعنون بالحراب، ويلبسون قمصاناً طويلة من الزّرد تصل إلى الركب أو دروعاً خفيفة في بعض الأحيان، ويحملون جعباً للسِّهام فيها أربعون سهماً، ويحملون فؤوساً في أحزمتهم، وكانوا يعلّقون على ظهورهم تروساً صغيرة مستديرة.

وكان للرّوم آلات ثقيلة كالبرج والعَرَّادَة[1] والدبابة والكبش، تُحمل بجانب متاع الجيش على الحيوانات أو العجلات.

ويغلب أن كلمة: (برج) مشتقّة من اليونانيّة، وقد وضعت لبرج متحرِّك شُيِّد من الخشب ومغطى بالجلد والحديد، وكان يُستعمل للاقتراب من الحصون والمدن المنيعة لاقتحامها ولقذف السِّهام أو الأحجار أو أيّة مقذوفات أخرى. وفي معظم الأحيان يُجرّ البرج على العجلات الخشبية أو الحديدية أو يُدفع على أسطوانات، ويتألف البرج من عدّة أدوار فوق بعضها يوصل إليها بدرجات من الدّاخل، وينتهي البرج بقنطرة خشبية يمكن إلقاؤها على الحصن أو السور ليرقى عليها الجنود في هجومهم على العدو.

والعرّادة آلة أصغر من المنجنيق، تُلقى بها الحجارة على أبعاد كبيرة، وقد عرفها الفرس وعرفها كثير من الأقوام الأخرى أيضاً.

---

(١) العرادة: آلة من آلات الحرب القديمة، وهي منجنيق صغير.

والدبابة آلة من آلات الحرب، يدخل فيها الرِّجال، فيدبُّون بها الأسوار ليثقبوها، وهي برج متحرّك له أحياناً أربعة أدوار: أوّلها من الخشب، وثانيها من الرصاص، وثالثها من الحديد، ورابعها من النُّحاس الأصفر. وتصعد إلى طبقات الدبابة الجنود لثقب الحصون وتسلّق الأسوار. وكانت الدبابات تسبق المشاة حتى تقترب إلى مسافات قصيرة من مواقع العدو أو حصونه، وهناك تعمل عملها في قذف الحجارة أو كرات النار المشتعلة أو النبال. وكان القادة يخصِّصون عدداً من الجنود للسير خلف الدبّابة، حتى يسوّوا طريقها ويزيلوا الموانع التي يضعها العدو في طريقها.

والضَّبْر[(١)]، وجمعه: ضُبُور، مثل رؤوس الأسفاط، يتّقى بها في الحرب، وهي جلد يُغَشِّي خشباً، يكمن تحته الرجال عند الهجوم أو الانسحاب، ويحتمون به في تقدّمهم إلى الحصون لدقّ جدرانها أو نقبها.

والعيار[(٢)] قطعة من الجلد أو القماش قوية قليلة العرض مطويّة، تمسك من طرفيها، ويوضع الحجر أو الحصاة أو قطع الحديد أو الرصاص المصوّب نحو الهدف في وسطها.

والمِقْلاع[(٣)] مكوّن من كفّة توضع فيها القذيفة مربوطة بثلاثة حبال أو سيور متينة، تمسك من أطرافها، وبعد تدويرها مراراً باليد يفلت طرف واحد من الحبال أو السيور المذكورة، فيقذف ما في الكفّة إلى بعد شاسع بقوّة واندفاع.

والكَبْش[(٤)] آلة من خشب وحديد، تُجرّ بنوع من الحبال، فتدقّ

---

(١) الضبر: الدبابة كانت تتخذ من الخشب يُغشى بالجلد، يحتمي به الرجال ويتقدمون إلى الحصون لدقّ جدرانها وثقبها.

(٢) العيار: مأخوذة منها كلمة: العيار الناري، وهي قذيفة تطلق من المسدّس ونحوه.

(٣) المقلاع: ما يرمى به الحجر.

(٤) الكبش: آلة من آلات الحرب، كانت تستعمل في الحصار، لقذف الحصون.

الحائط فينهدم. وأصل الكبش دبابة ولكن له رأس في مقدمه مثل رأس الكبش، يتّصل داخل الدبابة بعمودٍ غليظ معلَق بحبال، تجري على بكرة معلّقة بسقف الدبابة لسهولة جرّها. ويتعاون الجنود الذين يتحصّنون داخل الكبش مع آخرين استتروا بدروعه ووقفوا خلفه، على ضرب السّور حتى يخرقوه.

والمنجنيق آلة قديمة من آلات الحصار، كانت ترمى بها حجارة ثقيلة أو حديد أو نار على الأسوار فتهدمها أو تحرقها.

ومن المجانيق أنواع لرمي السِّهام التي توضع في المنجنيق، وترمي عنها بالأقواس إلى مسافات بعيدة وقوة خارقة. وأخرى لرمي الحجارة حتى تهدم الحصون، وثالثة لرمي قدور النفط أو الكرات المشتعلة من النيران الإغريقية.

والنَّفَّاطَة أداة يرمى بها النّفط، لإحراق ما يمكن إحراقه من خيام العدو ومعسكراته وأبنيته وحصونه وملاجئه.

ثالثاً: الأسلحة[1]:

المشاة: وهم الذين يسيرون على أقدامهم، يكون أكثر الجيش البريّ مؤلفاً من سلاح المشاة، وقديماً قالوا: المشاة سيِّد الأسلحة.

والفرسان أو الخيالة، هم الذين يمتطون الخيول ويتدرّبون على الفروسية، والقتال على الخيول كرّاً وفرّاً، ويتعلمون حماية المشاة في مسير الاقتراب، والهجوم بالخيل، والاستطلاع قبل القتال وفي أثنائه وبعده، وحماية المشاة في الانسحاب، والقيام بالمطاردة. ويعتمد هذا السّلاح على سرعة الحركة، وعلى المباغتة، وعلى التأثير المعنوي على العدو.

---

(١) أسلحة الجيش: المصطلح العسكري الذي يراد به: صنوف الجيش.

والمهندسون. وهم الفنيّون الذين يشرفون على آلات الحصار، ويرافقون الجيش لتمهيد الطرق واستطلاع المعابر وإقامة القناطر والجسور، وإنشاء الاستحكامات، وتدمير حصون واستحكامات الأعداء.

والنَّفَّاطَة، وهم الذين يقذفون النفط على العدو، ويعدّون وسائله للقذف، وللنفّاط ثوب خاص يرتديه كي لا يصاب بأذى من النفط.

والسيّافة، وهم المدرّبون على استعمال السيوف راكباً وراجلاً في قتال العدو، والماهارون منهم في استعمال السيف هم الذين يبادرون بالخروج إلى المبارزة.

والرماة، وهم المسلّحون بالرّماح، الذين يتقنون استخدامها في القتال.

والنشّابة، وهم المدرّبون على رمي السِّهام. والماهارون في إصابة أهدافهم إصابات دقيقة هم الرماة، ويستعان بهم في الرّصد وقتل قادة العدو ورجالاته، وفي إصابة حرّاس الأسوار والحصون، ولهم ميزة خاصة وحظوة دون سائر أقرانهم عند قادتهم.

والمنجنيقيون، وهم المدربون على تشغيل المنجنيق واستخدامه، وتشغيل أشباهه واستخدامه في ميادين القتال.

وسلاح الإشارة، وهم الذين يؤمِّنون الاتصال بين القائد وقواته داخلياً، وبين تلك القوّات ومقرّاتها العليا خارجياً.

وسلاح النّقل، وهم الذين ينقلون السلاح والذخيرة والميرة والتمرين ومواد العينة والقضايا الأخرى من قواعد الجيش إلى ساحات القتال، وينقلونها من ساحات القتال إلى قواعدها، ويخلون الخسائر من الخطوط الأماميَّة إلى المستشفيات.

والأطباء، وهم مسؤولون عن معالجة المرضى والجرحى من أفراد الجيش، ويشرفون على إخلائهم إلى الخلف.

والممرضون، وهم الذين يعاونون الأطباء في حمل رسالتهم الطبيّة، وينوبون عنهم في معالجة المرضى والجرحى عند غيابهم أو عدم تيسّرهم.

والبياطرة، وهم المسؤولون عن علاج الخيل والبغال وحيوانات النّقل الأخرى.

ورجال الدّين، وهم المسؤولون عن غرس العقيدة وشحذها والتّحريض على القتال ورفع المعْنَوِيَّات بين المحاربين من رجالهم.

وسلاح الميرة والتموين، وهم المسؤولون عن التموين للمقاتلين وحيوانات نقلهم، وتزويدهم بما يطعمون ويشربون.

وسلاح العيْنة، وهم المسؤولون عن السلاح والذخيرة والتجهيزات والمواد الأخرى.

رابعاً: التعبئَة:

كان الرّوم يعتمدون الحذر والحيطة في قتالهم، وقلّما يبادرون إلى اتّخاذ الأساليب الخطرة في الحرب وممارسة المجازفة في القتال.

وكان شعارهم الحربيّ: أقصى المكاسب بأقل الخسائر.

وكان على القائد أن يستوثق من الظروف الملائمة للعمليّات العسكريَّة قبل المشاركة في أي اشتباك حربي، فالهرب المصطنع، والمباغتة، والهجوم اللّيلي، والكمائن، والتّظاهر بحضور المدد الكبير، وإبراز أعداد مبالغ بها في حماية الأسوار عند محاصرة المدن والحصون، والمفاوضات الطويلة لكسب الوقت، كل هذه الأساليب وأشباهها وسائل مقبولة في الجيش البيزنطي، ويجري التدريب عليها نظرياً وعملياً وممارستها.

وكان الجندي الذي يعتمد على القوة حيث يُغني الدّهاء في كسب النصر يعتبر أبله وجندياً لا كفاية له، ولا بأس بإرسال خطابات مريبة لقادة

العدو، لبذر الشِّقاق بينهم وبين قادتهم، كما أنّه لا بأس بإخبار الجند بانتصارات وهميّة لرفع معنويّاتهم.

وكانت قوّة الرّوم في أجهزة مخابراتهم، فقد جعلوا شغلهم الشاغل دراسة سُبُل عدوّهم في الحرب، ومواجهتهم بأفضل الطّرق واستحصال أدقّ تفاصيل المعلومات عن عدوِّهم.

وكان للرّوم مقدرة عالية في الحصار، ولهم قواعد خاصة تختلف تبعاً لنوع البرج المحاصر والبيئة المحيطة به، وكانت هذه القواعد تطبّق، ولكنّها لم تكن جامدة، بل تتّسم بالمرونة.

وكانت قوة جيش الرّوم في خيّالته الثّقيلة، وكان نظامه العسكري مُحكماً، وخدماته الإدارية جيدة وذات كفاية.

وكانت له فرق طبيّة خاصة، وكان الفرسان التّابعون للخدمات الطبيَّة، يحملون الجرحى من ميدان المعركة إلى أطبّاء الجيش في المؤخرة.

كما أنّ سلاح هندسة الرّوم متمرِّس على إزالة العقبات الطبيعيّة، له خبرة جيدة بإزالتها، قادر على إقامة المعابر والقناطر والجسور، وترميم الأسوار والحصون وإدامتها إذا أصابها العطب.

وكانت له أساليب معلومة في اختيار المعسكرات وحمايتها، وتعاليم خاصة في مسير الاقتراب وفي الدِّفاع والهجوم والانسحاب والمطاردة، وفي زرع الكمائن والرّبايا في الحروب الجبليّة.

وكان يهتم كثيراً بتطبيق مبدأ: (الأمن) لقوّاته المحاربة، كما يهتم بمبدأ: (حشد القوى) و(رفع المعْنَوِيَّات) و(تأمين القضايا الإدارية).

وكان للرّوم مؤلفات فنيّة عسكريّة، يتعلّمون ما جاء فيها، ويتدربون تدريباً عسكريّاً على العمل بموجب مبادئها وتفاصيلها، ويطبقون محتوياتها بحرصٍ وكفاية.

لقد كانت للرّوم فنون تعبويّة معروفة من الناحيتين النظرية والعملية، وكان مجموع الجيوش البريّة النظامية في القرن التاسع الميلادي مائة وعشرين ألفاً، ويقدَّر في زمن جستنيان بمائة وخمسين ألفاً. وكان سكّان الولايات الثّغريّة المختلفة يتحمّلون نفقات الجيوش العاملة فيها، ومعلوماتنا عن الجيوش المحليّة في الولايات قليلة لا تكفي لإعطاء صورة وافية عن تعدادها وتنظيمها، ولكن الجيوش المحليّة كانت أقل تدريباً وكفاية من الجيوش النظامية، وكان نظام منح الأرض نظير الخدمة العسكريَّة الذي طبِّق في القرن الرابع الميلادي على حرس الحدود، قد ظهر ثانية واتّسع نطاقه في الولايات الثغرية، وكان لا يجوز انتقال هذه المنح، لأنّ منحها كان يتضمن إلزاماً بالخدمة في الجيش يرثه الابن عن أبيه، فكانت الجندية من المهد إلى اللّحد، يرثها الخلف عن السّلف. لقد كانت القوى العسكريَّة مصدر قوة الدَّولة الحقيقية دون منازع.

تنظيم قوّات الرّوم البريّة

الفرقة

(١٠٠٠٠) مقاتل تنظيم قوّات المسلمين البريّة.

الجيش

(١٠٠٠٠) مقاتل أو أكثر

لم يكن اسم: الحضيرة يطلب على الوحدة التعبويّة الصغيرة المؤلفة من عشرة مقاتلين في العصر الإسلامي الأول، ولقد وضعناها للإيضاح فقط، لهذا اقتضى التنويه.

قيادات قوات الرّوم البرية ومقارنتها بقيادات المسلمين البرية على عهد الخلفاء الراشدين وعهد الدَّولة الأموية وقيادات قوات الجيوش البرية الحديثة لعرب

ب ـ القوّة البحريّة:

اعتبر الرّوم القوة البحرية أقل أهميّة من الجيوش البريّة، وقد اتّجهت رومة الجمهوريّة إلى البحر مكرهة، ويصدق الحكم نفسه على الإمبراطورية البيزنطية، فقد بُني الأسطول الروماني تحت ضغط الحروب اليونانيّة، وأبقي عليه ليقوم بمراقبة البحار، ولقهر القراصنة، وحماية واردات الحبوب المنقولة لرومة والقُسْطَنْطينيَّة.

وقد اعتمد حكام القُسْطَنْطينيَّة خلال القرنين السادس والسابع الميلادي في الدِّفاع البري عن ممتلكاتهم على التحصينات الضّخمة والمراكز القويّة التي أقاموها على حدودهم وفي داخل أراضيهم جرياً على سياسة الرّوم التقليدية، ولكن البيزنطيين وسَّعوا مجال التحصينات وزوّدوها بحاميات نظامية، مع الاستعانة بقوات من الجنود المحليين أو المعاهدين من مستوطني الريف المجاور.

وهكذا كانت المنظومة الدِّفاعية في مناطق البحر الأبيض المتوسط حتى فتوح المسلمين، تقتصر على الاكتفاء بقوات صغيرة من الجنود المحترفين، تشدّ أزر قوات الدِّفاع المحليّة في مناطق الخطر.

وعكّا والإسكندرية والقُسْطَنْطينيَّة، حيث تمّ بناء كثير من السفن الحربية الخفيفة السريعة بجانب قواعد أخرى في سرقوسة بصقليّة وفي سبتة وجزر البليار، إذ بدأت الدَّولة ببناء أسطولها حين ظهرت على المسرح قوة العرب البحرية، واضطرت بسبب نشاط معاوية بن أبي سفيان البحري إلى

الشروع في بناء أسطول بكل ما لديها من جدّ وعزيمة، فظهرت خلال القرن السابع الميلادي قيادة بحريّة واحدة عليا، وهي قيادة أميرال (أمير البحر)، وتخضع لقيادته منطقتان لكل منهما أسطول يقوده نائب أميرال (نائب أمير البحر)، كما كانت ولايات أخرى تجهِّز القوى العسكريَّة اللازمة للأسطول، ولكن ليو الثالث بعد حصار المسلمين للقسطنطينية اعتمد في قوته على جيش آسيا الصغرى البري، وكذلك فعل خلفه قسطنطين الخامس.

وكان سبب إلغاء القيادة العليا الموحّدة للأسطول، هو أنّ الأسطول نادى بنائب الأميرال إمبراطوراً سنة (٦٩٧ م)، وأسقط الإمبراطور سنة (٧١٣ م) وسنة (٧١٦ م)، ممَّا أدّى إلى إضعاف الأسطول البيزنطي خوفاً على العرش من قادة الأسطول.

والراجح أنّه كان للدولة أساطيل إقليمية تشبه أساطيل الإمبراطورية. وفي الحرب كانت الدَّولة تعزِّز أسطولها بعدد من السّفن التجارية، لنقل الجنود والإمدادات والأسلحة والذخيرة والمواد.

ولم تواجه البحريّة البيزنطية عدوّاً خطراً حتى ظهور الأسطول الإسلامي، فتغيّرت تنظيمات البحرية البيزنطية على أثر ضغط الهجمات الإسلاميَّة في القرنين السابع والثامن، فوضع على رأس كل إقليم قائداً حربياً له السلطة الحربيّة والمدنية معاً، فأتاح ذلك وسائل فعّالة للدفاع، وقد طُبِّق هذا التنظيم في البحرية والجيش البري معاً.

كان تنظيم القوة البحرية البيزنطية في صورته الأخيرة أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الميلاديين عبارة عن أسطول حربي، قوامه أسطول مركزي إمبراطوري في القُسْطَنْطينيَّة بقيادة القائد الأعلى للبحرية مباشرة أو عن طريق نائب للقائد الأعلى. وهناك أسطولان إقليميان في الشرق، هما أسطول بحر إيجة وأسطول جنوب آسيا الصغرى، ويخضع

كل منهما لقيادة نائب أمير البحر (عميد بحري)، وإلى جانبهما قطع بحرية صغيرة في بلاد الشرق. وفي الجانب الغربي من البحر الأبيض المتوسط، رابط الأسطولان الإقليميان الرئيسان في صقليّة وفي رافنا، ويحتمل وجود أسطول إقليمي ثالث في إفريقية حتى الفتح الإسلامي لهذه البلاد. وقد احتفظ الأسطول البحري الإمبراطوري وكل أسطول إقليمي بمستلزماته الخاصة من سفن الحرب والتجارة ودور الصناعة وأحواض البناء والمعدّات البحرية الأخرى على نفقة الأقاليم التي تقيم فيها الأساطيل(١).

ممَّا تقدّم يظهر أنّ بحريّة الرّوم كانت تتألف من بحريّة تابعة للإمبراطورية، وهي جاهزة لدعم البحرية الإقليمية، تتحرّك لنجدتها عند الحاجة، وهي بسيطرة مركزية بقيادة قائد أعلى بحريّ، يتسلّم أوامره من الإمبراطورية مباشرة. لذلك فإنّ هذه البحرية تُكوِّن بحرية سَوْقيّة، وتكون احتياطاً عاماً للبحرية الإقليمية، تتدخّل في الحروب التي لا تستطيع البحرية الإقليمية معالجتها كما ينبغي.

أما الخط الأول من البحرية البيزنطية، فهي البحرية الإقليمية التي تكون مسؤولة عن المناطق النائية عن العاصمة القُسْطَنْطينيَّة، وهذه البحرية مسؤولة عن إحباط الاعتداءات الخارجية باتخاذ الإجراءات الفورية لدرئها، فإذا استطاعت التغلّب عليها فإنها لا تطلب سند بحرية الإمبراطورية، وإلاّ فإنها تستمدّ عونها وتطالب بسندها.

وهذه البحرية الإقليمية، تتبع الحكام المحليين من الناحية العملية، ولكنها مسؤولة أمام مرجعها الأعلى في القيادة العليا للبحرية التي مقرّها القُسْطَنْطينيَّة من الناحية الفنية. لذلك كانت هذه البحرية ـ بسيطرة غير مركزية ـ تتلقى أوامرها من الحكام المحليين، لمعالجة الحروب المحلية، وقد تتجّه من منطقتها لنجدة المناطق المهدّدة الأخرى بأوامر من القيادة

---

(١) الحدود الإسلامية البيزنطية ـ فتحي عثمان (١/ ٣٢٧ ـ ٣٣٠).

العليا للبحرية البيزنطية. لذلك كانت البحرية الإقليمية بحرية تعبويّة، أو هي الخط الأول الأمامي للبحرية البيزنطية الإمبراطورية.

وحين كانت البحرية البيزنطية أقوى من بحرية الأمم الأخرى في حوض البحر الأبيض المتوسط، جعلت من هذا البحر بحيرة بيزنطية وسيطرت تلك البحريّة على الشرق الأوسط.

وحين أصبحت بحرية المسلمين أقوى من بحرية البيزنطيين في البحر الأبيض المتوسط خسر الرّوم أرض الشّام ومصر، وشمال إفريقية وخسروا الجزيرة وأصبحوا مهدّدين بعقر دارهم من الفاتحين المسلمين.

إنّ السيطرة بالبحرية على البحر الأبيض المتوسط، تؤدي إلى إحراز النصر والسيطرة على منطقة هذا البحر. كما حدث للفينيقيين واليونان والرومان والرّوم والعرب في الأزمنة الغابرة وكما هو مسجّل في صفحات التاريخ، وكما حدث في العصور المتأخرة بالنسبة للبرتغال والإسبان وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

لا عجب إذاً من تنافس الدول الكبرى في العصور المتعاقبة القديمة والوسطى والحديثة على السيطرة البحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط، لأنّ ذلك يؤدي إلى السيطرة العالمية.

وليس في مقدورنا أن نقدّر بالتأكيد القوة التي كان عليها أسطول بيزنطة عادة، وتدلّ التفاصيل التي بين أيدينا عن الحملة البحرية البيزنطية الوحيدة ـ التي نملك عنها تفاصيل ـ على أنّ عدد السفن كان مائة سفينة من الأسطول الإمبراطوري، وسبعاً وسبعين من أسطول الولايات، بينما كان عدد البحّارة (٢٣٠٠٠ ـ ٢٤٠٠٠) من بحّارة الإمبراطورية و(١٧٥٠٠) من بحّارة الولايات.

ويظهر أنّ عدد سفن الأسطول التي أمكن جمعها لحملة بحرية أيام ميخائيل الثالث (٨٥٨ م ـ ٨٥٩ م) بلغ عددها ثلاثمائة مركب. وكان

رجال السفن يتكوّنون من رعايا الإمبراطورية ومن المتبربرين المستقرين في أرض الدَّولة مثل: (المارداثيين Mardetes)[١] ومن المرتزقة الأجانب مثل الروس الذين استخدموا أول مرة في الأسطول كما يظهر، زمن الأسرة المقدونية. ويبدو من كتاب: (Tactica) ـ أي الفنون الحربية الذي كتبه ليو السادس أنّ رجال الأسطول كانوا بحّارة وجنوداً. ولكننا نلحظ في حملة سنة (٩٠٢ م) أن جنود الأسطول كانوا شيئاً آخر غير المجدفين، وكانت السّفن المسماة (درموند Dromonds) وهي السفن الكبيرة في العصور الوسطى، واللّفظ مشتق من الكلمة اليونانية: (Dromos) أي السفينة، كانت هذه السفن تبنى في الغالب بصفين من المجاديف[٢]، وتحمل فوق المائة رجل في الغالب، وفيها سبعون من جنود البحر، والباقون من المجدفين والملاحين.

وبجانب ذلك، كان هناك سفن ذات طراز مختلف، منها ما هو أكثر سرعة يسمى: (Pamphylus , Pamphylis)، وهي ذات صفين من المجاديف، ومن هذا النّوع كانت سفينة القيادة التي تحمل العلم، وهذا النوع من السّفن يُستعمل في القتال والمطاردة.

وكانت هناك سفن بصفٍّ واحد من المجاديف: (Galleys) تستخدم للاستطلاع ونقل الرسائل. كما كان الأسطول الإمبراطوري والأسطول الإقليمي أو المحلي يستعين بالسفن التجارية عند الحاجة.

---

(١) المارداثيون: هم جماعة جبلية كانت تسكن نواحي لبنان من قديم الزمان، وكانت الدولة البيزنطية تستخدمهم في الدفاع عن حدودها الشرقية. فلما فتح المسلمون بلاد الشام تراجعوا إلى آسيا الصغرى، وهناك أقاموا يحاربون في صفوف الدولة البيزنطية، وظلّوا يسبّبون لخلفاء المسلمين متاعب جمّة. وظلّ الأمر على ذلك حتى عقد عبد الملك بن مروان مع الإمبراطور جستنيان الثاني صلحاً اشترط فيه أن تنقل الدولة البيزنطية جماعات المارداثيين إلى ولايات الدولة الداخلية، فانقطع بذلك شرّهم عن المسلمين. انظر VASILIEV, OP.cit. 1P. 185.

(٢) الإمبراطورية البيزنطية (١٩٣ ـ ١٩٤).

وتوضع في مقدِّمة السفن آلات تقذف النيران الإغريقية المخيفة، وكان البحّارة يُجهّزون بقنابل يدوية تحتوي على نفس المادَّة القاتلة التي كانت تنفجر بقوّة، على الرّغم من أنّها كانت لا تأتي بالنتائج التدميرية المرجوّة، ولكنها على كل حال تؤثر في المعْنَوِيَّات تأثيراً عظيماً، أو ترسل تلك النيران بأوعية خلال الهواء بالمنجنيق، وربما استخدمت قذائف في دفع مواد سريعة الإلتهاب خلال أنابيب باتِّجاه أهداف بعيدة، وقد حفظ تركيب النار الإغريقية سرّاً مصوناً، وكانت لها مخازن ومستودعات في المدن البحرية الكبرى.

وتتّسم سياسة الرّوم البحرية في القتال، بنفس الحذر الذي كانت تتّسم به خططهم العسكريَّة التعبوية والسَّوْقِيّة، فقد كان أمير البحر في الدَّولة الشرقيَّة لا يحارب إلاّ إذا كانت جميع الظروف مواتية له، أو إذا رأى أنّه لا بدّ من الحرب لحماية إحدى مقاطعات الرّوم، غير أنه لا سبيل إلى الشكّ في أنّ الملاّحين لا يعتمد عليهم في الغالب، وكان أهمّ ما يُشغل بال أمير البحر هو أن يدبِّر أمره في حالة ما إذا هدّده الجنود بالانفضاض من حوله[1].

وليس بين أيدينا سوى القليل من الكتابات عن الفن البحري عند الرّوم، ولكن ما وصل إلينا يدلّ على توجيههم نفس العناية الدقيقة التي كانوا يوجِّهونها إلى علوم العمليّات البرية في الجيوش البرية البيزنطية، إلى مبادىء الحرب البحرية وفنون القتال البحري. فقد درس أمراء البحر البيزنطيون الأوصاف الطبيعية للسواحل والبحار والجزر، وخصائص الرياح بأنواعها والمدّ والجزر، وأتقنوا فن الخطط والعمليّات البحرية، ووجّهوا

---

(١) الإمبراطور البيزنطية (١٦٤)، لأنّ جنود السفن يتكونون من رعايا الإمبراطورية ومن الفرنج والروم والإفريقيين ومن المرتزقة الأجانب مثل الرّوس، والروم الشرقيون وحدهم كانوا من الذين يعتمد على إخلاصهم وولائهم، لالتزامهم بالدفاع عن وطنهم وممتلكاتهم، أما غيرهم فلا التزام يشدّهم إلى الحرب غير الارتزاق، وهذا يتبخّر عند الخطر.

إلى فنون الاستطلاع والحصول على المعلومات من مصادرها بشتى الوسائل والاتصالات والإشارات إهتماماً يعادل اهتمام المحاربين في البر. وعلى الرغم من تعدد فترات النشاط البحري، فقد ظلّ الأسطول مجالاً للخدمة العسكريَّة أقل امتيازاً من غيره، فكان الجندي البري يتقدم البحّار دائماً، ولم تكن رومة الجديدة في هذه الناحية بالذّات كما رأينا، إلاّ محافظة على تقاليد العاصمة الغربيَّة القديمة.

وكان رجال البحر ـ كما هو الحال في رجال البر ـ يتكونون من أسلحة مختلفة: رماة، ومنجنيقيون، ونفّاطة، ومهندسون، وأطباء، وممرضون، وأرباب حرف، وإداريون لتصليح السفن وإدامتها، ومجدفون مدرّبون على الجدف المتواصل الطويل، الذين مارسوا واجباتهم ولهم قابلية على الاستمرار في عملهم مدّة طويلة دون كلل أو ملل.

ولكن الأسطول البيزنطي أخذ يتداعى خلال القرن الحادي عشر الميلادي، ودليل ذلك أنّ السّلاجقة وصلوا إلى ساحل آسيا الصغرى الغربي خلال العقد السّابع من هذا القرن، وشاعت الفوضى في الولايات التي كان يجمع منها أكبر جانب من القوى البحرية البيزنطية، لأنه ثبت للحكومة المركزية أن القيادة البحرية العليا كانت دافعاً قوياً لمن يحملها ويحوزها على التفكير في اغتصاب السلطان، ومن المرجّح أنّ هذا العامل كان له أثر كبير في الهبوط بالقوة البحرية.

ولو قُدِّر للقسطنطينية أن يكون لها أسطول قادر، لتوجّهت الحملة الصليبية إلى مصر لا إلى القُسْطَنْطينيَّة، وبالرغم من أنّه توفّر للإمبراطورية حينما انتعشت بعد ذلك، في ظل باليولوجس (١٢٥٨ م ـ ١٢٨٢ م)، أسطول نشيط على صغره، إلاّ أنّ الأيام العظيمة ذهبت مع أمس الدّابر إلى غير رجعة[١].

---

(١) الإمبراطورية البيزنطية (١٩١ ـ ١٩٢).

٦ ـ الفكر البيزنطي:

أ ـ التعليم:

ربّما كان الرّهبان والقسس البسطاء، يرون في المعارف القديمة شَرَكاً من شراك الشيطان، ولكن أبدى أباطرة متلاحقون رغبة في رعاية الجامعات وترقيتها، وفي زيادة عدد المدرسين، وفي إنشاء المكتبات، وجمع مخطوطات الآداب القديمة.

وفي القرن الرابع الميلادي، كان يتدرّج الشاب من الطبقة العليا في مراحل التعليم، فيبدأ الصبيّ يتعلّم القراءة والكتابة في الخامسة أو السادسة من عمره، وفي العاشرة أو الثّانية عشرة كان ينصرف إلى دراسة النحو، ولا يقتصر النحو على تصريف الأسماء والأفعال وقواعد تركيب الجمل، بل كان يضمّ إلى جانب ذلك دراسة الآداب القديمة. وحين كانت العبارة تقرأ، كانت تُعرب وتحلّل، وتفسّر كلماتها الصّعبة والغريبة، وتُدرس اشتقاقاتها الصّرفيّة، ويُبَيّن المعنى المراد، وتُعرّف قيمته الأدبية، وكانت تُستعمل لهذا المعجمات والشروح والكتب ذات الحواشي والتعليقات. وكانت الروايات المحزنة والمضحكة تقرأ كذلك، ولم يعترض أي أب من الآباء على الفحش الكبير الذي يرد في روايات الهزليين.

وفي سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، كان الولد يهجر النّحو إلى البلاغة، وكان الطالب يدرس كتب عدّة مؤلفين من كُتّاب النّثر بخاصة، وكان الأستاذ يقرأ مثالاً مختاراً من أسلوب إنشائي معيّن بصوت مرتفع، ويطلب إلى التلاميذ أن ينشئوا موضوعاتهم على مثاله. وفي ذلك العصر الذي كانت الثقافة فيه تتركّز في المراسلات، كان لا بدّ من دراسة مفصّلة لفن كتابة الرسائل. وكانت الرسائل النموذجية تُقرأ بصوت مرتفع في المدرسة، إذ لا بدّ للرسالة من أن تبرز شخصية الكاتب، وأن تكون قصيرة مصوغة بأسلوب بليغ صافٍ. وكان لا بدّ من أن تكون اللّغة فيها سهلة تتخلّلها الأمثال الكثيرة. وكان الاهتمام في الكتابة ينصبّ على المبني

أولاً، وأما المعنى فأهميته أقل من المبني، ومن هنا تبدو لنا مراسلات تلك المدّة متكلّفة خالية من العنصر الإنساني، وإنّها قد تنحطّ في كثير من الأحيان إلى عَرْضٍ يدلّ على اطّلاع واسع ولكنه جامد لا حياة فيه.

وكانت السنة المدرسية تبدأ في الخريف، وتدوم دون انقطاع حتى بداية الصيف، ثم تتبع ذلك العطلة وتدوم أربعة أشهر في فصل الحر. وكانت الدروس تدرس في الصباح، كما كان بعض الطلاّب الكبار يستمعون إلى المحاضرات بعد الظهر. وفي أيام الأعياد وميلاد الملوك وغيرها، كانت المدارس تقفل أبوابها، وتقام مصارعات الوحوش والألعاب والروايات في دار التمثيل، وحتى الأساتذة المسيحيون لم يروا أدنى ضرر من أن يتردّد الطلاّب على دور التمثيل. وكانت تُفرد أيام للخطابة بين حين وآخر، يلقي فيها ذوو الكفايات الخطّابية من الطلاب أو الأساتذة نماذج خطابية، ويُدعى لسماعها الأصدقاء والآباء. وكثيراً ما كان الطلاّب يستمرئون الكسل، كما كانت المشاجرات شائعة بينهم.

وكانت جامعة أثينا لا تزال في القرن الرابع الميلادي أشهر مركز لدراسات البلاغة، وإلى تلك الجامعة يُعزى ما كان قد بقي لها من الأهمية. وكان الطلاب القادمون من نواحي الإمبراطورية المختلفة يميلون بالطبيعة إلى أن يدرسوا على أساتذة من بني جلدتهم، وكان أساتذة الفلسفة في الغالب غرباء. وكان الأساتذة أعداء بعضهم بعضاً في كل مكان، حتى أنّ قسماً منهم يرى واجباً على طلابهم أن يجعلوا عيش زملائهم منغصة ما أمكن ذلك. وكان تلاميذ كل أستاذ للفلسفة في أثينا يكوّنون جماعة متماسكة، وكانوا يرون أنّ الاستماع إلى أستاذ غيره خيانة كبيرة. وقد بلغت المنافسة بين هذه الجماعات حدّاً أضحت المعارك معه تنشب بينهم في شوارع أثينا، وتستعمل فيها الهراوات والحجارة والسيوف. وكثيراً ما كانت الدراسة تُهمَل، لتحمّس الطلاّب يومئذ لألعاب الكرة كما هي الحال اليوم، بينما كان يقع الكثيرون من الطلاّب تحت عبء الدّين لتبذيرهم النقود على النساء المنحرفات.

وكان الطلاب يأخذون في دراسة الفلسفة في سنّ الثامنة عشرة أو العشرين، وكانت هذه الدراسة تاج التعليم في القرن الرابع الميلادي. وقد كانت الحكومة هي التي تقوم بالإنفاق على المعلمين في مدن مثل الإسكندرية والقُسْطَنْطينيَّة أما في أثينا فقد كانت موارد الجامعة تزداد بما يقدِّمه الطلاّب المتخرِّجون من هبات، فتكفي لسدّ حاجة الأساتذة، وكان فهم مؤلفات أفلاطون يستلزم معرفة عامَّة بقواعد الرياضيات والهندسة والموسيقى والفلك، ومن الصحيح أنّ العصر كان ينظر إلى العلم الطبيعي نظرة ملؤها الريبة، فكان المسيحي يرى أنّ الكتاب المقدّس قد كشف له عن سر الخليقة ونظامها دفعة واحدة. وكان من السهل أن ينزلق المرء ويؤخذ في تيار آراء منحرفة عن الدِّين. حتى الفلسفة اليونانية المتعلّقة بما وراء الطبيعة كانت شيئاً مريباً، والذي يتفرّغ لدراسة أرسطوطاليس في القُسْطَنْطينيَّة، لا يسلم من الجمهور الذي كان ينبّه السلطات دائماً على ذلك المجرم، فإذا كتب عن الاستدلال أو الطبيعيّات فقد استحق الموت بلا ريب، وكانت تسود أهل الإسكندرية مثل تلك الروح التي دفعت أحد العالمات حياتها ثمناً لفلسفتها.

وانتهزت الإسكندرية قصب السّبق من أثينا، وقد ظلّت مدرسة الإسكندرية الفلسفيّة قائمة حتى عشية الفتح الإسلامي. وانتشرت المدارس في جميع أنحاء الإمبراطورية، وظلّت اللّغة الإغريقية محتفظة بمكانتها في هذه المدارس، وكان أعاظم الأساتذة ينظرون بازدراء إلى اللّغة اللاتينية (اللسان الغربي)، ولم تكن تدرس اللاتينية بحماسة إلاّ حيث كان يدرس القانون الروماني.

وحتى في القرن الرابع الميلادي نفسه، كانت الثقافة القديمة تقف موقف المدافع عن نفسها، لأنّ تسامح الأباطرة مع الفلسفة اليونانية أخذ يقلّ بالتدريج. وفي سنة (٥٢٩ م) صادر جستنيان الموارد التي كان ينفق منها على تعليم الفلسفة في أثينا، وأرسل أساتذة الفلسفة إلى فارس منفيين، وقرّر أن تستقى ثقافة الرّوم الشرقيين من أصول مسيحية، وقد

أغلق فوقاس (٦٠٢ ـ ٦١٠ م) جامعة القُسْطَنْطينيَّة، وحلّت محلّها مدرسة دينيَّة أيام هِرَقل، وكان التعليم في العاصمة دائماً تحت إشراف البطريرك.

وقد شهد القرن التاسع الميلادي نهضة في تعلم الفلسفة والعلم اللذين كانا يلقيان عوناً صادقاً من الأباطرة، وقد أعاد القيصر بارداس إنشاء الجامعة القديمة في القُسْطَنْطينيَّة، وعيّن لها أساتذة في الهندسة والفلك وفقه اللّغة، ولم تنقطع الدراسات القديمة بعد ذلك إلى سقوط القسطنيطينية سنة (١٤٠٤ م)، غير أنّ الكنيسة كانت تنظر إليها بعين الريبة.

ولا نسمع عن التعليم القانوني إلاّ قليلاً، فلم يكن في القُسْطَنْطينيَّة خلال القرن الحادي عشر الميلادي من الدراسة القانونية شيء يفي بالحاجة، وقد أنشئت مدرسة جديدة للقانون في القُسْطَنْطينيَّة سنة (١٤٠٥ م)، ولكن لم تبق هذه المدرسة طويلاً. وحينما أقبلت أيام الفوضى في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي كانت خزينة الدَّولة لا تستطيع أن تخصّص للتعليم إلاّ قليلاً جداً من المال. ولا شك في أنّ الإمبراطورية التي لم تكن لتستطيع أن تقوم بما يتطلبه أسطولها، كانت تعدّ الجامعة نوعاً من الترف لا مفرّ من الاستغناء عنه[١].

ب ـ الأدب:

تغلّبت رومة على الدول التي نشأت عن تفكّك إمبراطورية الإسكندر الكبير الآسيوي. ولكنها لم تُفلح في فرض الحضارة اللاتينية على البلاد التي تحيط بالحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، فقد كانت الثقافة الهيلينية واسعة الانتشار ثابتة الأساس فيها. وعلى الرّغم من محاولة دقليديانوس وخلفائه تشجيع لغة الغرب (اللاتينية)، فإن اللّسان الإغريقي ظلّ يحفظ مكانته. وقد اقتبس هذا اللّسان عدّة ألفاظ من اللاتينية في مادّة الشريعة والإدارة مع عدد كبير من الاصطلاحات العسكريَّة.

---

(١) الإمبراطورية البيزنطية (١٩٦ ـ ٢١٦).

لقد كان أدب رومة الشرقيَّة (القُسْطَنْطينيَّة) أدباً يونانياً، وكان أدباً تحصيلياً، فقد ورث البيزنطيون منقولات الأساتذة الهيلينيين، وهم رجال لم يحاولوا أن يصوِّروا حياة عصرهم بقدر ما حاولوا أن يستعيدوا أفكار الماضي المجيد وأعماله، فصاغ الأدباء البيزنطيون أدبهم على هذا المنوال في قوالب قديمة، فنشأت الهوّة التي لا تزال موجودة، بين اللّغة المحليّة واللّغة المكتوبة في بلاد اليونان، فكانت مؤلفاتهم تعوزها السلامة التي تصدر عن الطبع، لأنّ الحركة الأدبية البيزنطية اتّسمت بالتقليد والتكلّف، وهكذا وقف المؤلفون المسيحيون في ذلك العصر بعيدين عن عصرهم، فهم يعيشون في مجتمعاتهم المسيحية ويؤلفون لها، ويتكلمون عن الطقوس المسيحية وأعيادها وكأنها أشياء غريبة مجهولة، فيخيّل إلينا ونحن نقرؤهم أننا نسمع هيروذتس مرة أخرى يشرح لقرائه اليونان معتقدات المصريين وطقوس عبادتهم العجيبة، وتتوارد على صفحات كتبهم أفكار الوثنيين عن الحظ والقدر باعتبارهما القوتين الدافعتين الفعالتين في عالم تزدهيه الخيلاء بأرثوذكسيته. وكان البيزنطي القح يختبر الشكل لا الفحوى أهم شيء عنده، وكان يحسب أنه لن يستطيع أن يهيِّىء لنفسه مكاناً طيباً في محراب الأدب إلاّ إذا اجتهد مخلصاً في متابعة التقاليد القديمة. وهكذا حافظت رومة الشرقيَّة على تراثها، وأنفقت جهدها في دراسته عن طريق التعليقات والشروح، ولكن كان يعوزها التعمّق في أسرار الطبيعة والوجود وروح البحث الحر الذي يبدو في مؤلفات المفكرين اليونانيين، وكأن نسيم الصّبا عليل، وتبدو أصالة الأدب البيزنطي في أكمل صورها في اللاّهوت والشّعر الدِّيني والتاريخ. وقد ظلّت القصائد اللاذعة موجودة، وإلى تعشّق البيزنطيين لهذا اللّون من الفن الأدبي يرجع الفضل في بقاء مجموعة من مختاراتهم اليونانية.

وكان الشعر الكلاسيكي خاضعاً لقواعد أساسها الكَمّ، وكان تركيب عباراته يقوم على أساس من طول المقاطع. أما في لغة الكلام فكان

النَّبْر[1] هو ميزان الكلمات، وكانوا يجعلون الضّبط على المقطع المنبور، وعلى هذا قصّرت المقاطع غير المنبورة مهما يبلغ طولها الطبيعي. ونظّمت المدائح الدِّينية المسيحية في شعر ميزانه عدد النبرات، واستحدثت القوافي ليتكون رباطاً بين الأبيات. ولما كانت البلاغة تميل إلى إزالة الفوارق بين الشعر والنثر بما فيه في الموسيقى الإغريقية، فقد تأثّر النثر الفني بالتطور الجديد. ولما كان أدب رومة الجديدة محافظاً قبل كل شيء، فإن غلبة الشعر الذي يوزن بعدد المقاطع ظلّت على ما هي عليه، ولم تهدّدها النزعة الجديدة بخطر جسيم. وينبغي أن نعرف أنّ النّبر ظلّ يؤثر في بناء الشِّعر بصورة متَّصلة، وكان له أثر جديد في البحور الشعرية القديمة وهذا مثل واضح جداً لقوة التقليد الأدبي.

كانت المؤثرات الأسيوية بيِّنة بوضوح في الأدب البيزنطي، في كثرة الأخيلة، والبديع، تلك الكثرة التي قد تبهم العبارة ولا توضحها، فكان نتاج أدباء القرن الرابع الميلادي شديد الزّخرف قليل النظام، ومع ذلك كان خصباً في إنسانيته. بيد أننا إذا حاولنا أن نجد هذه الإنسانية في الكتابات اللاّهوتيّة لم نخرج بغير الحسرة والأسى، وسيظل المؤرخ واللاّهوتي يدرسان هذه الكتابات، أما القارىء العادي فإنه سيجد متعته في غيرها. وقد استخدمت الفلسفة اليونانية للدفاع عن المسيحية، ويمكن أن يقال إنّ عيد الأرثوذكسية (٨٤٣) يرسم نهاية مدة الإبداع في اللاّهوت وتبدأ مدة التقليد، إذ فقد تفكير رجال الكنيسة مقدرته القديمة على الاستيعاب، ولم يعد يسمح بأن تتسرّب إليه فكرة الفلسفة اليونانية، وهكذا أصبح اليونانيون في الدَّولة الشرقيَّة كالهراطقة متّهمين في نظر رجال الدِّين، وكان علم اللاّهوت في الدَّولة الشرقيَّة منصرفاً تمام الإنصراف إلى المساجلة العظيمة مع رومة.

---

(١) النبر في النطق: إبراز أحد مقاطع الكلمة عند النطق.

أما ميادين الشعر غير الدِّيني، فلم توفّق بيزنطة أبداً في شيء متميّز من الطبقة الأولى، فمات الشعر السداسيُّ التفاعيل، واستُعمل من ثَمّ الشعر ذو الاثني عشر مقطعاً بانتظام، غير أن الشعر البيزنطي غير الدِّيني يستطيع أن يُنتج أعمالاً ذات نَفَس طويل. وقد عالج بعض الشعراء القصيدة الصغيرة بنجاح ظاهر. أما الشعر الغنائي فقد مات، واستُبعدت مواضيع الحبّ المتبادل بين المرأة والرجل، وحلّ محلّهما شعر الهموم الشعبيّة.

وقد وُضع الأدب البيزنطي من مصدرين، الأول: أصحاب المُثل العليا من بين الرهبان والراهبات وأفكارهم عن العالم الآخر، وهم الذين كانوا لا يعنيهم من شؤون هذه الدَّار العاجلة إلاّ العثور على فرص يرفضونها، ويؤكدون بهذا الرفض عزوفهم عن كل ما في هذه الدنيا. والثَّاني: الواقعيون من رجال البلاط ورجال الدَّولة والأباطرة رجال الإدارة، وبذلك أصبح الأدب البيزنطي إما أدب العاطفة المشوبة والخيال المطلق، وإما آثماً وغير لائق، وكان الأدب المحافظ ينفر أن يعترف بالجمال حتى في أغنيَّة ريفية.

وفي النهاية ينبغي أن نذكر الأدب الشعبي البيزنطي، وهو يتألف على الأغلب من الأساطير الإغريقية التي أصابها التغيير والتحوير، كقصة حصان طروادة، وسيرة أعمال الإسكندر العظيم، وقد أصبحتا نموذجاً للبطل المسيحي. وفيها كتبت حكايات شرقية منقولة من بعيد، وقد غلب عليها ثوبها المسيحي. ولعل أمتع عناصر هذا الأدب هي سِيَر القديسين التي كتبها الرهبان المتواضعون للجمهور البسيط، ومن هذا الأدب الشعبي يستفاد الشيء الكثير[١].

---

(١) الإمبراطورية البيزنطية (٢١٧ ـ ٢٣٢).

ج ـ الفن:

اضطرت الوثنية واليهودية أن يلجأ المُسْتَضْعَفون في الأرض من المسيحيين إلى سراديب الأرض وكهوف الجبال خوفاً من البطش، وكان النتيجة أن أصبح الفن المسيحي فنّاً رمزياً، فتصاويره المرسومة على الجدران لم تحاول أبداً أن تمثّل الحوادث التاريخية، ولكنه استطاع أن يوضح لنفسه رسالته التي تقوم على البشارة والإباء، وقد استعان في ذلك بالإشارات الصوفيّة التي ابتدعتها المدن اليونانية في الشرق الأدنى الذي ظهرت المسيحية في أكنافه. وهكذا تحوّلت الطائفة المنبوذة من المسيحيين في ذلك العالم المعاصر لها إلى عالم الرّوح سعياً وراء الثّقة في النفس وحفز الهمّة، وأصبحت لشارات أهل الإسكندرية التي هي المرساة واليمامة معانٍ أخرى جديدة، وأصبحت صورة هِرْمِز والكبش على كتفه رمزاً للراعي الصالح يحمل الخراف الضّالة، بينما صوّرت صورة المصلّين وهم يصلّون بين أزهار الفردوس كأنها رمز للرجاء الوطيد المضمون في خلود الرّوح.

وعندما انتصر المسيحيون المضطهدون في القرن الرّابع الميلاديّ، طفر الفن طفرة ليتوّج نصر المسيحيّة، وظهرت الكنائس إلى عالم الوجود بفضل عطف الملوك في كل مكان، وبدا لمنشئيها أنّ الرمزيّة القديمة أكثر سطحيّة واضطراباً من أن تصلح لتجميل الكنائس. لقد انقضى شتاء المسيحية وأقبل ربيعها، وكان لا بدّ من رواء فخم يناسبه.

وأعادت رومة الجديدة سيادة الدَّولة الرومانية بعد اضمحلال مدينة رومة في القرن الثالث الميلاديّ، فأضافت الألوان ومهارة الزخرفة التي تُضفي على الفخامة الإمبراطورية لباساً جديداً من الأبهة، وأضاف الناس إلى تصاوير الحيطان فنّ الفسيفساء الحائطية وتوسّعوا فيه، لأنه كان أقدر على التأثير في النفس وأوسع مجالاً وأدق خطوطاً، ولأن رسومه تُرى واضحة عن بعد: فنّ يحتاج إلى مجالٍ واسع، ولا بدّ له من فن المهندس المعماريّ حتى يرقى وينمو.

بيد أنّ العاصمة الجديدة قامت وسط بلاد تتكلم الإغريقية، وكانت النزاعات الإنسانيّة الإغريقية النماذج العظمية للجمال الإنساني التي ابتدعها الخيال الهليني، لا تزال ذات أثر عظيم إلى جانب فنون الزّخرف والتلوين الشرقيَّة. فقد تجمّعت في رومة الجديدة إلى جانب المخلّفات المقدّسة للديانة المسيحية روائع العالم الوثني، وأصبحت القُسْطَنْطينيَّة مُتحفاً ومدرسة للفن لا تُجارى. وكان للكنيسة إذ ذاك قصص عظيم تريد أن تحكيه: فقد أرادت أن يسجِّل بطولات الفدائيين، وثبات الشهداء في وجه التعذيب والموت، بل أرادت أن تصبح جدران هياكلها إنجيلاً مزيناً بالرسوم للمتنصِّرين الأميين، وتاريخاً مصوّراً لقصّة الفداء.

ورفضت الكنيسة أن تقنع بالزينة وحدها، ففي الفن الجديد المعقّد الذي سارت به رومة الجديدة للأمام متّسع في الحقيقة لكل شيء، كان فيه متّسع للعناصر التصويرية لمدرسة الإسكندرية، وكذلك للطبيعة وما فيها من أشجار الكروم والأشجار المختلفة الأخرى، ولمشاهد الألعاب الوثنية، والمناظر الريفية وللحيوانات وألعاب الأطفال المعدَّة على شواطىء الأنهار، ولكل صور الخيال المبدع، ومشاهد المواكب الفخم والقوة، ومتّسع للتلوين ولفخامة النقش الفارسي المتداخل الخطوط المعقّد التفاصيل، ومتّسع أيضاً لهذه النماذج النبيلة التي أبدعتها الروح اليونانية الإنسانية، بينما أخذت الإمبراطورية ما استطاع الشرق تقديمه في فن العمارة، ورفعته إلى طبقة جديدة، حتى بلغ أوجه في كنيسة القُسْطَنْطينيَّة الكبرى. وكانت القُسْطَنْطينيَّة في القرنين الرابع والخامس الميلادي واحدة من المراكز التي تؤثر في غيرها، وكما أنّ القرن الخامس الميلادي شهد انتصار سياسة التركيز في المسائل الدِّينية، فقد أخذ تأثير القُسْطَنْطينيَّة يتزايد بالتدريج في دائرة الفن لسببين: أنّ المراكز الأخرى كانت تسعى وراء هبات إمبراطورية لكنائسها وأبنيتها المدنيّة، والسبب الثَّاني هو أنّ الأباطرة كانوا يرغبون عامدين في نشر تأثير العاصمة. وعلى الرّغم من أنّ البنائين كانوا ينتمون

إلى مراكز كثيرة، فقد اتجهوا إلى تحقيق غاية واحدة، ما داموا يخدمون سيِّداً واحداً. وفي زمن جستنيان لم تكن القُسْطَنْطينيَّة تخشى أيّ منافس، فقد نقل الغرب كنائس رومة الجديدة، كما كان يتبع سابقاً الأنموذج الذي قرّره بيت المقدس من قبل. وإذا قلنا إنّ القُسْطَنْطينيَّة قبست القبّة وأسلوب الزّخرفة القائم على الرخام الكثير الألوان من الشرق، فإننا نلمس المهارة الإغريقية في الطريقة التي استعملت فيها القباب المعلّقة، حيث كان في الإمكان إقامة القبّة المستديرة على قاعدة مستطيلة، برشاقة جعلتها تبدو كما لو كانت معلّقة بالسماء. وكان هذا الفن جريئاً إلى حدّ عظيم مكّنه من أن يدخل في العمارة موضوعات جديدة، كآلام المسيح الذي تردّد أهل العصور التي سبقته في تصورها، وتكوّنت في هذه المدّة نماذج الصور المقدّسة، كصور المسيح والعذراء والأنبياء والرّسل، بينما أحيا الفن الدنيوي الذي عفت آثاره لسوء الحظ، انتصارات جستنيان الإمبراطورية وقوّاده.

وبينما كان الطراز التاريخي الذي شاع في عصر جستنيان متجهاً إلى الاضمحلال، شجّع الأباطرة فناً دنيوياً وطبيعياً، ذلك الفن الذي رجع إلى حدٍّ كبير إلى الماضي يستوجبه، فتحول الفنانون إلى الريف والحياة الحيوانية، وإلى المدن والملاعب، وإلى الواقعية في تصوير الأشخاص.

وقد ضاعت معظم آثار الفن البيزنطي المدني، ولكن كثيراً ما كان يميّز الإمبراطورية البيزنطية عن غيرها تمييزاً واضحاً - وهو فن الكنائس - لا يزال باقياً. وقد بلغت القُسْطَنْطينيَّة أعلى درجات تقدّمها الفني في ميدان العمارة بما تتميّز به من إدراك مجيد للألوان في فسيفساء الحوائط والتّلبيس بالرخام، ويلي هذا ذلك الكمال الفني الذي يرقى على الغاية فيما ينبغي أن نسميه بالفنون (الصغرى)، كالحفر على العاج، ورسم المُنَمْنَمات، والتزيين بالمينا، وما ابتدعته من الرسوم على النسيج.

وكثيراً ما أزرى الناس بالفن البيزنطي، بحجة أنه منحط وعديم

الحياة، ولكن ظهر في السنين الأخيرة اتجاه متزايد لتقدير قيمته الباقية وأهميته[1].

د ـ القانون الرومانيّ:

القانون الروماني هو أكثر أعمال الرّوم أصالة، وأعظم ما أهدوه لمن أتى بعدهم من الناس. وكان من شأن روح النظام الروماني وروح المحافظة الرومانية، أن ارتفعا بهذا الأثر المهم وحفظاه من الزوال على مرّ القرون. ونجد اسم جستنيان المشرّع مألوفاً لدى الكثيرين ممن لا يعرفون شيئاً من التاريخ البيزنطي كاسم معروف متداول.

وإذا أردنا أن نتتبّع تطوّر ذلك القانون زمن أباطرة الرّوم الشرقيين، استطعنا أن نميِّز أربعة أدوار رئيسية:

١) . دور التّقنين الذي بدأ زمن دقليديانوس وبلغ ذروته في عمل جستنيان.

٢). دور تشريعات الأباطرة اللاّإيقونيين.

٣). دور الرّجوع إلى قانون جستنيان زمن الحكّام المقدونيين.

٤). دور الاضمحلال.

وينبغي ألاّ يغيب عنّا أنّ القانون في ذلك الحين، كان تعبيراً عن إرادة الحاكم، فقد كان الحاكم ينفرد برأيه ويختصّ نفسه بالتشريع.

عندما حلّ القرن الثالث الميلادي، كان عصر البناء والإنشاء، بالنسبة للمشرّعين الرومان قد أشرف على النهاية. وفي زمن دقليديانوس بدأ عصر التقنين في تاريخ القانون الروماني، وقد جمعت حوالي هذا الوقت القوانين الأساسيّة التي أصدرها الأباطرة منذ هدريان حتى دقليديانوس. وتمت بُعَيْد

---

(١) الإمبراطورية البيزنطية (٢٣١ ـ ٢٥٢).

هذا الوقت مجموعة أخرى للقوانين التي أصدرها دقليديانوس. ويظهر أنّ ثيودوسيوس الثّاني في سنة (٤٢٩ م) قد خطرت له فكرة عمل قانون عام، ولكنه انصرف عن مشروعه، ولكنّ مجموعة من القوانين الأساسية الإمبراطورية صُنِّفت على أيدي لجنة عيّنت سنة (٤٣٥ م)، ونشرت هذه المجموعة سنة (٤٣٨ م)، وأصبح قانون ثيودوسيوس نافذاً في الغرب والشرق في سنة (٤٣٩ م).

غير أنّ تصنيف هذا القانون الجديد لم يوقف تيّار التشريع الإمبراطوريّ، واستمرّ الأباطرة يصدرون القوانين. ومن هنا نجد أنّ الغموض والتناقض قد تسرّب إلى كيان القانون الروماني. وقد شكا جستنيان من ذلك، وأخذت القضايا أمام المحاكم تؤجّل إلى ما لا نهاية له، وأخذت الأحكام لا تعتمد على موادٍ ثابتة قدر اعتمادها على أهواء القضاة التّعسفيّة.

وكان جستنيان يعتقد أنّ الإمبراطور يحمل عبء واجب مزدوج، فقد كان عليه أن يكون القائد الفاتح والمشرِّع الأعلى في الوقت ذاته، فإذا كانت القُسْطَنْطينيَّة قد اتّسعت كثيراً عن طريق انتصارات جيوشها وعَدل قوانينها، فواجبه كوارث لماضي رومة أن يكون جديراً بهذا التراث المزدوج، ولم يكن له مفر والحالة هذه من عمل حصر كامل للقانون الروماني.

وقد وجد الإمبراطور في وزير القضاة (إكْوِستر القصر) تريبونيان رجله المنشود، فعهد إليه في رئاسة لجنة مهمتها جمع القوانين التي أصدرها أباطرة الرومان وتنسيقها وحذف المتشابه منها واستخلاص مجموعة قانونية واحدة منها. وقد وفّقت اللجنة في عملها، فصدرت في شهر نيسان (أبريل) من سنة (٥٢٩ م) مجموعة جستنيان القانونية التي وضعت على أساس تشريعات جريجوريان وهيرموجيان وثيودوسيوس، وضمّت كذلك قوانين الأباطرة المتأخرين التي كانت لا تزال نافذة، وقد

نفّذ العمل في أقصى سرعة، ولم يكن المندوبون العشرة في حاجة لوقت يزيد كثيراً عن سنة لإنجازه.

ولكن أصالة جستنيان الحقيقيّة ظهرت في إنشاء الموجز (الدايجست)، فندب لذلك ستة عشر مندوباً جُدُداً، وكلّفهم في سنة (٥٣٠م) بأن يعملوا مجموعة مختارة من أعمال المشرّعين العظام، يستطيع المحترف وغير المحترف الاستفادة منها، وقدّر لإتمام هذا العمل عشر سنوات، ولكنّه تمّ في مدى ثلاث سنين، فقد نُشر ذلك الموجز على الملأ في كانون الأول (ديسمبر) سنة (٥٣٣ م)، وهكذا أقيم في (١٥٠،٠٠٠) سطر ـ على حد قول الإمبراطور ـ معبد للعدالة الرومانية.

وقد فاق هذا المجموع المستخلص من أعمال المشرّعين الرومان الأصول التي استخلص منها، ومن الطبيعي أن نتوقع أن يكون هناك نقص كبير في تأليفه، نظراً لقصر الوقت الذي استلزمه تصنيفه، وقد قيل الكثير في نواقصه، ولكن لا يجب ألاّ يغيب عن النّاقد أنّ موهبة التّشريع كانت قد اختفت في البلاد الرومانية، حتى كان القضاة يكتفون بالاستفادة من مؤلفات قدماء المشرّعين بِعَدّ عناوينها عَدّاً حسابياً، وأصبح مجرّد ذكر عدد المؤلفات التي استعان بها المحامي كافياً لِكَسبه القضيّة.

وتبدو عظمة جستنيان في الواقع كمشرّع في إدراكه أنّ قانون أيّة أمة هو تطوّر عضوي يوجز تاريخ تلك الأمة، وعلى الرغم من رغبته في تبسيط الإجراءات القانونية الرومانية، وفي إضفاء إنسانية أكبر على عدالة الرّوم، فإنه لم ينشىء كتاباً موجزاً عملياً فحسب، بل تعدّى ذلك إلى ما هو أعظم منه، وخلق عملاً لا نصفه بأحسن من وصفه هو له بقوله: إنّ قانونه ☐ كالقعلة تحمي خلف جدرانها كنوز الماضي من عاديات الزمن الحسود، وهو يكشف لأمم الغرب البربريّة في الوقت المناسب فكرة دولة تقوم على أساس من القانون ❋. وقد أصدر جستنيان في تشرين الثّاني (نوفمبر) في سنة (٥٣٣ م) مقدمة للقانون الروماني ـ سميت النُّظُم ـ

صيغت على نمط كتيِّب سابق للمشرِّع جايوس، ولكنّها تضمّ التغييرات التي طرأت على القانون نتيجة لتشريعات إمبراطورية تالية. وهكذا أُحِلَّ القانون الجديد في سنة (٥٢٤ م) محل قانون سنة (٥٣٠ م)، ولم يبق اليوم بين أيدينا إلاّ هذه النسخة الأخيرة. ولا يزال لدينا ما يقرب من ستمائة قانون من قوانين جستنيان الأساسية، ونشاطه القانوني واضح في كل مجال، وقد قرّر الإمبراطور أنه اتخذ لنفسه ثلاث قواعد سار عليها في تحقيق إصلاحاته وهي: (الإنسانية) و(المنطق الطبيعي) و(المنفعة العامَّة).

وبالرغم من أنّ أباطرة القرن السابع الميلادي كانوا يصدرون قوانين من وقت لآخر، فقد كانت هذه تتعلّق بصفة رئيسية بالإدارة العامَّة، أو بعلاقة الكنيسة بالدَّولة. ولم تحدث تغييرات واسعة النِّطاق في القانون الخاص إلاّ في عصر الأباطرة اللاإيقونيين. وأذيعت (الإكلوجا Ecloga) في سنة (٧٣٩ م)، وهي مختارات من القانون أخذت من تشريع جستنيان بعد إجراء تعديلات في اتّجاه أكثر إنسانيّة، ولكن باسيل المقدوني ألغى أو قلَب أكثر هذه التطوّرات رأساً على عقب، فقد رجع مرة أخرى إلى قانون القرن السادس للميلاد.

وفي وقت ما بين (٨٧٠ م) و(٨٧٩ م)، أُذيع كُتَيِّب جديد يسمى (بروخيرون Procreiron) ليحلّ محلّ (الإكلوجا)، بينما عُيِّنت لجنة لتُعِدّ مجموعة قانونية أخرى كاملة، بعد أن تستبعد من القوانين تلك الأجزاء الشّاذة التي أدخلَها محطموا الصور (اللاّإيقونيون) الهراطقة. وقد جمع بين سنة (٨٧٩ م) و(٨٨٦م) كُتيِّب آخر مُتَّضح، ولكنه على ما يُرجّح لم يقدّر له أن تقرّه الدَّولة. وإننا لنشك فيما إذا كانت مجموعة باسيل التي تقع في أربعين جزءاً قد قدِّر لها أن تُنشر، ومن المؤكد أننا لا نملك إلاّ القانون المسمى (البازيليكا) (الأوامر الإمبراطورية) والذي يقع في ستين كتاباً، وقد أذاعه ليو السادس الذي خلف باسيل المقدوني، وحتى هذا القانون لم يصل إلينا كاملاً، وكانت مؤلفات جستنيان لا تزال تدرس حتى بعد أن

صدرت البازيليكا، وخصوصاً في القرن الحادي عشر للميلاد، عندما أسس قسطنطين مُنوما خوص في سنة (١٠٤٥ م) مدرسة للقانون في القُسْطَنْطينيَّة، ولكن كان نشاط هذه المدرسة قصير المد. وفي نهاية القرن الثَّاني عشر للميلاد، أخذت وجهة النظر القائلة بأن البازيليكا وحدها التي كانت تمثّل القانون المعمول به تلقى تأييداً. وحينما أخذ علم القانون يضمحلّ، توقّف تطوّر القانون الروماني الخاص، وكان ذلك بعد حكم ليو السادس. ثم جاء بعد ذلك دور الكُتيبات والمختصرات، وأهملت البازيليكا، وبلغ الاضمحلال أقصاه عند ظهور (الهيخاببلوس Hexabiblos) أي (الكتب الستة) التي أُلِّفت سنة (١٣٤٥ م)، وقد وصفها بعضهم بقوله: إنها موجز لموجزات الموجزات، وأصبح القانون الروماني في أيامه الأخيرة: خلط قريب من الكفر.

وكانت المؤثّرات الرئيسية التي أثّرت في تطوّر القانون الروماني في عصوره المتأخرة التي سبقت دور الاضمحلال.

١). تأثير العاطفة المسيحية العامَّة.

٢). تأثير الكنيسة كهيئة كانت تعبّر عن إرادتها في صورة قوانين تصدرها المجالس والمجامع الدِّينية.

٣). العادات الجارية وخصوصاً في الولايات الشرقيَّة.

ومن الطبيعي أن يمتزج بعض هذه العوامل ببعض بصورة دائمة، وقد يكون من الصعب في أيّة حالة خاصة أن نعيِّن لأيّ منها كان التأثير الغالب في هذه الناحية أو تلك.

وعن طريق الدراسة الوثيقة لأوراق البردي، نستطيع أن نتبيّن أن وحدة القانون الروماني وطابعه العالميّ وسريان العمل به في أنحاء الإمبراطورية كلّها، إنما كانت مُثُلاً عُليا للأباطرة لم يُقَدَّر لها في حالة التطبيق أن تتحقق تحقيقاً كاملاً.

وكل ما نستطيع أن نتبيّنه الآن، هو أنّ قوى العادات الموروثة كان لها ردّ فعل ضدّ مجهودات الدَّولة المركزية، التي أرادت من ورائها فرض قانون واحد على جميع الرعايا على السّواء، وكانت تلك هي غاية جميع الأباطرة الذين خلفوا قسطنطين[١].

هـ ـ الحضارة:

ما هو الطّابع الأساس لهذه الحضارة البيزنطية؟ طالما قيل: إن دولة رومة الشرقيَّة كانت إمبراطورية شرقية على وجه التحديد. والواقع أن رومة الشرقيَّة تشرّبت عناصر شرقية كثيرة في الفن والقانون الجنائي وحتى في نظرتها إلى الحكم. إلاّ أن طابع الحضارة الأساس للقسطنطينية لم يقتصر على الشرق وحده، بل يشمل امتزاج عنصرين موروثين: العنصر اليوناني الذي اتّسمت به مدن شرقي البحر الأبيض المتوسط الإغريقية، والعنصر الروماني الذي تلقته رومة الجديدة من الإمبراطورية الرومانية الأولى، وقد كان امتزاج هذين العنصرين الموروثين تاماً إلى حدٍّ لا نستطيع معه تمييز عناصر أحدهما عن عناصر الآخر.

على أننا يمكننا أن نقول بوجه عام: إنّ رومة الشرقيَّة كانت يونانية في اللغة والأدب وعلم اللاّهوت والديانة، وإنّ إحساسها بذلك كان تاماً واعياً. أما فيما يتّصل بقانونها وتقاليدها العسكريَّة وديبلوماسيتها وسياستها المالية وتمسّكها الدائم بسيادة الدَّولة، فقد كانت رومانيّة.

ومع ذلك يبقى تأثير الشرق في الإمبراطورية البيزنطية واضحاً للعيان، لا ينكره البيزنطيون أنفسهم، ولا ينكره منصف من غيرهم، ولكن ليس الشرق هو المؤثر الأول والأخير كما يزعم قسم من الباحثين، لأن تأثير الغرب فيها واضح للعيان أيضاً لا ينكره البيزنطيون ولا ينكره منصف من غيرهم، فالحضارة البيزنطية شرقية غربية، مزيج بين الشرق والغرب:

---

(١) الإمبراطورية البيزنطية (٢٥٣ ـ ٢٧٣).

جديد الشرق، وتليد الغرب[1].

ومن حق القارىء أن يعرف، أنّ قسمي الزراعة والتجارة من بحث الموارد الاقتصادية، وبحث: تاريخ بلاد الرّوم قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه مقتبسة من كتاب: الإمبراطورية البيزنطية[2]، الذي ألفه نورمان بينز وعرّبه الدكتور حسين مؤنس والأستاذ محمود يوسف زايد، وقد ذكرت هذا المصدر في هوامش هذه الدراسة، إلاّ أن الأمانة العلمية وواجب الشكر العميق للمؤلف والمعربين الأفاضل حملني على تفصيل هذا الشكر والاقتباس في هذا المكان.

وبعد هذا العرض التاريخي للموارد الاقتصادية البيزنطية، وللتاريخ البيزنطي منذ قيام القُسْطَنْطينيَّة إلى سقوطها، يتّضح بجلاء وبشكل لا شك فيه، أنّ الدَّولة البيزنطية كانت إحدى الدولتين العُظْمَيَيْن في العالم: الدَّولة البيزنطية، والدَّولة الساسانية، وأنّها كانت أقوى الدولتين في أيام الفتح الإسلامي، لأنّ هِرَقل إمبراطور الرّوم انتصر على السّاسانيين انتصارات حاسمة واستردّ البلاد التي كان الساسانيون قد اغتصبوها من الرّوم، كما أنّ حضارة الرّوم كانت أرقى حضارة عالمية في وقتها، وكان جيشها عريقاً في تنظيمه وتدريبه وتسليحه وقيادته، كما كان يتحلّى بالمعْنَوِيَّات العالية لانتصاره على السّاسانيين، وما كان العرب قبل الإسلام في ميزان القوى والحضارة ينافسون الرّوم ولا يحلمون بمنافستهم، وما كان الرّوم ضعفاء قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه المجيدة.

أما بعد الإسلام، فقد انتصرت الفئة القليلة من العرب المسلمين على الإمبراطورية البيزنطية في: بلاد الشّام والجزيرة ومصر وشمالي إفريقية: وهدّدوا الرّوم في عقر دارهم!!

كيف حدثت المعجزة؟! ذلك ما نعالجه في فتح بلاد الرّوم وشيكا.

---

(١) الإمبراطورية البيزنطية (٣١٤ - ٣١٥).

(٢) Norman H. Baynes, The Byzantine Empire, London 1946.

أباطرة الرّوم

من قسطنطين الأول إلى قسطنطين الحادي عشر

١ ـ أسرة قسطنطين:

قسطنطين الأول الكبير	توفى سنة ٣٣٧
قنسطنطوس	٣٣٧ ـ ٣٦١ حكم منفرداً بعد سنة ٣٥١
يوليان المرتدّ	٣٦١ ـ ٣٦٣ حكم منفرداً
يوفيان Javian	٣٦٣ ـ ٣٦٤ حكم منفرداً
فالنس	٣٦٤ ـ ٣٧٨

٢ ـ أسرة ثيودوسيوس:

ثيودوسيوس الأول، الكبير	٣٧٩ ـ ٣٩٥ حكم منفرداً بعد سنة ٣٩٢
أركاديوس	٣٩٥ ـ ٤٠٨
ثيودوسيوس الثّاني	٤٠٨ ـ ٤٥٠ كان انثيميوس وصيّاً من سنة ٤٠٨ ـ ٤١٤.
مارقيان Marcian	٤٥٠ ـ ٤٥٧

٣ ـ أسرة ليو:

ليو الأول	٤٥٧ ـ ٤٧٤
ليو الثّاني	٤٧٤
زينون	٤٧٤ ـ ٤٩١، باسيليكوس المغتصب ٤٧٥ ـ ٤٧٦
أناستاسيوس الأول	٤٩١ ـ ٥١٨

٤ ـ أسرة جستنيان:

جستين الأول	٥١٨ ـ ٥٢٧.
جستنيان الأول	٥٢٧ ـ ٥٦٥.
جستين الثّاني	٥٦٥ ـ ٥٧٨، صوفيا وصيّة من ٥٧٣ إلى ٥٧٤، وطيبتريوس
وصيّاً من	٥٧٤ ـ ٥٧٨.
طيباريوس الثّاني	٥٧٨ ـ ٥٨٢.

موريس	٥٨٢ ـ ٦٠٢، ثيودس شريك في العرش ٥٠٩ ـ ٦٠٢
فوكاس Phocas	٦٠٢ ـ ٦١٠

٥ ـ أسرة هرقل:

هرقل الأول	٦١٠ ـ ٦٤١، قسطنطين الثالث ٦١٣ ـ ٦٤١. وهرقليوناس ٦٣٨ ـ ٦٤١
قسطنطين الثالث	٦٤١ مارتينة Mertina وصية ٦٤١.
قنسطانز الثَّاني	٦٤١ ـ ٦٦٨ وهرقل وطيباريوس ٦٥٩ ـ ٦٨١
قسطنطين الرابع	٦٦٨ ـ ٦٨٥
جستنيان الثَّاني	٦٨٥ ـ ٦٩٥
ليو نتيوس	٦٩٥ ـ ٦٩٨
طيباريوس الثالث	٦٩٨ ـ ٧٠٥
جستنيان الثَّاني	٧٠٥ ـ ٧١١ للمرة الثَّانية طيباريوس ٧٠٦ ـ ٧١١
فليبكوس	٧١١ ـ ٧١٣، وباردانس Bardanes معه.
انساسيوس الثَّاني	٧١٣ ـ ٧٥٠ وأرتميوس (Artemius).
ثيودوسيوس الثالث	٧١٥ ـ ٧١٧

٦ ـ الأسرة الايسوريّة

ليو الثالث، الايسوري	٧١٧ ـ ٧٤٠ وقسطنطين الخامس ٧٢٠ ـ ٧٤٠
قسطنطين الخامس	٧٤٠ ـ ٧٧٥ وليو الرابع ٧٥٠ ـ ٧٧٥
ليو الرابع	٧٧٥ ـ ٧٨٠ وقسطنطين السادس ٧٧٦ ـ ٧٨٠
قسطنطين السادس	٧٨٠ ـ ٧٩٧ إيريني وصية ٧٨٠ ـ ٧٩٠، ٧٩٢ ـ ٧٩٧.
إيريني	٧٩٧ ـ ٨٠٢
نقفور الأول	٨٠٢ ـ ٨١١
ستوركسيوس	٨١١
ميخائيل الأول	٨١١ ـ ٨١٣
ليو الخامس الأرمني	٨١٣ ـ ٨٢٠

٧ ـ الأسرة العموريّة (الفريجيّة):

ميخائل الثَّاني، العموري	٨٢٠ ـ ٨٢٩ وثيوفيلوس ٨٢١ ـ ٨٢٩
ثيوفيلوس	٨٢٩ ـ ٨٤٢
ميخائيل الثالث، السكير	٨٤٢ ـ ٨٦٧ وثيودرا وصية ٨٤٢ ـ ٨٥٦
	وباراس وصياً ٨٦٢ ـ ٨٦٦
	وباسيل الأول ٨٦٦ ـ ٨٦٧

٨ ـ الأسرة المقدونية:

باسيل الأول المقدوني	٨٦٧ ـ ٨٨٦ وقسطنطين ٨٦٩ ـ ٨٨٠
	وليو السادس ٨٧٠ ـ ٨٨٦
	والإسكندر ٨٧١ ـ ٩١٢
ليو السادس الحكيم	٨٨٦ ـ ٩١٢ وقسطنطين السابع ٩١١ ـ ٩١٣
الاسكندر	٩١٢ ـ ٩١٣
قسطنطين السابع، الأرجواني	٩١٣ ـ ٩١٩ ومجلس وصاية ٩١٣ وصية ٩١٣ ـ ٩١٩
رومانوس الأول	٩١٩ ـ ٩٤٤ وقسطنطين السابع ٩١٩ ـ ٩٤٤
	وكرستوفر ٩٢١ ـ ٩٣١
	وستيفن ليكابينوس ٩٢٤ ـ ٩٤٥
قسطنطين السابع، بورفير وجينتوس	٩٤٤ ـ ٩٥٩ درومانوس الثَّاني حوالي ٩٥٠ ـ ٩٥٩
رومانوس الثَّاني	٩٥٩ ـ ٩٦٣ وباسيل الثَّاني ٩٦٠ ـ ٩٦٣
	وقسطنطين الثامن ٩٦١ ـ ١٠٢٥
باسيل الثَّاني: سفاح البلغار	٩٦٣، ثيوفانو وصية ٩٦٣
نقفور الثَّاني، فوكاس	٩٦٣ ـ ٩٦٩، وباسيل الثَّاني ٩٦٣ ـ ٩٧٦
يوحنا الأول	٩٦٩ ـ ٩٧٦
باسيل الثَّاني: سفاح البلغار	٩٧٦ ـ ١٠٢٥
قسطنطين الثامن	١٠٢٥ ـ ١٠٢٨

رومانوس الثالث:	
أرجيروس	١٠٢٨ ـ ١٠٣٤
ميخائيل الرابع	١٠٣٤ ـ ١٠٤١
ميخائيل الخامس:	
الشماع	١٠٤١ ـ ١٠٤٢
زوي وثيودورا،	
الأرجوانيتان	١٠٤٢
قسطنطين التاسع	١٠٤٢ ـ ١٠٥٥
ثيودورا، الأرجوانية	١٠٥٥ ـ ١٠٥٦
ميخائيل السادس	١٠٥٦ ـ ١٠٥٧
إسحٰق الأول،	
كومنينوس	١٠٥٧ ـ ١٠٥٩

٩ ـ أسرة دوكاس:

قسطنطين العاشر:	
دوكاس	١٠٥٩ ـ ١٠٦٧، وميخائيل السابع
حوالي	١٠٦٠ ـ ١٠٦٧
ميخائيل السابع	١٠٦٧ ـ ١٠٦٨، واندوخيا وصيّة ١٠٦٧ ـ ١٠٦٨
رومانوس الرابع،	
ديوجينيس	١٠٦٨ ـ ١٠٧١ وميخائيل السابع ١٠٦٨ ـ ١٠٧٨
ميخائيل السابع	١٠٧١ ـ ١٠٧٨
نقفور الثالث	١٠٧٨ ـ ١٠٨١

١٠ ـ أسرة كومنين

ألِكسيون الأول،	
كومنينوس	١٠٨١ ـ ١١١٨ قسطنطين دوكاس ١٠٨١ ـ حوالي ١٠٩٠، ويوحنا الثّاني ١٠٩٢ ـ ١١١٨

يوحنا الثَّاني،

كالوجوهانيز	١١١٨ ـ ١١٤٣، وألكسيوس ١١١٩ ـ ١١٤٢
مانويل الأول	١١٤٣ ـ ١١٨٠، والكسيوس الثَّاني ١١٧٢ ـ ١١٨٠
الكسيوس الثَّاني	١١٨٠ ـ ١١٨٣ ومارية الأنطاكية وصية ١١٨٠ ـ ١١٨٢ وأندرونيكوس الأول ١٨٢ ـ ١١٨٣
أندرونيكوس الأول	١١٨٣ ـ ١١٨٥

١١ ـ أسرة أنجيل:

إسحٰق الثَّاني، أنجيلوس	١١٨٥ ـ ١١٩٥
الكسيوس الثالث	١١٩٥ ـ ١٢٠٣
الكسيوس الرابع	١٢٠٣ ـ ١٢٠٤ وإسحٰق الثَّاني ١٢٠٣ ـ ١٢٠٤
ألكسيوس الخامس	١٢٠٤

١٢ ـ أسرة الأشاكرة:

(إمبراطورية نيقية، ١٢٠٤ ـ ١٢٦١)

ثيودور الأول الأشكري	١٢٠٤ ـ ١٢٢٢
يوحنا الثالث، دوكاس فاتاتزيس	١٢٢٢ ـ ١٢٥٤
ثيودور الثَّاني الأشكري	١٢٥٤ ـ ١٢٥٨
يوحنا الرابع، دوكاس فاتاتزيس	١٢٥٨

١٣ ـ أسرة باليولوجوس:

ميخائيل الثامن،

باليولوجوس	٥٨ ـ ١٢٨٢ وأندرونيكوس الثَّاني ١٢٧٢ ـ ١٢٨٢
أندرونيكوس الثَّاني	١٢٨٢ ـ ١٣٢٨ ـ ، وميخائيل ١٢٩٥ ـ ١٣٢٠ وأندرونيكوس الثالث ١٣٢٥ ـ ١٣٢٨.
أندرونيكوس الثالث	١٣٢٨ ـ ١٣٤١.

يوحنا الخامس ١٣٤١ ـ ١٣٤٧، وحنة أميرة سافوي وصية ١٣٤١ ـ ١٣٤٧.

يوحنا السادس، كانتاكوزيني ٤٧ ـ ١٣٥٥، ويوحنا الخامس ١٣٤٧ ـ ١٣٥٥.
اتيوكانتاكوزيني ١٣٤٨ ـ ١٣٥٥.

يوحنا الخامس	١٣٥٥ ـ ١٣٧٦.
اندرونيكوس الرابع	١٣٧٦ ـ ١٣٧٩ ويوحنا السابع ١٣٧٦ ـ ١٣٩٠.
يوحنا الخامس	١٣٧٩ ـ ١٣٩٠ واندرونيكوس الرابع ١٣٧٩ ـ ١٣٨٥
ومانويل الثَّاني	١٣٧٦ ـ ١٣٩١
يوحنا السابع	١٣٩٠
يوحنا الخامس	١٣٩٠ ـ ١٣٩١
مانويل الثَّاني	١٣٩١ ـ ١٤٢٥، ويوحنا السابع ١٣٩٩ ـ ١٤١٢
ويوحنا الثامن	١٤٢٣ ـ ١٤٢٥
يوحنا الثامن	١٤٢٥ ـ ١٤٤٨
قسطنطين الحادي عشر، دراجاسيس	١٤٤٨ ـ ١٤٥٣

ملاحظة:

كان بعض أباطرة الدَّولة البيزنطية يشتركون في الحكم كشركاء للإمبراطور القائم أو معاونين له قبل أن ينفردوا بالسلطان.

وقد وضعنا أسماءهم حين حكموا على هذه الصورة إزاء الأباطرة الذين شاركوهم في الحكم، ثم عدنا فكتبنا أسماءهم في قائمة الأباطرة الرئيسة عندما تولّوا الحكم.

أرجو ملاحظة ذلك عند دراسة هذه القائمة.

فتح بلاد الرّوم

١ ـ الموقف العام:

أ ـ كان العرب قبل الإسلام على صلة وثيقة بالرّوم حكومة وشعباً، فقد كان سكّان الجزيرة عرباً، وكانوا أغلب سكان هذا الإقليم الذي يقع بين النَّهرين: دجلة والفرات، وكانت الجزيرة تحت حكم الرّوم، كما ذكرنا ذلك في بحث: بلاد الجزيرة.

وكانت دولة الغساسنة العربيّة قبل الإسلام في جزء من بلاد الشَّام، وقد قامت هذه الدَّولة للرّوم مقام دولة المناذرة في العراق للفّرس، فكانت دولة حاجزة اتخذ الرّوم منها مجنّاً[١] يقيهم شرّ هجمات البدو عليهم من أطراف الصحراء من جهة، وليثيروهم ضدّ الفرس ويستعينوا بهم عليهم من جهة أخرى[٢]، فكان عرب الجزيرة والغساسنة على صلة قويّة وتعاون مستمر بالرّوم وبعرب الجزيرة العربيَّة وبخاصة تجّار قريش.

وقد ذكرنا في الحديث عن طرق التجارة البيزنطية التي تصل الشرق الأقصى ببلاد الرّوم وبالعكس، أنّ أحد تلك الطرق الثلاثة المهمّة ـ وهو طريق الهند والصين البحري عبر البحر الأحمر ـ يمرّ بمكة[٣] باعتبارها

---

(١) المجن: الترس.

(٢) كتاب: عصر ما قبل الإسلام ـ محمد مبروك نافع (١١١) ـ القاهرة ـ ١٩٥٢ ـ ط ٢.

(٣) انظر تفسيرها في: الكشاف (٣/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠) وابن كثير (٩/ ٣٠٤ ـ ٣٠٧) والبغوي (٩/ ٣٠٤ ـ ٣٠٧) والجامع.

مركزاً مهمّاً للتجارة قبل الإسلام، ويتّصل بتجارته أهل مكّة العاملون بالتجارة، ممّا يؤدي إلى التعارف والاتصال.

وفي سورة قريش المكيّة: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢﴾[1]، وكانت رحلة تجارة قريش إلى اليمن شتاءً لأنها دافئة، ورحلتهم إلى الشّام صيفاً لأنها باردة، فيمتارون ويتّجرون[2]، وكانت بلاد الشّام يومئذ من أملاك الرّوم، ممّا أدّى إلى اتصال العرب بالرّوم مباشرة في هذه الرحلة وفي التعاملات التجارية، فكان لقسم من تجّار قريش من أهل مكّة وتجّار الأوس والخزرج من أهل المدينة معرفة شخصية بحكّام الرّوم ومنهم الإمبراطور وبشعب الرّوم من التجّار ورجال الدِّين المسيحي، كما سيرد ذكره قريباً.

وقد سافر النبي ﷺ قبل أن يُبْعث مرتين إلى الشّام: مرة مع عمِّه أبي طالب في تجارته[3]، ومرة مع مَيْسَرَة غلام خديجة بنت خُوَيْلد بعد زواج النبي ﷺ بخديجة[4]، فعرف بلاد الشّام وعرف الرّوم.

وقصة الشاعر الجاهليّ امرىء القيس الذي قصد قيصر الرّوم يستمدّه معروفة، فلمّا صار امرؤ القيس إلى ملك الرّوم أكرمه ونادمه، واستمدّه فوعده ذلك، وقد وصف أمير الشعراء الجاهليين سفره إلى بلاد الرّوم ولقاءه بملك الرّوم في شعره الرائع، ولا تزال كتب الأدب تحفل بهذا الشعر المتين[5]، وهذا يدل على عمق الصلة بين العرب في جاهليتهم وبين الرّوم.

---

(١) الآيتان الكريمتان من سورة قريش (١٠٦: ١ ـ ٢).

(٢) انظر تفسيرها في: الكشاف (٣/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠) وابن كثير (٩/ ٣٠٤ ـ ٣٠٧) والبغوي (٩/ ٣٠٤ ـ ٣٠٧) والجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٢٠٠ ـ ٢٠٩) وفي ظلال القرآن (٣٠/ ٢٦٠ ـ ٢٦١).

(٣) سيرة ابن هشام (١/ ١٩٤).

(٤) سيرة ابن هشام (١/ ٢٠٣).

(٥) الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة (١/ ٦٠ ـ ٦٢) ـ لبنان ـ ١٩٦٤.

ب ـ وجاء الإسلام، فبدأ النبيُ ﷺ بالدعوة إليه سرّاً، ثم أصبحت الدعوة إلى الإِسلام علنيّة، فاشتدت قوة الإسلام والمسلمين بإقبال الناس على اعتناقه، حتى أصبح خطراً يتهدّد مصير المشركين من قريش في مكّة، وكان مولد الإسلام في ١٧ رمضان الموافق ٦ آب (أغسطس) من سنة (٦١٠ م)[١].

وكانت الحرب مستعرة بين الرّوم والفُرس، بدأت سنة (٦١٠ م) وانتهت سنة (٦٢٨ م)، وفي تلك الحرب انتصر الفرس على الرّوم في صفحتها الأولى، فاحتلوا إِرْمينِيَة والجزيرة وبلاد الشّام والقدس واستولوا على العود المقدس للصليب، واحتلوا مصر والعراق وهاجموا القُسْطَنْطينيَّة واحتلّوا مناطق شاسعة من آسيا الصغرى، واستمرّت انتصارات الفرس على الرّوم حتى سنة (٦٢٢ م)، حيث أعاد الرّوم الكرّة على الفرس، فاستعاد الرّوم إرمينية، وانتصروا على الفرس في معركة (نَيْنَوَى) الحاسمة سنة (٦٢٧ م)، وفي سنة (٦٢٨ م) كتب ملك الفرس إلى هِرَقل ملك الرّوم يطلب الصّلح، فصالحه هِرَقل على شروط أهمها: العودة إلى الحدود القديمة، وإطلاق الأسرى، وإرجاع الصليب المقدّس، فقبل شيرويه ملك الفرس هذه الشروط[٢]. واحتدم الجدل بين المسلمين الأولين السابقين إلى الإسلام بمكة قبل الهجرة وبين المشركين، ولما كان الرّوم أهل كتاب دينهم النصرانية، وكان الفرس غير موحّدين ديانتهم المجوسيّة، فقد وجد المشركون من أهل مكّة في الحادث فرصة لاستعلاء عقيدة الشِّرك على عقيدة التوحيد، وفألاً بانتصار مِلّة الكفر على مِلّة الإيمان. ومن ثَمَّ نزلت الآيات الأولى من سورة الروم: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ

(١) سيرة خاتم النبيين (٤٣) ـ أبو الحسن الندوي ـ بيروت ـ ١٣٩٨ هـ ط ٢.
(٢) الروم ـ أسد رستم (١/ ٢٢٣ ـ ٢٢٧).

بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1] تبشّر بغلبة أهل الكتاب من الرّوم في بضع سنين غلبة يفرح بها المؤمنون، الذين يودون انتصار ملّة الإيمان من كل دين[2]. لقد كان المسلمون منحازين بعاطفتهم إلى الرّوم، أما كفّار العرب فكانوا يميلون إلى الفرس، وشبيه الشيء منجذب إليه، ولا أدلّ على ذلك من أنّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه راهنَ أُبيّ بن خَلَف وهو من وجوه كفّار قريش على مائة بعير أن الرّوم سينتصرون[3]. إنّ احتدام الجدل بين المسلمين والمشركين حول الرّوم، دليل على تطلّع الجانبين على أخبارهم وتتبّع تلك الأخبار واقتناصها، ولا يكون ذلك إلاّ لأهمية الرّوم في نفوس العرب بالرغم من تناقض عقيدتهم.

ج ـ وهاجر النبيُ ﷺ من مكّة إلى المدينة، وهاجر معه مَنْ هاجر من المسلمين، فازداد تماس المسلمين بالرّوم في السلام والحرب.

فقد أقبل دِحْيَة بن خليفة الكلبيّ[4] من عند قيصر الرّوم وقد أجاره وكساه، وكان من كبار صحابة رسول اللّه ﷺ، وفي طريق عودته إلى المدينة المنوّرة لقيه الهُنَيْد بن عارِض وابنه وعارض بن الهنيد في ناس من بني حذام قرب (حِسْمَى)، فقطعوا عليه الطريق، ولم يتركوا عليه إلاّ سَمَل ثوب، فسمع بذلك نفر من بني الضُّبيب، فنفروا إليهم، واستنقذوا لدحية متاعه.

وقدم دحية على النبيُ ﷺ، فأخبره بذلك، فبعث زيد بن حارثة الكَلْبيّ في خمسمائة رجل، وردّ معه دحية، فأدّبت سرية زيد بني جُذام

---

(١) الآيات الكريمة من سورة الروم (٣٠: ١ ـ ٥).
(٢) الروم ـ أسد رستم (١/ ٢٢٣ ـ ٢٢٧).
(٣) انظر تفسير الآيات الكريمة في ظلال القرآن (٢١/ ٢٠ ـ ٢٢) وصفوة التفاسير (٦: ١٢).
(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ٨٨) ومغازي الواقدي (٢/ ٥٥٥ ـ ٥٦٠).

وقتلت الهنيد وابنه[1]، وهذا يدل أنّ قسماً من صحابة رسول اللّه ﷺ كانت لهم علاقة بملك الرّوم، كما أن بادية الشَّام التي تقع فيها (حِسْمَى) كانت تحت نفوذ الغساسنة حلفاء الرّوم، ومهاجمة مَنْ فيها مهاجمة مباشرة للرّوم لأَن جذام حلفاؤهم.

وكانت سرية حِسْمَى في جمادى الآخرة من السنة السادسة الهجريَّة (٦٢٧ م).

وبعث النبيّ إلى (مؤتَة)[2] في جمادى الأولى سنة ثمان الهجريَّة (٦٢٩ م) زيد بن حارثة الكلبيّ في سريّة مؤلفة من ثلاثة آلاف مجاهد. وكان سبب بعث هذه السريّة، أنّ النبي بعث الحارث بن عُمَيْر الأزْدِي أحد بني لِهْبٍ إلى ملك (بُصْرَى)[3] بكتاب، فلمّا نزل مُؤتَة عرض له شُرَحْبيل بن عمرو الغَسَّانيّ فقتله، ولم يُقْتَلْ لرسول اللّه ﷺ رسولٌ غيره، فاشتدّ ذلك عليه، فندب الناسَ، فأسرعوا وعسكروا بالجُرْف[4]، فقال رسول اللّه ﷺ: أمير الناس زيد بن حارثة، فإن قُتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قُتل فعبد اللّه بن رَواحة، فإن قُتل فليرتَضِ المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم.

واستشهد القادة الثلاثة بالتعاقب، واصطلح الناس على خالد بن الوليد، فسحب قوات المسلمين من ميدان المعركة، لإنقاذهم من معركة خاسرة تجاه تفوّق العدو العَدَدِيّ والعُدَدِيّ[5].

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ٨٨) ومعازي الوافدي (٢/ ٥٥٥ ـ ٥٦٠).

(٢) مؤتة، قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٩٠) وهي بأدنى البلقاء دون دمشق، انظر طبقات ابن سعد (٢/ ١٢٨)، والبلقاء: هي الأردن الحالية.

(٣) بصرى: مدينة من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حَوْران، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٠٨).

(٤) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٨٦).

(٥) طبقات ابن سعد (٢/ ١٢٨ ـ ١٣٠) ومغازي الواقدي (٢/ ٧٥٥ ـ ٧٦٩).

وهكذا التقى المسلمون لأول مرة بقوات الغساسنة المتفوقة، والغساسنة حلفاء الرّوم الأقربون، ولقاؤهم كلقاء الرّوم لا فرق بينهما في شيء. ولم ينتصر المسلمون في هذه المعركة انتصاراً مادياً، بل انتصروا انتصاراً معنوياً، فأصبح لديهم خبرة بسكان المنطقة وأساليبهم القتاليّة وطبيعة أرضهم، وهذا ما انتفع به المسلمون في معارك الفتوح.

وفي رجب من السنة التاسعة الهجريَّة (٦٣٠ م) كانت غزوة تَبوك[(١)]، فقد بلغ رسول اللّه ﷺ أنّ الرّوم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشَّام، وأنّ هِرَقل إمبراطور الرّوم قد رزق أصحابَه لِسَنَة، وأجلبت معه لَخْم وجُذام وعامِلة وغسّان، وقدّموا مقدِّماتهم إلى البلقاء، فسار عليه الصلاة والسلام على رأس ثلاثين ألف مجاهد إلى تبوك منهم عشرة آلاف فارس. وكان الرّوم قد أكملوا تحشّد قواتهم المؤلفة من جنودهم النظاميين ومن القبائل العربيَّة الموالية للرّوم في تبوك قبل وصول المسلمين إليها، ولكنّ المعلومات التي وصلت إليهم عن ضخامة جيش المسلمين ومعنوياتهم العالية اضطرّت الرّوم إلى الانسحاب من تبوك شمالاً. ويبدو أن الرّوم لم يقدِّروا خطورة هذه الغزوة وأهميتها، وحسبوها غارة من غارات البدو والتي تنقشع بسرعة دون أن تترك أثراً باقياً وتأثيراً كبيراً، لذلك انسحبوا تلافياً لخسائر لا مسوِّغ لها. أما الملسمون فكان انتصارهم مادياً إذ صالحوا صاحب (أيْلَة)[(٢)] ومناطق أخرى من بلاد الشَّام، وكان انتصارهم معنوياً، إذ ارتفعت معنوياتهم، فكانت هذه الغزوة فاتحة لفتح بلاد الروم[(٣)].

---

(١) تبوك: موضع بين وادي القرى والشام، وهو حصن به عين ونخل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣٦٥).

(٢) أيلة: مدينة على ساحل البحر الأحمر ما يلي الشام، وهي آخر الحجاز وأول الشام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٩١).

(٣) الرسول القائد (٣٧٨ ـ ٣٩٤).

د ـ وفي هذه الغزوة، وهي غزوة تبوك التي كانت آخر غزوات النبي ﷺ، تخلّف ثلاثة من الصحابة دون عذر مشروع، ولما عاد النبي ﷺ والمسلمون الذين كانوا معه من تبوك إلى المدينة المنوَّرة، اعترف هؤلاء المتخلّفون بذنبهم في تخلّفهم. ونهى النبي ﷺ المسلمين عن كلامهم. فاجتنبهم الناس وتغيّروا لهم، حتى تنكّرت لهم أنفسهم والأرض، فما هي بالأرض التي كانوا يعرفون، ولبثوا على ذلك خمسين ليلة. وكان أحد المتخلّفين الثلاثة هو كعْب بن مالك[1]، أشبّ القوم وأجلدهم، وكان يخرج ويشهد الصلوات مع المسلمين ويطوف بالأسواق، ولا يكلمه أحد. قال: ثمّ غدوت على السّوق ، فبينما أنا أمشي بالسّوق، وإذا نَبَطِيّ[2] يسأل عني من نبط الشّام، ممّن قدم بالطّعام يبيعه بالمدينة، يقول: مَنْ يدلّ على كَعْب بن مالِك؟ فجعل الناس يشيرون له إليّ، حتى جاءني، فدفع إليّ كتاباً من ملِك غَسَّان وكتب كتاباً في سَرَقَةٍ[3] من حرير، فإذا فيه: أما بعد! فإنه قد بلغنا أنّ صاحبَك قد جفاك، ولم يجعلك اللّه بدار هَوَان ولا مَضْيَعَة، فالحَقْ بنا نُواسِك. فقلت حين قرأتها: وهذا من البلاء أيضاً، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع فيّ رجل من أهل الشِّرك، فعمدت بها إلى تَنُّور فَسَجَرْته[4] بها.

وقصة اتصال النبطيّ بكعب بن مالك، يدلّ على أنّ الغساسنة حلفاء الرّوم كانوا يترصّدون حركات المسلمين وسكانهم، وأنّ مخابرات هؤلاء كانت يقظة أشدّ اليقظة، تراقب المسلمين وتعرف تفاصيل أخبارهم، وأنّهم

---

(١) كعب بن مالك، انظر سيرته في الإستيعاب (٣/ ١٣٢٣) وأسد الغابة (٤/ ٢٤٧) والإصابة (٥/ ٣٠٨) والإستبصار في نسب الصحابة من الأنصار (١٦٠ ـ ١٦٢).

(٢) نبطيّ: نسبة إلى النبط، وهم الأنباط: شعب ساميّ، كانت له دولة في شمال شبه الجزيرة العربية، وعاصمتهم: سَلْع، وتعرف اليوم: (البتراء). والأنباط: المشتغلون بالزراعة، واستعمل أخيراً في أخلاط الناس من غير العرب.

(٣) سرقة: شقة من الحرير ويقال: السرق: أحسن الحرير وأجوده.

(٤) سجرته بها: أي أحرقها، وألهب بها التنور.

كانوا يحاولون انتهاز الفرص لشقّ الصفوف وإثارة الأحقاد والنّعرات والاختلافات بين المسلمين.

ولكن المسلمين لم يكونوا يجهلون نشاط الغساسنة المعادي في اقتناص المعلومات عن أحوال المسلمين وعن قوة جبهتهم الداخلية وضعفها، وعن آمال المسلمين وآلامهم، فقد كانوا يراقبون هذا النشاط مراقبة دقيقة، ولديهم وسائلهم الخاصة في مكافحة المخابرات المعادية من جهة في الداخل، وتسّرب مخابراتهم للحصول على المعلومات عن الرّوم وحلفائهم من جهة أخرى في الخارج، فكانوا يحمون أنفسهم من مخابرات العدو داخلياً وخارجياً. ولعلّ إيمان المسلم الراسخ ـ كما هو الحال في قصّة كعب ـ هو المصل الواقي من محاذير المخابرات المعادية.

ومن الواضح أنّ الغساسنة كانوا يبلّغون الرّوم بالمعلومات التي يحصلون عليها عن المسلمين، وبخاصة إذا كان لتلك المعلومات علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالموقف العسكري الذي يؤثر في مصير الغساسنة والروم[1].

هـ ـ وتصاعدت الاتصالات بين المسلمين والرّوم وحلفائهم في السنة السادسة الهجريَّة (٦٢٧م)، فبعث النبي ﷺ دِحَية بن خليفة الكلبي[2] إلى هِرَقل إمبراطور الرّوم وإلى الأسقف الأعظم في الرّوم، وبعثَ شُجَاع بن وَهْب الأسَدِيّ[3] إلى الحارث بن شَمِر الغسّانيّ ملك الغساسنة في بلاد

---

(١) لبث المخلّفون الثلاثة خمسين ليلة يقاطعهم المسلمون مقاطعة صارمة ويهجرهم أهلوهم حتى زوجاتهم، ثم تاب اللّه عليهم، بعد ما نزل بهم ما نزل من عقاب نفسي صارم، ليتوبوا ولا يعودوا إلى التخلّف مرة أخرى، فشرط التوبة النصوح الابتعاد عن الذنوب. وقد أنزل اللّه في التوبة عليهم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، التوبة (٩: ١١٨).

(٢) دحية بن خليفة الكلبي: انظر سيرته المفصلة في كتاب: سفراء النبي ﷺ.

(٣) شجاع بن وهب الأسدي، انظر سيرته المفصلة في كتاب: سفراء النبي ﷺ.

الشَّام، وحاطب بن أبي بَلْتَعَة اللّخْمِيّ[1] إلى المقوقس ملك الإسكندرية وهو قيرس بطريرك الإسكندرية الملكاني الذي جمع له هِرَقل ولاية الدِّين وجباية الخراج بأرض مصر، بعثهم يدعو هؤلاء الملوك والرؤساء إلى الإسلام، وكانت بلاد الشَّام ومصر في حينه ضمن ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية، إذ وصل هؤلاء الدّعاة أو السّفراء في هذه السفارات النبوية في السنة السابعة الهجريَّة (٦٢٨ م)، وكانت هذه البلاد قد عادت إلى الرّوم بعد اندحار الساسانيين كما سبق ذكره.

وبإرسال هؤلاء السفراء إلى الملوك، اتّضحت الرؤية بالنسبة للرّوم وحلفائهم والمسلمين، فعرف كل طرف منهم ما يريده صاحبه منه، وما يستطيع أن يتقبّله وما لا يستطيع، فعرف النبي ﷺ والمسلمون إمبراطور الرّوم وملك الغساسنة ومقوقس مصر عن كثيب، وعرفوا حقيقة نواياهم تجاه الدِّين الجديد.

كما عرف إمبراطور الرّوم وملك الغساسنه ومقوقس مصر ما يريد النبي ﷺ منهم، فتحقق ما كان يسمعونه بما رأوه عيانا.

وأراد قيصر الرّوم استقصاء أخبار النبي ﷺ من أبناء جلدته العرب، فاستدعى جماعة من تجار العرب ـ كما روى الإمام البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنه ـ وكان بين الذين استدعاهم هِرَقل أبو سفيان بن حَرْب، فسأل أبا سفيان عن النبي ﷺ وعن أخباره، وناقشه في أقواله مناقشة مستفيضة[2]، وقد كتب هِرَقل إلى النبي ﷺ جواباً على رسالته، وبعث بكتابه الجوابي مع دحية[3]، ويبدو أنّ قلب هِرَقل مال إلى

---

(١) حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، انظر سيرته المفصلة في كتاب: سفراء النبي ﷺ.
(٢) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (١/ ٧ ـ ٨) وفتح الباري بشرح البخاري (١/ ٣٠ ـ ٣٨)، وانظر البداية والنهاية (٤/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥).
(٣) طبقات ابن سعد (١/ ٢٧٦).

الإسلام، ولكنّه خاف من الرّوم على مصيره إن هو أعلن إسلامه[1].

أما الحارث بن شَمِر الغَسَّانيّ فلم يُسلم، وأراد أن يسير إلى النبي ﷺ، فمنعه هِرَقل من المسير إليه، وأمره بالتريّث حتى يلقاه بالقدس وشيكاً[2].

وأما المقوقس، فقد أكرم سفير النبي ﷺ وأحسن نزله[3]، وبعث معه هدايا إلى النبي ﷺ[4].

لقد كان في هذه السفارات كسب معنوي لا شك فيه، فقد ازداد اطّلاع الرّوم وحلفائهم على الدِّين الجديد وعلى أخبار المسلمين، واتجه تفكير الناس في بلاد الرّوم وبلاد الشَّام ومصر إلى الإسلام والمسلمين، كما ازداد اطّلاع المسلمين على نظام الحكم في تلك الأصقاع، وأحوال سكانها ومصدر قوتهم وضعفهم، وطبيعة أرضهم، ممَّا كان له أثر في الفتح لا يمكن تجاهله ولا التقليل من قيمته وأهميته.

ونستطيع أن نلخّص الموقف العام قبل الفتح الإسلامي للبلاد التي كانت تُحكم من الرّوم ولبلاد الرّوم الأصلية، بالنسبة للعلاقة بين العرب والرّوم قبل الإسلام، وبالنسبة للعلاقة بين المسلمين والرّوم بعد الإسلام على عهد النبي ﷺ، بأنّ العرب كانوا على صلة وثيقة بالرّوم ومعرفة تامة بأحوالهم، وكان نشاطا الجانبين معروفين لكلٍّ جانب منهما، فالغساسنة العرب حلفاء الرّوم المقربون، والتجارة متبادلة بين الجانبين، والنبي ﷺ قد سافر إلى بلاد الشَّام مرتين في التجارة، وقد حدثت مناوشات بين المسلمين وحلفاء الرّوم عدّة مرات كان أهمّها في سرية مُؤْتَة وفي غزوة تبوك، وكانت مخابرات الرّوم متغلغلة في المناطق الإسلاميَّة، ومخابرات

---

(١) الطبري (٢/ ٦٤٩ ـ ٦٥٠) وابن الأثير (٢/ ٢١١).
(٢) طبقات ابن سعد (١/ ٢٦١) وانظر ابن الأثير (٢/ ٢١٣) والبداية النهاية (٤/ ٢٦٨) وتاريخ خليفة بن خياط (١/ ٦٣).
(٣) فتوح والمغرب (٦٧).
(٤) الطبري (٢/ ٦٤٥) وابن الأثير (٢/ ٢١١).

المسلمين متغلغلة في بلاد الرّوم، وبخاصة بلاد الشَّام، وكانت هناك سفارات نبويّة بين المسلمين والرّوم وحلفائهم لم تثمر نتائج ماديّة في نشر الإسلام، بل أثمرت ثمرات معنوية يانعة كما ذكرنا، وكان هذا الاتصال المستمر تمهيداً للفتح.

ج ـ فتوح البلاد المحكومة من الروم:

فتح خالد بن الوليد مدينة بُصرى وهو في طريقه من العراق إلى الشَّام سنة ثلاث عشرة الهجريَّة (٦٣٤ م)، فكانت بُصْرى (بُثْرا Bothra أو (البتراء) أوّل مدينة فُتحت بالشَّام على يد خالد وأهل العراق[١]. وفي هذه السنة انتصر المسلمون على جيش الرّوم في معركة اليرموك الحاسمة، وفتحوا دِمَشْق وساحل دمشق وبَيْسَان وطَبَرِيّة[٢].

وفي سنة خمس عشرة الهجريَّة (٦٣٦ م) فتح المسلمون حِمْص وبَعْلَبك وقنِّسرين وحَلَب وانطاكية وقيسارية، وبَيْسَان[٣] وبيت المقدس[٤]، وبذلك استكمل المسلمون فتح بلاد الشَّام (سوريَّة، ولبنان، والأردن، وفلسطين) وأصبحت جزءاً من الدَّولة الإسلاميَّة.

وفي سنة سبع عشرة الهجريَّة (٦٣٨ م) فتح المسلمون الجزيرة[٥] كما فتحوا إِرْمِينِيَة في تلك السنة أيضاً وسنة تسع عشرة الهجريَّة[٦] (٦٤٠ م) وسنة اثنتين وعشرين الهجريَّة (٦٤٢ م)، وسنة خمس وعشرين الهجريَّة[٧] (٦٤٥ م)، وكان فتحها بالتدريج لوعورة أرضها وبعدها عن

---

(١) ابن الأثير (٢/ ٤٠٩).
(٢) انظر ابن الأثير (٢/ ٤١٠ و٤٢٧ و٤٣١).
(٣) الطبري (٣/ ٥٩٦ و٦٠١ و٦٠٣ و٦٠٥).
(٤) الطبري (٣/ ٦٠٧) وابن الأثير (٢/ ٤٩٩).
(٥) الطبري (٤/ ٥٣) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢).
(٦) الطبري (٤/ ٥٣) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢).
(٧) ابن الأثير (٣/ ٨٣).

قاعدة المسلمين في العراق وسعة مساحتها أيضاً. وفتح المسلمون أذربيجان سنة اثنتين وعشرين الهجريَّة[١] (٦٤٢ م) وصالحها المسلمون نهائياً سنة خمس وعشرين الهجريَّة[٢] (٦٤٥ م)، وبذلك طُوِّقت بلاد الرّوم الأصلية من الجنوب ومن الشرق تطويقاً كاملاً.

وفي سنة عشرين الهجريَّة[٣] (٦٤٠ م) فتح المسلمون مصر عدا الإسكندرية، وفي سنة إحدى وعشرين الهجريَّة (٦٤١ م) فتح المسلمون الإسكندرية[٤]، وتقدم المسلمون نحو ليبيا ففتحوها سنة اثنتين وعشرين (٦٤٢ م) وسنة ثلاث وعشرين الهجريَّة[٥] (٦٤٣ م)، وباختصار لم تحل سنة تسع وعشرين الهجريَّة (٦٤٩ م) حتى كان أكبر قسم من الولايات البيزنطية في شمالي إفريقية مشمولاً بالفتح الإسلامي.

لقد كانت انتصارات المسلمين تبعث على الدهشة حقاً[٦].

٣ - فتح أبي عُبَيْدَة بن الجرّاح[٧]:

في سنة خمس الهجريَّة (٦٣٦ م) بعد فتح حَلَب، فسار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية. وقد تحصّن بها كثير من الناس من قِنّسرين وغيرها. ولما فارق حلب لقيه جمع العدو، فهزمهم وألجأهم إلى أنطاكية وحاصرها من جميع نواحيها. ثم إنّ أهل أنطاكية صالحوه على الجلاء أو الجزية، فجلا بعضهم وأقام بعضهم، فآمن الذين بقوا في المدينة. ولكن

---

(١) انظر الطبري (٤/ ٥٣).
(٢) ابن الأثير (٣/ ٨٣).
(٣) ابن الأثير (٢/ ٥٦٤).
(٤) البلاذري (٣٠٤).
(٥) ابن الأثير (٣/ ٢٥).
(٦) الإمبراطورية البيزنطية (٣٦٠).
(٧) أبو عبيدة بن الجرّاح، انظر سيرته المفصلة في كتاب قادة فتح الشام ومصر (٥٤ - ٨١).

أهل أنطاكية نقضوا. فوجّه أبو عبيدة إليهم عِياض بن غَنْم[1] وحبيب بن مَسْلَمة[2]، فأعادا فتحها من جديد.

وكانت أنطاكية عظيمة الذِّكر عند المسلمين، فلمّا فُتحت كتب عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه إلى أبي عبيدة: أن رتِّبْ بأنطاكية جماعة من المسلمين، واجعلهم بها مرابطة، ولا تحبس عنهم العطاء[3].

٤ ـ فتح خالد بن الوليد:

في سنة خمس عشرة الهجريَّة (٦٣٦م)، وجّه أبو عبيدة بن الجرَّاح خالداً وهو بـ (مَنْبِج) إلى مَرْعَش، ففتحها وأجلى أهلها وأخربها، كما أنه فتح حصن الحَدَث[4].

٥ ـ فتح حَبيب بن مَسْلَمة:

أمدّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه عِياض بن غَنْم بحبيب بن مَسْلَمَة، فقدم على عِيَاض بالجزيرة، فقاتل حبيب تحت لواء عِيَاض وفتح شِمْشَاط[5] ومَلَطْيَة عَنْوَةً، ثم نقض أهلها الصلح، فلمّا ولي معاوية الشَّام وجّه إليها حبيب بن مَسْلَمَة أيضاً، ففتحها عنوة ورتّب فيها جنداً من المسلمين مع عاملها[6].

وقد جرى فتح شمشاط ومَلَطْيَة سنة سبع عشرة الهجريَّة (٦٣٨م).

وارتبكت أمور إِرْمينِيَة في أيام عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، وكان

---

(١) عياض بن غنم: انظر سيرته المفصلة في كتاب قادة فتح العراق والجزيرة (٤٢٥ ـ ٤٣٥).

(٢) حبيب بن مسلمة: انظر سيرته المفصلة في هذا الكتاب.

(٣) ابن الأثير (٢/ ٤٦٥).

(٤) تاريخ أبي الفدا (١/ ١٦٠).

(٥) شمشاط: مدينة في بلاد الروم على شاطىء الفرات، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٩٣)، وهي غير سمساط.

(٦) ابن الأثير (٢/ ٥٣٥).

حبيب بن مَسْلَمَة يجاهد في تلك المناطق، وكان على الكوفة الوليد بن عُقْبَة[1]، فكتب إليه عثمان: إنّ معاوية بن أبي سفيان كتب إليّ يخبرني أنّ الرّوم قد أجلبت على المسلمين في جموع كثيرة، وقد رأيت أن يمدّهم إخوانهم من أهل الكوفة، فابعث إليهم رجلاً له نجدة وبأس في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف من المكان الذي يأتيك كتابي فيه، والسلام[2].

وقام الوليد بن عقبة في الناس وأعلمهم الحال، وندبهم مع سلمان بن ربيعة الباهلي، فانتدب معه ثمانية آلاف، ومضوا حتى دخلوا مع أهل الشّام إلى أرض الرّوم، فشنّوا الغارات على أرض الرّوم مع حبيب، وأصاب الناس ما شاؤوا، وافتتحوا حصوناً كثيرة[3].

وبلغ حبيب بن مَسْلَمَة أنّ بطريق (أرْمِيناقس)[4] وهي بلاد (مَلَطْيَة) و(سيواس) وقُونِيَة وأقصرا وما والاها من البلاد إلى خليج القُسْطَنْطينيَّة واسمه المَوْريان قد توجّه نحوه في ثمانين ألفاً من الروم[5]، وأجمع حبيب على تبييت الرّوم، فبيّتهم وقتل مَن وقف له، وانتصر على الرّوم، فعاد أدراجه إلى مقرّه في إِرْمِينِيَة، وقد جرت هذه المعركة سنة خمس وعشرين الهجريَّة (٦٤٥م).

٦ ـ فتح سلمان بن ربيعة الباهلي:

فتح سيواس وقُونِيَة وأقصرا وما والاها من البلاد إلى خليج القُسْطَنْطينيَّة (البسفور) مع حبيب بن مَسْلَمَة، فقد فتحا هذه المنطقة

---

(١) الوليد بن عقبة بن أبي معيط، انظر سيرته في كتاب قادة فتح العراق والجزيرة (٤٤٩ ـ ٤٦٨).
(٢) ابن الأثير (٣/ ٨٣).
(٣) ابن الأثير (٣/ ٨٣ ـ ٨٤).
(٤) أرميناقس: هي بلاد ملطية وسيواس وأقصرا وقونية وما والاها من البلاد، وإلى خليج القسطنطينية، انظر ابن الأثير (٣/ ٨٤).
(٥) ابن خلدون (٢/ ١٠٠١) وزاد ابن الأثير (٣/ ٨٤): ملطية وسيواس واقصرا... إلخ.

الشاسعة من بلاد الرّوم متعاونين على أفضل ما يكون التعاون، وكان سلمان اليد اليمنى لحبيب في فتحه.

٧ ـ فتح محمد بن مروان بن الحكم:

في سنة ثلاث وسبعين الهجريَّة (٦٩٢م)، استعمل عبد الملك بن مروان أخاه محمداً على الجزيرة وإِرْمينِيَة، فغزا منها وأثخن في العدو، وهزم الرّوم، وقتل وسبى وغلب على البلاد.

وفي سنة أربع وسبعين الهجريَّة (٦٩٣م) غزا الرّوم صيفاً، فبلغ أندولية وعاد منها منتصراً.

وفي سنة خمس وسبعين الهجريَّة (٦٩٤م)، غزا الرّوم صيفاً، فخرجت الرّوم في جمادى الأولى من هذه السنة من قِبَل مَرْعش، فالتقى المسلمون بعَمْق مرعش بالرّوم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فهزمت الرّوم، وأتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون.

وفي سنة ست وسبعين الهجريَّة (٦٩٥م)، غزا الرّوم من ناحية مَلَطْيَة.

وفي سنة اثنتين وثمانين الهجريَّة (٧٠١م)، غزا إِرْمينِيَة، فهزمهم، ولكنّهم قتلوا وكيله عليها غدراً بعد أن صالحهم محمد.

وفي سنة خمس وثمانين الهجريَّة (٧٠٤م)، غزا إِرْمينِيَة، فصاف فيها وشتى.

وهكذا قضى أكثر سنيِّ حكمه للجزيرة وإِرْمينِيَة بالغزو ومصاولة الرّوم وأهل إِرْمينِيَة، فاستعاد فتح إِرْمينِيَة وشطراً من بلاد الرّوم.

٨ ـ فتح مَسْلَمَة بن عبد الملك:

في سنة ست وثمانين الهجريَّة (٧٠٥م)، غزا مَسْلَمَة أرض الرّوم. وفي سنة سبع وثمانين الهجريَّة (٧٠٦م)، غزا الرّوم فأثخن فيهم بناحية

المَصِّيْصَة، وفتح حصوناً كثيرة منها حصن بُوْلَق والأخْرَم وبُوْلُس وقَمْقِيم وقتل من المستعربة ألف مقاتل وسبى أهاليهم.

وفي سنة ثمان وثمانين الهجريَّة (٧٠٧م) غزا مَسْلَمَة والعبّاس بن الوليد بن عبد الملك بلاد الرّوم، فاصطدم الطرفان فانهزم الرّوم، ثم أعادوا الكرّة فانهزم المسلمون، ولكن العباس بن الوليد بن عبد الملك ثبت على رأس الساقة، وقام المسلمون بهجوم مضاد، فانهزم الرّوم حتى دخل المسلمون (طُوانَة) بعد قتال وشتوا فيها. كما فتح مَسْلَمَة في هذه السنة حرثومة وثلاثة حصون: حصن قُسطنطين وحصن غزالة وحصن الأخرم.

وقد تكرر فتح حصن الأخرم سنة سبع وثمانين وثمانٍ وثمانين الهجريتين، ومن المحتمل أن الرّوم استعادوه، فعاد إليه مَسْلَمَة وفتحه مرة أخرى.

وفي سنة تسع وثمانين الهجريَّة (٧٠٨م)، غزا مَسْلَمَة والعباس بن الوليد الرّوم، ففتحا عَمُورِيَّة وافتتح هرقلة وقَمُونِيَة.

وفي سنة تسعين الهجريَّة (٧٠٩م)، غزا مسلمة أرض الرّوم، ففتح الحصون الخمسة التي بسوريَّة.

وفي سنة اثنتين وتسعين الهجريَّة (٧١٠م)، غزا أرض الرّوم، ففتح حصوناً ثلاثة، وجلا أهل سُوسَنَة إلى بلاد الرّوم.

وفي سنة ثلاث وتسعين (٧١١م) غزا مَسْلَمَة الرّوم، فافتتح ماسة وحصن الحديد وغزالة وبَرْجمة من ناحية مَلَطْيَة، وكان مَسْلَمَة قد فتح حصن الغزالة سنة ثمان وثمانين الهجريَّة كما ذكرنا، والظّاهر أن الرّوم استردوها من المسلمين، فاستعادها مَسْلَمَة ثانية.

وفي سنة أربع وتسعين الهجريَّة (٧١٢م)، غزا مَسْلَمَة الرّوم، فافتتح سَنْدَرَة، وهي حصن من حصون الرّوم التي أقامها البيزنطيون للدفاع عن عاصمتهم القُسْطَنْطينيَّة، ومن الغزو مباشرة عاد مَسْلَمَة إلى الديار المقدسة، فحجّ بالناس في هذه السنة.

وفي سنة ست وتسعين الهجريَّة (٧١٤م)، غزا مَسْلَمَة الصائغة في بلاد الرّوم.

وفي سنة سبع وتسعين الهجريَّة (٧١٥م)، غزا مَسْلَمَة أرض الوضّاحيّة، ففتح الحصن الذي فتحه الوضّاح الذي كان من قادة مَسْلَمَة المرؤوسين. وفيها أيضاً غزا بَرْجَمَة وحصن ابن عَوْف، وافتتح أيضاً من جديد حصن الحديد وفتح سَرُورَا، وشَتَى بأرض الرّوم، وكان مَسْلَمَة قد فتح حصن الحديد وبرجمة سنة ثلاث وتسعين الهجريَّة كما ذكرنا، والظاهر أنّ هذين الحصنين انتقضا، فأعادهما مَسْلَمَة للمسلمين سنة سبع وتسعين الهجريَّة.

وفي هذه السنة بدأ سليمان بن عبد الملك بتجهيز الجيوش لفتح القُسْطَنْطينيَّة، وفي سنة ثمان وتسعين الهجريَّة (٧١٦م) فرض مَسْلَمَة الحصار على القُسْطَنْطينيَّة، وبعد قتال عنيف أخفق الحصار وانسحب مَسْلَمَة من القُسْطَنْطينيَّة سنة تسع وتسعين الهجريَّة (٧١٧م)، وتفاصيل الحصار في سيرة مَسْلَمَة مفصلة، ويستطيع أن يتدارسها من يريد في هذا الكتاب: قادة فتح بلاد الرّوم.

٩ ـ فتح عبد اللَّه بن عبد الملك بن مروان:

في سنة اثنتين وثمانين الهجريَّة (٧٠١م)، غزا عبد اللَّه بلاد الرّوم، ففتح حصن سِنَان من ناحية المَصِّيْصَة.

وفي سنة ثلاث وثمانين (٧٠٢م)، غزا عبد اللَّه الرّوم، ففتح طُرانْدَة.

وفي سنة أربع وثمانين الهجريَّة (٧٠٣م)، فتح عبد اللَّه المَصِّيصَة، فبناها وبنى حصنها على أساسها القديم، ووضع بها سكاناً من المسلمين، فيهم ثلاثمائة رجل انتخبهم من ذوي البأس والنجدة المعروفين، ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك، وبنى فيها مسجداً فوق تلّ الحصن، ووجه

قواته في هذه السنة إلى حصن سنان، ففتحه، ويبدو أنه فتح هذا الحصن ثانية، لأنّه كان قد فتحه سنة اثنتين وثمانين الهجريَّة كما ذكرنا.

١٠ ـ فتح العبّاس بن الوليد بن عبد الملك:

في سنة ثمان وثمانين الهجريَّة (٧٠٧م)، فتح العباس بالتعاون مع مَسْلَمَة بن عبد الملك بعض بلاد الرّوم منها طُوانة.

وفي سنة تسع وثمانين الهجريَّة (٧٠٨م)، غزا مَسْلَمَة بن عبد الملك ومعه العباس أرض الرّوم وحاربوها جميعاً، ثم تفرّقا فافتتح العباس (أذروليّة)، ووافق من الرّوم جمعاً فهزمهم ثم غزا العباس الصائفة من ناحية البُذَنْدون.

وفي سنة تسعين الهجريَّة (٧٠٩م) غزا العباس الرّوم حتى بلغ الأَرْزن في رواية، وحتى بلغ سوريَّة في رواية أخرى، والثّانية أصحّ، لأن ذلك يجمعه بقوات مَسْلَمَة.

وفي سنة ثلاث وتسعين الهجريَّة (٧١١م)، غزا العباس أرض الرّوم، ففتح سَمْسَطِيَة (سبيطلة ـ سبسطية)، والظاهر أنّها مدينة سُمَيْساط. كما فتح في هذه السنة المرزبانين في منطقة طرسوس، وفتح طولس (طَرْسُوس).

وفي سنة أربع وتسعين الهجريَّة (٧١٢م)، فتح العباس مدينة أنطاكية كما فتح قارطة.

ومن المعروف أنّ أنطاكية فتحها أبو عبيدة بن الجرّاح لأول مرة سنة خمس عشرة الهجريَّة (٦٣٦م) كما ذكرنا، ولكن الرّوم استعادوها لنشوب الاضطرابات الداخلية واضطراب أمور المسلمين، فأعاد العباس فتحها من جديد.

وفي سنة خمس وتسعين الهجريَّة (٧١٣م)، غزا العباس بلاد الرّوم، ففتح طولس (طرسوس) والمرزبانين وهِرَقْلَة.

وقد تكرر فتح طولس والمرزبانين مرتين: مرة سنة ثلاث وتسعين

الهجريَّة، ومرة سنة خمس وتسعين الهجريَّة، ولعلّ سبب ذلك هو في اختلاف المؤرخين بالتوقيت، والاختلاف في هذه الحالة على كل حال طفيف.

وقد يكون سببه أنّ العباس فتحهما مرة سنة ثلاثة وتسعين الهجريّة، فانتقضتا، فأعاد فتحهما من جديد سنة خمس وتسعين الهجريَّة.

أما هرقلة فقد فتحها مَسْلَمَة بن عبد الملك سنة تسع وثمانين الهجريَّة (٧٠٨م) ومن المحتمل أنّ الرّوم استعادوها من المسلمين، فجدَّد فتحها العباس، وأعادها كرّة أخرى إلى حوزة المسلمين.

وفي سنة ثلاث ومئة الهجريَّة (٧٢١م)، غزا العباس أرض الرّوم، ففتح مدينة (رَسْلَه) أو (دلسة) أو (واسى).

١١ ـ فتح عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك:

في سنة أربع وتسعين الهجريَّة (٧١٢م)، غزا عبد العزيز بلاد الرّوم، فبلغ حصن هرقلة في هذه الغزوة وفتحها.

ومن المعروف أنّ هذا الحصن كان قد فتحه مَسْلَمَة بن عبد الملك سنة ثمانٍ وثمانين الهجريَّة (٧٠٧م)، ممَّا يدل على أنّ الرّوم استعادوه من المسلمين بعد فتحه، فأعاده عبد العزيز إلى سيطرة المسلمين مرة أخرى.

١٢ ـ فتح داود بن سليمان بن عبد الملك:

في سنة سبع وتسعين الهجريَّة (٧١٥م)، جهّز سليمان بن عبد الملك الجيوش لفتح القُسْطَنْطينيَّة، واستعمل ابنه داود على الصّائفة، فافتتح حصن المرأة.

وفي سنة ثمان وتسعين الهجريَّة (٧١٥م)، غزا داود أرض الرّوم، ففتح حصن المرأة ثانية، كما فتح حصن الأجرب.

وقد تكرر فتح حصن المرأة في هذه السنة، وسبق ذكره في فتوح

سنة سبع وتسعين الهجريَّة، ممَّا يدلّ على أنّ الرّوم استعادوه في شتاء سنة سبع وتسعين الهجريَّة، لقلّة المدافعين عنه من المسلمين على ما نرجِّحه.

وكان فتح هذين الحصنين في هذه السنة، لتأمين خطوط مواصلات الجيوش الإسلاميَّة الزاحفة لفتح القُسْطَنْطينيَّة، لأنها الشريان الرئيس لتقدّم تلك الجيوش نحو هدفها، وهي التي تصل قواعد المسلمين الأماميَّة بالقُسْطَنْطينيَّة، وعليها تتحرّك الإمدادات البشريَّة والإدارية من تلك القواعد إلى الجيوش الزّاحفة، وكل قائد لا بدّ له من تأمين خطوط مواصلاته بالربايا في المناطق الجبلية والحصون.

وقد كان داود بإمرة عمّه مَسْلَمَة قائداً مرؤوساً في ملحمة حصار القُسْطَنْطينيَّة، والظّاهر أنّه استعاد فتح حصن المرأة وفتح حصن الأجرب، وهو في طريقه إلى القسطنينية، إذ كان يومئذ قائداً لأحد الأرتال المتقدّمة لفتح عاصمة الرّوم. وبقي داود مع عمه من صيف سنة ثمان وتسعين الهجريَّة (٧١٦م) حتى تم انسحاب مَسْلَمَة عن حصار القُسْطَنْطينيَّة بعد وفاة سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين الهجريَّة (٧١٧م) بعد أن بقي المسلمون يحاصرون القُسْطَنْطينيَّة ثلاثين شهراً.

١٣ ـ فتح معاوية بن هشام بن عبد الملك:

في سنة تسع ومئة الهجريَّة (٧٢٧م)، غزا معاوية أرض الرّوم، ففتح حصناً يقال له: حصن طيبة، وأصيب معه قوم من أهل أنطاكية بخسائر في الأرواح.

وفي سنة عشرة ومئة الهجريَّة (٧٢٨م)، غزا معاوية أرض الرّوم، ففتح حصنين كبيرين من حصونهم: حصن صِمِلَة والبوة. وصملة هذه هي صِمَالو التي تقع قرب المَصِّيصة وطرَسُوس.

وفي سنة إحدى عشرة ومئة الهجريَّة (٧٢٩م)، غزا معاوية أرض الرّوم على الصائفة اليسرى، وغزا أخوه سعيد بن هشام بن عبد الملك

أرض الرّوم على الصائفة اليمنى حتى أتى قَيْسَاريّة، فوغل معاوية في بلاد الرّوم، وانصرف ولم يلق كيداً.

وفي سنة اثنتي عشرة ومئة الهجريَّة (٧٣٠م)، غزا معاوية بلاد الرّوم، فافتتح خَرْشَنَة من ناحية مَلَطْيَة وحرق فرندية من ناحية مَلَطْيَة أيضاً.

وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجريَّة (٧٣١م)، غزا معاوية بلاد الرّوم، فرابط في ناحية مَرْعش ثم رجع.

وفي سنة أربع عشرة ومئة الهجريَّة (٧٣٢م)، غزا معاوية أرض الرّوم على الصائفة اليسرى، وغزا أخوه سليمان بن هشام أرض الرّوم على الصائفة اليمنى ممَّا يلي الجزيرة، فأصاب معاوية رَبَض أقْرُن، وبلغ سليمان قَيْسَارِية. والظاهر أن أقرن تقع في ناحية مَلَطْيَة، استناداً إلى اتجاه الصوائف اليسرى وسير الحوادث.

وفي سنة خمس عشرة ومئة الهجريَّة (٧٣٣م)، غزا معاوية الرّوم على الصائفة حتى أتى على أفْلاغُونِيا، وجرت هذه الغزوة في شهر رمضان، وافتتح حصوناً.

وفي سنة ستة عشرة ومئة الهجريَّة (٧٣٤م) غزا معاوية بلاد الرّوم على الصائفة، كما غزا سنة سبع عشرة ومئة الهجريَّة (٧٣٥م)، فبلغ في غزوته سيبرة وبلغت سراياه سردة.

وفي سنة ثماني عشرة ومئة الهجريَّة (٧٣٦م)، غزا معاوية وأخوه سليمان أرض الرّوم.

١٤ ـ فتح مروان بن محمد بن مروان:

في سنة ست ومئة الهجريَّة (٧٢٤م) في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان، تولى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم أول قيادة عسكريَّة له، وكان عمره يومئذ ثلاثين سنة.

فقد تولى الصائفة اليمنى، فافتتح قُونِيَة من أرض الرّوم وكَمْخ التي تعدّ من أرض الجزيرة.

وكان مروان مع مَسْلَمَة بن عبد الملك من سنة سبع ومئة الهجريَّة (٧٢٥م) حتى سنة أربع عشرة ومئة الهجريَّة (٧٣١م) في جهاده الذي امتدّ من الجزيرة إلى بلاد الرّوم وأذربيجان وإِرْمينِيَة، فعزل هشام بن عبد الملك أخاه مَسْلَمَة، وولّى مروان بن محمد على الجزيرة وأذربيجان وإِرْمينِيَة، فكان نشاط مروان في الفتوح منصباً على إِرْمينِيَة، وبقي في قيادته مجاهداً حتى سنة إحدى وعشرين ومئة، ونشاطه في هذا الميدان في سجل فتح إِرْمينِيَة نشاط متميّز مرموق.

١٥ ـ فتح محمد الفاتح:

فتح محمد مدينة القُسْطَنْطينيَّة عاصمة الرّوم، وكانت خطّة الفتح وتنفيذها وتوقيت عمليّات الفتح ونتائج الفتح مهمّة جداً ولا تزال وستبقى كذلك، ولا يمكن اختصار تلك الأعمال المجيدة بسطور أو كلمات، فلا بد من الرجوع إليها في كتاب: قادة فتح الرّوم، لاستيعاب تفاصيلها كما ينبغي في سيرة: محمد الفاتح، الذي كان آخر قادة فتح بلاد الرّوم تسلسلاً، وأهمّهم إنجازاً وفتحاً، وحسبه أنه يقال عنه: إنه فاتح القُسْطَنْطينيَّة، وكفاه بذلك فخراً وذكراً.

ولم يقتصر فتح محمد الفاتح القُسْطَنْطينيَّة على أهميته، بل شمل فتوحات كثيرة في آسيا الصغرى، وفي أوروبا، ممّا تجد تفاصيله في فتوح هذا القائد الذي أصبحت فتوحاته معروفة ومقدّرة ليس على النطاق الإسلامي وحده، بل على النطاق العالمي أيضاً.

عبرة الفتح:

استهان الرّوم بالعرب بعامَّة وعرب الجزيرة العربيَّة بخاصة قبل الإسلام، وبعد الإسلام. وإذا كان هناك ما يسوّغ لهم هذه الإستهانة

بالعرب قبل الإسلام لتفرّقهم وتناحرهم وضعف قوّتهم وانصرافهم إلى المنافع الشخصية الماديّة والمعنويّة بحدود المكاسب الفرديّة لغاية نطاق العشيرة أو القبيلة، دون أن يكون للمصلحة العربيّة العامَّة أهمية تذكر في ميزان العربيّ قبل الإسلام. كما أن العرب كانوا يؤمنون بعقائد شتى، وكانوا في سوادهم الأعظم مشركين، فكانت تلك العقائد المتخلِّفة تفرّق ولا توحِّد، وتهدم ولا تبني وتؤخر ولا تقدم، وتثير بين معتنقيها العداوة والبغضاء والحقد والتناحر، ولعلّ: أيام العرب في الجاهلية[1] في حرب البسوس وداحس والغبراء وغيرهما، تحكي قصّة الاقتتال المستمر بين الأشقّاء العرب لأسباب تافهة، فكان بأسهم بينهم شديد، حتى قال قائلهم:

ومَـنْ تـكُـن الـحـضـارة أعـجـبـتـهُ فـأيّ رجـال بـاديـة تَـرانـا

ومَـنْ ربـط الـجِـحـاشَ فـإنّ فـيـنـا رجـال بـاديـة تَـرانـا

ومَـن ربـط الـجـحـاشَ فـإنّ فـيـنـا قَـنـاً سُـلُـباً[2] وأفـراسـاً حـسـانـا

وكُـنَّ إذا أَغَـرْنَ عـلـى قَـبِـيـل فـأعـوزهُـنَّ نـهـبٌ حـيـث كـانـا[3]

أَغَـرْنَ عـلـى الـضِّـبـاب عـلـى حـلالٍ وضَـبَّـة إنّـه مَـنْ حـان حـانـا[4]

وأحـيـانـاً عـلـى بَـكْـرٍ أخـيـنـا إذا مـا لـم نَـجِـد إلاّ أخـانـا[5]

---

(١) انظر كتاب: أيام العرب في الجاهلية ـ محمد أحمد جاد المولى بالاشتراك ـ القاهرة ـ ١٩٤٢م، فقد سجل التاريخ للعرب (٨١) اقتتالاً في مدة قصيرة، وما لم يسجله أكثر عدداً: والجاهلية ليست من الجهل الذي هو ضدّ العلم، ولكن من الجهل الذي هو السفه والغضب والأنفة، انظر فجر الإسلام (١/٨٦). والجاهلية: زمان الفترة بين رولين. والجاهلية: ما كان عليه العرب من الجهالة والضلالة قبل الإسلام، انظر معجم اللغة.

(٢) قناً: جمع قناة، والقناة: الرّمح الأجوف وسلباً، أي طوال.

(٣) القبيل: الجمع من الناس.

(٤) الضباب: اسم قبيلة. والحلال: المجاور، يقال: حيّ حلال: أي مجاور مقيم بالقرب منه. يقول: أغرن على الحيّ المجاور لحيّهم من قبيلتي ضباب وضبّة. وقوله: من حان حانا: أي مَنْ جاء أجله فهو لا بدّ هالك.

(٥) الشعر للقطامي الشعر، وهو شاعر جاهلي مشهور.

هؤلاء هم عرب الجزيرة العربيَّة، أنفسهم عليهم لا على أعدائهم، فهي أشدّ ضرراً عليهم لأنّها أعدى أعدائهم، فلا وزن لهم في موازين القوى المتصارعة.

أما عرب العراق، فحلفاء الفُرس، وهم المناذرة، وأما عرب الشَّام، فحلفاء الرّوم، وهم الغساسنة، وكثيراً ما نشبت الحرب بين الغساسنة والمناذرة لا لمصلحة العرب، بل لمصلحة الفُرس أو الرّوم، أما المصلحة العربيَّة فغائبة عن الميدان. أما عرب الجزيرة فهم تارة مع الفُرس، وتارة مع الرّوم، ولم تقم لهم دولة بعد دولة الحَضَر التي قضى عليها سابور الأول (٢٤١م ـ ٢٧٢م)، ومن يومها كانوا مع القويِّ الذي استولى على بلادهم، على الضعيف الذي غادر بلادهم، وكانوا يكدّون ليدفعوا الضرائب الفادحة للحكام، ويعانون الاضطهاد الدِّيني حتى من أبناء دينهم الرّوم، لاختلاف المذاهب وما يجرّه اختلافها من ويلات.

وعرب الهلال الخصيب قبل الإسلام في العراق، وبلاد الشَّام، والجزيرة، لا وزن لهم في موازين القوى المتصارعة، لأنهم يعملون لمصلحة الفُرس والرّوم لا لمصلحتهم، فطاقاتهم مسخّرة للأجنبي لا للعرب.

وجاء الإسلام، فوحّد عقائد العرب المتناقضة في عقيدة واحدة هي: الإسلام، بعد أن ألغى تلك العقائد الفاسدة، ووحّد صفوفهم وألّف بين قلوبهم، وغرس فيهم الضّبط والطّاعة والنِّظام، وطهّر نفوسهم، ونقّى أرواحهم، وخلق فيهم انسجاماً مادياً ومعنوياً، وعلّمهم التضحية من أجل المبادىء لا من أجل الأهواء ومن أجل المصلحة العامَّة للمسلمين لا من أجل المصلحة الشخصية للأفراد أو الجماعات، فأصبحت لذلك كله وبذلك كله قوتهم المبعثرة وجهودهم المُضَاعة تعمل بنظام واحد، وطاعة عالية، بقيادة واحدة، لهدف واحد، وبذلك أصبح العرب قوة مفزعة هائلة، وجدت متنفساً في توحيد الجزيرة العربيَّة أولاً، وفي الفتح

الإسلامي ثانياً، وأصبح العرب بعد الإسلام، غير العرب قبل الإسلام قوة واقتداراً ومُثلاً عُليا.

ولكن الرّوم استهانوا بالعرب بعد الإسلام، كما استهانوا بهم قبل الإسلام، ولم يكتشفوا أثر الإسلام في العرب بالرغم من النذر المباشرة التي كشفها العرب المسلمون للرّوم وحلفائهم من الغساسنة والقبائل العربيّة الأخرى على عهد الرّسول القائد عليه الصلاة والسلام. فكانت تلك الاستهانة التي لا مسوّغ لها هي الخطأ السّوْقِيّ العظيم الذي وقع فيه الرّوم، وإن لم يستطيعوا تلافيه ولا إصلاحه أبدا، وأدّى فيما أدّى إليه إلى فتح المسلمين لممتلكات الرّوم خارج بلادهم الأصلية، وإلى فتح جزء من بلادهم أيضاً.

لقد كانت السرايا التي بعثها النبي ﷺ للتعرّض بحلفاء الرّوم من القبائل العربيّة على تخوم بلاد الشّام الجنوبيّة إنذاراً مباشراً للرّوم بصحوة العرب بعد الإسلام، تلك السرايا التي كانت قبل سرية مؤْتة مباشرة كما هو معروف.

وإلى جانب تبليغ الدعوة الإسلاميّة، إلى قادة العالم المعروفين في حينه من النبي، فقد كان قائداً لا يغض الطرف عن أي مظهر عدواني يحطّ من شأن دعوته أو يعمل على النيل منها، فلم يسكت إزاء استشهاد رسوله الحارث بن عُمَيْر الأزْديّ[1] الذي بعثه إلى ملك الغساسنة في بصرى، فأرسل في السنة الثامنة الهجريّة (٦٢٩م) أحد قادته المقربين إليه، وهو زيد بن حارثة الكلبيّ، على رأس سريّة تعدادها ثلاثة آلاف مجاهد إلى الحدود الشماليّة الغربيّة من بلاد العرب. وهناك عند مُؤْتَة الواقعة على حدود البَلْقَاء إلى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت، التقى المسلمون بقوات الرّوم.

---

(١) الحارث بن عمير الأزدي: انظر سيرته في الإستيعاب (١/ ٢٩٧) وأسد الغابة (١/ ٣٤١) والإصابة (١/ ٢٩٩).

ومهما تكن الخاتمة التي لقيتها سريّة مؤتة، إلاّ أن نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى، فبينما رأى الرّوم في تلك السريّة غارة من الغارات التي اعتاد البدو على شنّها للنّهب والسّلب، كانت سريّة زيد هذه في الحقيقة معركة من نوع جديد لم تقدِّر دولة الرّوم أهميّتها، فهي حرب منظّمة كانت لها مهمّة خاصة، جعلت العرب المسلمين يتطلّعون جديّاً لفتح بلاد الشَّام.

وفي السنة التالية: أي في السنة التاسعة الهجريَّة (٦٣٠م)، قاد النبي ﷺ بنفسه غزوة تبوك، فأظهر قوّة المسلمين للرّوم وحلفائهم بخاصة، وللمشركين وغير المسلمين من أهل الكتاب بعامَّة، ثم عاد أدراجه إلى المدينة المنوَّرة.

وفي السنة الحادية عشرة الهجريَّة (٦٣٢م)، أعدّ النبي ﷺ جيشاً بقيادة أسامة بن زيد لمهاجمة الرّوم، غير أن النبي ﷺ التحق بالرفيق الأعلى في شهر ربيع الأول من تلك السنة (كانون أول ـ ديسمبر ٦٣٢م) قبل حركة جيش أسامة إلى هدفه، فترك لخلفائه خطّة واضحة المعالم، وولّى وجوههم شطر هدف عيَّنه لهم... وهكذا وقف الرسول القائد عليه الصلاة والسلام بثاقب نظره على أنّ أشدّ الأخطار التي يمكن أن تحلّ ببلاد العرب وتناوىء دعوته إنما موطنها أرض الشَّام حيث الرّوم وحلفاؤهم الغساسنة، وقد أثبتت حوادث الفتح الإسلامي في أرض الرّوم صدق هذه الإشارة، فكان الرّوم أشدّ المحاربين عناداً.

ولكن الرّوم بقدر اهتمام العرب المسلمين بهم، وإعداد العُدّة لهم، واستكمال الاستحضارات لقتالهم، كانوا لا يزالون يتصوّرون أنّه لا فرق بين العرب قبل الإسلام وبين العرب بعد الإسلام، وأنّ الحرب التي يشنّها العرب المسلمون كالحرب التي كان يشنّها العرب قبل الإسلام، فالحرب العربيَّة غارات تلتهب بسرعة وتخمد بسرعة دون أن تترك أثراً ولا تأثيراً، فكانت استهانة الرّوم بالعرب بقدر اهتمام العرب بالرّوم والاستعداد الكامل المفصّل لحربهم.

ويبدو أنّ من أسباب استهانة الرّوم بالعرب، خروج الرّوم من الحرب البيزنطية الفارسية (٦١٠م ـ ٦٢٨م) منتصرين على الفُرس، وبذلك أصبحوا أقوى دول العالم في حينه، فمَنْ يكون العرب الضعفاء إلى جانب الرّوم الأقوياء! كما أنّ النصر ـ وبخاصة في حرب طويلة الأمد ـ على دولة قويّة كالإمبراطورية الساسانيّة، يؤدي إلى الغرور الذي من نتائجه الاستهانة بالأعداء، ويؤدي إلى الاسترخاء للتمتّع بثمرات النصر اليانعة.

والحق أنّ العرب غير المسلمين، استهولوا قتال الرّوم، فقال قائلهم وهم يشيرون إلى رسول اللّه ﷺ وهو مُنْطَلِق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جِلادَ بني الأصفر (أي الروم) كقتال العرب بعضهم بعضا؟ واللّه لكأنّا بكم غداً مُقَرَّنِين في الحبال، إرْجافاً وترهيباً للمؤمنين[1] فما كان هؤلاء العرب الذين لم يسلموا يصدّقون بأنّ العرب المسلمين قادرون على حرب الرّوم، ولكن العرب المسلمين كانوا واثقين بنصر اللّه، فإذا كان العرب أنفسهم يستهينون بعضهم إلى هذا الحد، فلا لوم على الرّوم في استهانتهم بالعرب أيضاً.

والدرس الأول الذي نتعلمه هو أنّ الاستهانة بالعدو تؤدي إلى أوخم العواقب، وأنّ القوي مهما يبلغ من القوة، لا عذر له في الاستهانة بالضعيف مهما يبلغ من الضعف، والحكمة كل الحكمة في المثل العربي: إذا كان عدوّك نمْلَةً، فلا تَنَمْ له.

وكان الأجدر بالرّوم وحلفائهم ألاّ يستهينوا بالعرب المسلمين وأن يتدبّروا أثر الإسلام في العرب بجدية وحزم، ويُعدّوا للعرب المسلمين ويستعدّوا لهم من بعد سرية حِسْمَى بقيادة زيد بن حارثة الكلبيّ التي كانت في شهر جمادى الآخرة من سنة ست الهجريَّة، حيث انكشفت نيات العرب المسلمين في تصدّيهم للرّوم وحلفائهم العرب غير المسلمين، أو

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ١٨٠).

بعد السفارة النبويّة إلى ملك الغساسنة وإمبراطور الرّوم هِرَقل التي كانت في أواخر السنة السادسة الهجريَّة وأوائل السنة السابعة، لأنّ تعاليم الإسلام في الجهاد: الإسلام، أو الجزية، أو القتال، قد انكشفت أيضاً. إلاّ أنّ الرّوم لم يعدّوا ويستعدوا للمسلمين من العرب إلاّ في سنة ثلاث عشرة الهجريَّة قبيل معركة اليرموك الحاسمة، فخسروا خمس سنوات في سبات وغفلة، وكان العرب المسلمين سنة ثلاث عشرة الهجريَّة غير العرب المسلمون سنة ست الهجريَّة، إذ أصبحوا أكثر عَدَداً وعُدَداً وأقوى ساعداً ومدداً، وأكثر خبرة وشرداً، وكان القطار بعد يقظة الرّوم من إغفاءتهم الطويلة قد فاتهم إلى غير رجعة.

ومن تجارب الأمم المفيدة التي استخلصتها من تاريخ الحرب قديماً وحديثاً، أنّ الاستهانة بالعدو يؤدي إلى الاندحار في الحرب، وأنّ في تقدير الموقف للقضايا المصيرية ـ ومنها الحرب ـ يجب أن يوضع أسوأ الاحتمالات في الحسبان، فإذا كان هناك خطر يتهدّد الأمة في مصيرها بمعدّل واحد بالمئة، فلا بد من اعتبار ذلك الخطر مئة بالمئة، والإعداد والاستعداد بالنسبة لمئة بالمئة لدرء هذا الخطر، إذ لا ضرر من المبالغة بالحذر واليقظة، وإنما الضرر بالغفلة والاسترخاء.

والدرس الثّاني الذي نتعلّمه، هو أنّ الاختلافات المذهبية في الدّين الواحد، قد تجرّ إلى عواقب وخيمة تضرّ الأمة ومستقبلها وتفرّق وحدة البلاد.

لقد كان من الطبيعي جداً أن يؤدي دخول الفرس إلى سوريَّة ولبنان وفلسطين ومصر، وبقاؤهم فيها خمس عشرة سنة إلى اضطهاد أبناء الكنيسة الأم لعلاقتهم بالقُسْطَنْطينيَّة وتمسّكهم بعقائدها، كما كان طبيعياً أن يؤدي ذلك إلى تنشيط اليعاقبة وكل مَنْ قال بالطبيعة الواحدة. والواقع أنه لمّا عاد الرّوم إلى هذه الأقطار، وجدوا أنّ جميع بطاركتها هم من أتباع الطبيعة الواحدة، فعادوا إلى معالجة الانشقاق في الكنيسة لتوحيد الكلمة وجمع

الصفوف[1]، وكان الإمبراطور وأهل دولته يقولون: إنّ للمسيح طبيعتين ومشيئتين، أما رعيّته في مصر والشَّام والجزيرة، فكان أكثرهم يقول بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة وهم اليعاقبة، ولتوحيد الكلمة وجمع الصفوف وافق هِرَقل بالقول: بأنّ للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة، لغرض التوفيق بين المسيحيين من رعايا الرّوم. ونشر الإمبراطور منشوراً بهذا المعتقد، فقبل به أكثر الأساقفة الشرقيين إلاّ بطريرك القدس وغيره، فشقّ ذلك على الإمبراطور، وعمل على الانتقام من الذين لم يقبلوا منشوره وفيهم جانب عظيم من الرّوم. وأصبح الانقسام مزدوجاً: الإمبراطور ومَنْ والاه في ناحية، واليعاقبة ومنهم الأقباط وأهل حوران وسائر أهل سوريَّة ومصر في ناحية، والنَّساطرة وهم أهل العراق والجزيرة في ناحية ثالثة، فضلاً عن طوائف أخرى منهم الخياليون الذين يقولون بأنّ المسيح لم يُصلب حقيقة، وإنّما صلب رجل آخر مكانه، ومنهم القائلون بعدم الخضوع للرؤساء، ثم إنّ اليعاقبة أيضاً كانوا أقساماً ممَّا يطول شرحه.

وكان لهذه الانقسامات تأثير شديد في السياسة، لاختلاط السياسة عندهم بالدِّين، حتى آلَ الأمر أحياناً إلى خروج أمم بأسرها من حوزة الرّوم إلى حوزة الفرس، كما حصل بالأرمن، فإنه لمّا حرّم المجمع القسطنطيني القول بالطبيعة الواحدة، جعل الإمبراطور يشدِّد النكير على متّبعيها والأرمن منهم، فأفضت بهم الحال إلى تسليم بلادهم إلى الفرس. وكذلك فعل القبط بمصر يوم جاءهم عمرو بن العاص، فقد كانوا عوناً له في فتحها[2]، لأنهم كانوا على الرّوم مذهبياً، كما لم يقاتل أهل الجزيرة دفاعاً عن بلادهم كما ينبغي، ولم يسندوا الرّوم بقوة وأمانة، فكانت الجزيرة أسهل البلاد فتحاً[3]، لأنهم كانوا على الرّوم مذهبياً أيضاً.

---

(١) الروم (١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١).
(٢) التمدن الإسلامي (١/ ٤٢) ـ جرجي زيدان ـ ط ٢ ـ القاهرة ـ ١٩١٤.
(٣) الطبري (٤/ ٥٤) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢).

ولكن التناقض المذهبيّ كان سبباً واحداً من أسباب فتح أرض الشّام ومصر والجزيرة، فهناك أسباب كثيرة لهذا الفتح، لعلّ أهمها: الحرب العادلة التي خاضها المسلمون حينذاك، فلا ظلم ولا عدوان ولا انتهاك للأعراض، ولا انتهاب للأموال، بعكس الرّوم الذين كانوا يظلمون ويعتدون وينتهكون الأعراض وينتهبون الأموال، ومن أسبابها العدل الذي أشاعه المسلمون في البلاد المفتوحة، والتسامح الذي لمسه أهل تلك البلاد، والمثل العليا التي كان المسلمون نماذج حيّة لها تمشي على الأرض: وكان العدل بين الرعيّة دستور العرب السياسي، وقد ترك العرب الناس أحراراً في أمور دينِهم، وأظلّ العرب أساقفة الرّوم ومطارنة اللاتين بحمايتهم، فنال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقاً من الدعة والطمأنينة[1]، من ذلك أنّ عمر بن الخطّاب لمّا دخل القدس، أبدى من التسامح نحو أهلها ما أمنوا به على دينهم وأموالهم وعرفهم وعاداتهم، ولم يفرض عليهم سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم[2]، وللفتوح العربيَّة طابع خاص لا تجد مثله في فتوح الأمم الأخرى، ذلك أنّ العرب أنشؤوا بسرعة فائقة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها، وتمكنُوا بحسن سياستهم من إقناع أمم كثيرة على اعتناق دينهم ولغتهم وثقافتهم، ولم يشذّ عن ذلك أقدم الشّعوب كالمصريين والهنود والفرس الذين رضوا أيضاً بمعتقدات العرب وعاداتهم وفنّ عمارتهم[3]، والحق أنّ الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب[4]، وقد ذكرت شهادة غير

---

(١) حضارة العرب ـ كوستاف لولون ـ ترجمة عادل زعيتر ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ ـ ص (١٦٩).
(٢) حضارة العرب (١٦٨).
(٣) حضارة العرب (١٥٣).
(٤) حضارة العرب (٢٢٥ ـ ٢٣٥)، وانظر فصل: الفتوح الإسلامية ومعاملة العرب للأمم المغلوبة من كتاب: أصالة الحضارة العربية (٢٤٠ ـ ٢٤٣) ـ الدكتور ناجي معروف ـ بيروت ـ ١٣٩٥ هـ ـ ط ٣.

عربي ولا مسلم، لأنّ فضل العرب المسلمين في هذا المجال كان واضحاً معروفاً لا يخفى على صديق، فلا يمكن إخفاء الشمس في وضح النهار.

وقد ذاع خبر العدل والتسامح والمُثُل الإسلاميَّة العليا التي يتحلّى بها المسلمون في حربهم وسلامهم فسهّلت تلك الأخبار الطيّبة على المسلمين مهمّة الفتح، وجعلت كفّتهم ترجح على كفّة الرّوم في ميزان الحق والعدل والإنصاف.

لقد انتصر العرب المسلمون الأولون بسمعتهم الحسنة في العدل والتسامح ومكارم الأخلاق على الرّوم والفرس وحلفائهم، أكثر من انتصارهم بالقوة الضاربة، والمثُل العليا تبقى، والقوة الضاربة لا تبقى.

وإذا كنّا قد تعلّمنا من الرّوم درساً حيويّاً يبرز محاذير التناحر المذهبيّ وأثرها المدمِّر في حاضر الأمة ومستقبلها، فعلينا أن نتعلم من أجدادنا العرب المسلمين في الصدر الأول من أيام الفتح الإسلامي، أنّهم انتصروا بالجهاد الذي هو الحرب القادمة لتكون كلمة اللّه هي العليا، أي أنّ (الفتح) سيف وكتاب، والسيف يتبدّد أثره، والكتاب لا يتبدّد أثره أبداً، والفرق بين الفتح وبين الاستيلاء أو السيطرة هو أنّ الفتح قتال ومبادىء، وغيره قتال بدون مبادىء، وكل فتح تحرير، ولكن ليس كل تحرير فتحاً، فقد يكون التحرير بالقوة وحدها دون مبادىء. وحين عاد النبي ﷺ إلى مكَّة المكرَّمة وهي بلده الأمين منتصراً، سميت عودته: فتح مكَّة، وسماها اللّه في كتابه العزيز فتحاً، فقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾[1]، وفي القرآن الكريم سورة الفتح، وقد وردت مادَّة (فَتَحَ) في الكتاب العزيز بنحو ثمان وثلاثين آية، منها سبعة عشر آية في معنى (الفتح)[2] الذي هو الجهاد

---

(١) الآية الكريمة في سورة الفتح (٤٨: ١).
(٢) انظر التفاصيل في: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (٥١٠ ـ ٥١١) ـ القاهرة ـ ١٣٧٨ هـ.

لإعلاء كلمة اللَّه بالإقناع لا بالإكراه، وبالحكمة والموعظة الحسنة لا بالتّعسف والعنف، إذ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[1].

وقد كنت أعلم أن المسلمين تركوا الجهاد فذلّوا، وما كنت أعلم أنّهم يريدون ترك حتى لفظة الجهاد وما يتبعها من كلمات ذات معانٍ إسلامية خاصة كالفتح، بحجّة أنّ الجهاد يحمل معنى الإعتداء وأنّ الفتح يحمل معنى الاستيلاء، والجهاد والفتح لا يحملان مثل هذين المعنيين إلاّ في فكر أعداء الإسلام وحدهم، وما معنى التحرير إلاّ نقطة في بحر معاني الفتح، فلا ينبغي أن نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ولما ترك المسلمون فرض الجهاد، ضعفوا وذلُّوا واستهانت بهم الأمم، وتفرّقت كلمتهم وتشتّت شملهم، وأخذوا يقتتلون فيما بينهم، ونسوا أعدائهم الحقيقيين وشغلوا بإخوانهم وأشقائهم، حتى هانوا على أعدائهم، وخسروا ما فتحوه بالتدريج.

لقد استعاد نقفور إمبراطور الرّوم (نيقيفوريوس فوقاس ٩٦٣م - ٩٦٩م) المَصِّيْصَة وطَرَسُوس من المسلمين سنة أربع وخمسين وثلاثمائة الهجريَّة[2] (٩٦٥م)، فذكر ياقوت الحموي في كتابه: (معجم البلدان) وصفاً لاحتلال نقفور لمدينة طَرَسُوس فقال: ... فإنّ نقفور ملك الرّوم استولى على الثّغور، فاستولى على المَصِّيْصَة ثم رحل عنها ونزل على طرسوس، وكان بها من قبل سيف الدَّولة رجل يقال له: ابن الزيات ورشيق النسيميّ مولاه، فسلّما إليه المدينة على الأمان والصلح على أنّ مَنْ خرج منها من المسلمين وهو يحمل من ماله مهما قدر عليه لا يُعْتَرض من عين ووَرِق أو خُرْثِيّ[3]، وما يُطق حمله فهو لهم مع الدّور والضياع. واشترط تخريب الجامع والمساجد، وأنّه مَنْ أراد المقام في البلد على

---

(١) الآية الكريمة في سورة البقرة (٢: ٢٥٦).

(٢) ابن الأثير (٨/ ٥٦٠).

(٣) الخرثي: أثاث البيت.

الذمة وأداء الجزية فعل، وإن تنصّر فله الحباء والكرامة وتقرّ عليه نعمته. . . . . . . وخرج أكثر الناس يقصدون بلاد الإسلام وتفرّقوا فيها، وملك نقفور البلد، فأحرق المصاحف وخرّب المساجد، وأخذ من خزائن السلاح ما لم يسمع بمثله ممّا كان جُمع من أيام بني أُميّة إلى هذه الغاية. . . . . ودخل الرّوم إلى طرسوس، فأخذ كل واحد من الرّوم دار رجل من المسلمين بما فيها، ثم يتوكل ببابها، ولا يطلق لصاحبها إلاّ حمل الخف[1]، فإن تجاوز منعه، حتى إذا خرج منها صاحبها دخلها النصراني فاحتوى على ما بها. . . . هذا والملوك كل واحد مشغول بمحاربة جاره من المسلمين، وعَطّلوا هذا الفرض (يريد فرض الجهاد) ونعوذ باللّه من الخيبة والخذلان، ونسأله الكفاية عنده[2]، وهكذا أصبح الطالب مطلوباً والسيِّد عبداً والعزيز ذليلاً، لأنّ المسلمين تركوا دينهم الذي قادهم إلى النصر، وإلى الوحدة والتوحيد، وتخلّوا عن فريضة الجهاد، فتداعت عليهم الأمم.

أما في القرن الرابع عشر الهجري (أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين)، فقد خسر المسلمون ما فتحوه وأصبحت بلادهم مستعمرات للأجنبيّ، واقتطع الصهاينة الأرض المقدسة من البلاد العربيَّة.

واستمر العد التنازلي، حتى كانت سنة اثنتين وأربعمائة وألف الهجريَّة (١٩٨٢م) سنة مذابح مخيَّمات صبرا وشاتيلا في بيروت ومذابح الأشقاء اللبنانيين من المسلمين بأيدي الصهاينة وعملائهم.

أما في سنة ثلاث وأربعمائة وألف الهجريَّة (١٩٨٣م)، فقد كانت سنة اقتتال الأشقّاء الفلسطينيين مع بعضهم في طرابلس اللبنانية، ممَّا أثلج قلوب الصهاينة وأعداء العرب والمسلمين.

---

(١) الخف: كل شيء خفّ محمله.

(٢) معجم البلدان (٦/٣٩ ـ ٤٠).

وحين قرأت ما كتبه ياقوت في معجم البلدان، قلت لنفسي: ما أشبه الليلة بالبارحة.

إن عبرة فتح بلاد الرّوم يمكن إجمالها في أربعة دروس: درسان من الرّوم، ودرسان من العرب.

الدرس الأول من الرّوم، هو أن الاستهانة بالعدو تقود إلى الهزيمة، ولا عذر بضعف العدو وقلّته، فالفئة القليلة المنظمة المستعدّة، تتغلّب على الفئة الكبيرة غير المنظمة وغير المستعدّة. والدرس الثَّاني من الرّوم هو أن التناحر المذهبي يقود إلى الانحدار، لأنه يفتِّت الأمة ويمحق التعاون فيما بينها في السلم والحرب.

والدرس الأول من المسلمين، هو العودة إلى الجهاد الإسلامي الذي هو الحرب العادلة بما فيها من مُثُل عُليا ووحدة واتِّحاد، فما ترك الجهاد قوم إلاّ ذلوا وتفرّقوا. والدرس الثَّاني من المسلمين، هو اتحادهم، فما اتحدوا إلا انتصروا، وما تفرّقوا إلا انخذلوا، وفوائد الوحدة لا تحتاج إلى بيان.

كما نتعلّم من هذه الدراسة درسين حيويين آخرين من المسلمين والروم: الأول هو أن الهجوم أنجع وسائل الدِّفاع، وهو من الدروس السّوقيّة التي نتعلّمها من تاريخ الحرب قديماً وحديثاً بعامّة ومن حرب المسلمين على الرّوم وحرب الرّوم على المسلمين بخاصة.

فقد شحن المسلمون الثّغور بالمجاهدين الذين يرابطون في تلك الثغور للدفاع عنها وصدّ هجوم الرّوم عليها شتاءً وصيفاً. وجعلوا من هذه الثغور قواعد متقدِّمة للمسلمين، ينطلقون منها في الصّوائف للهجوم على مدن الرّوم القريبة أو البعيدة، بقصد إظهار قوّة المسلمين ومنعتهم ويقظتهم، وتفريق حشود الرّوم وضربها في عقر دارها في حالة تحشّدها للتعرّض بالبلاد الإسلاميَّة قبل أن تتعرّض بالمسلمين، وبذلك ينقلون ساحة

المعارك من بلاد المسلمين إلى بلاد الرّوم، ويحمّلون الرّوم نتائج تلك المعارك ماديّاً ومعنوياً.

وكانت صوائف المسلمين تغزو بلاد الرّوم سنوياً، ما دام المسلمون أقوياء متّحدين، يتقبّلون الجهاد ويُقبلون عليه بما فيه من تكاليف البذل والتضحية والعناء.

أما في حالة ضعف المسلمين وتفرّقهم، فإن الرّوم يغزونهم كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وكان الأسلوب التعرّضي أنجع وسائل الدِّفاع بالنسبة للمسلمين والرّوم أيضاً.

وقد كانت الثغور آمنة مطمئنة، حين كانت عامرة بالمجاهدين والمرابطين للدفاع المحلي، وبالصوائف التي تعبر الحدود سنوياً للدفاع السّوقي عن الثغور وعن بلاد المسلمين. ثم أصبحت تلك الثغور غير آمنة ولا مطمئنة بعد أن خلت من المدافعين عنها، وتقاعس المسلمون عن غزواتهم الصيفيّة، فأصبحت مكشوفة للرّوم، واستطاعوا احتلال قسم منها، وفعلوا بأهلها الأفاعيل.

أما الدرس الحيويّ الثّاني، فهو أنّ الرّوم لم يكونوا ضعفاء في أيام الفتح الإسلامي، ولم يكن جيشهم ضعيفاً ولا قيادتهم ضعيفة، كما يدّعي الأجانب من المؤرخين القدامى والمحدثين.

فقد كان الرّوم على جانب عظيم من الحضارة كما رأينا، وكان جيشهم أقوى جيش في العالم، وحسبه أنه دحر الجيش السّاسانيّ وانتصر عليه، حتى هدّد عاصمة ملكه، واستعاد البلاد التي احتلها الفرس، وأصبح القوة العالمية التي لا تُنافس في حينه. كما كان هِرَقل إمبراطور الرّوم المنتصر من ألمع قادة الرّوم وأكثرهم كفاية واقتدار، وقد أحرز بانتصاراته الباهرة على الفرس سمعة في القيادة لا مثيل لها في أباطرة الرّوم. وهدف الذين يدّعون أنّ الرّوم كانوا ضعفاء أيام الفتح الإسلامي واضح مفهوم،

فهم يريدون أن يسوِّغوا هزيمة الرّوم من ناحية ويهوِّنوا من انتصار المسلمين من ناحية أخرى، ولكن هدف الذين يردِّدون هذا الادعاء المتهافت غير واضح ولا مفهوم، إلاّ أن يكون تقليداً لكل أجنبي، أو جهلاً بالواقع والتاريخ، أو عمالة لأعداء العرب والمسلمين، أو بكل تلك الأسباب مجتمعة كأنها ظلمات بعضها فوق بعض.

لقد انتصر الفاتحون لأنهم كانوا متفوقين على الرّوم بمعنوياتهم العالية التي غرسها الدِّين الحنيف في المسلمين الأولين، وما أصدق خالد بن الوليد في قولته حين سمع رجلاً يقول: ما أكثر الرّوم وأقل المسلمين!، فأجابه فوراً: بل ما أقل الرّوم وأكثر المسلمين! إنما تكثر الجنود بالنّصر، وتقل بالخذلان.

وقد كان المسلمون يومئذ كثيرين بانتصاراتهم الباهرة، وما أعظمها وأبقاها من انتصارات.

جدول

مجمل الفتوح

م	اسم المدينة	اسم القائد	الملحوظات
١	أنطاكية	أبو عبيدة بن الجراح	من سيواس إلى
٢	مرعش	خالد بن الوليد	خليج إلى خليج
			القُسْطَنطينيَّة
١	مَلَطْيَة		
٢	شمساط سيواس وقونية		بالتعاون مع سليمان
٣	أقصرا حتى خليج	حبيب بن مَسْلَمَة	ابن ربيعة
٤	القُسْطَنطينيَّة		بالتعاون مع حبيب
١	سيواس	سليمان بن ربيعة	ابن مَسْلَمَة
٢	قونية		استعاد فتح مناطق
٣	أقصرا حتى خليج	محمد بن مروان بن	هاتين المدينتين
١	القُسْطَنطينيَّة	الحكم	

٢	مرعش مَلَطْيَة		
١	حصن بولق		
٢	حصن الأخرم		
٣	حصن بولس		
٤	طوانة		
٥	حرثومة		
٦	حصن قسطنطين	مَسْلَمَة بن عبد الملك بن مروان	
٧	حصن غزالة		
٨	عمُوريَّة		
٩	هِرَقلة		
١٠	قَمونية		
١١	الحصون الخمسة بسوريَّة		
١٢	سَوْسَنَة		
١٣	ماسة		
١٤	حصن الحديد		
١٥	برجمة		
١٦	سندرة		
١٧	حصن الوضاح		
١٨	حصن ابن عوف		
١٩	سرورا		
٢٠	حصن الصقالبة		
٢١	حصار القُسْطَنْطينيَّة		
١	حصن سنان	عبد الله بن عبد الملك ابن مروان بن الحكم	
٢	طرندة		
٣	المصيصة		
١	طوانة		فتح طوانة بالتعاون مع مَسْلَمَة ابن عبد الملك

		العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان	
٢	أذروليّة		
٣	سميساط		
٤	المرزبانين		
٥	طرسوس (طولس)		
٦	قارطة		
٧	رسلة أو دلة أو أواسي		
١	حصن غزالة	عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان	فتحة مَسْلَمَة وأعاد عبد العزيز فتحه
١	حصن المرأة	داود بن سليمان بن عبد الملك	
٢	حصن الأجرب		
٣	حصارة القُسْطَنْطينيَّة		بإمرة مَسْلَمَة بن عبد الملك
١	حصن طيبة		
٢	حصن صملة أو صمالو		
٣	حصن البوة		
٤	خرشنة	معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان	
٥	ربض أقرن		
١	قونية	مروان بن محمد بن مروان بن الحكم	أعاد فتح هذه المدينة، وله فتوح كثيرة في مناطق أخرى
١	القُسْطَنْطينيَّة	محمد الفاتح	

هِرَقْل

ملك الرُّوم

٦١٠م ــ ٦٤١م

تولّى هِرَقل الحكم بعد فوكاس، فقد بعث هِرَقل حاكم إفريقية للرّوم ابنه هِرَقل على رأس أسطول بيزنطيّ إلى القُسْطَنْطينيَّة، فتوقّفت السفن أثناء سيرها ببعض الجزر والموانىء البيزنطية، فلقي هِرَقل الترحيب من جميع الناس. وفي ٣ تشرين الأول (أكتوبر) ٦١٠م ظهر أسطوله أمام أسوار القُسْطَنْطينيَّة، فتعالى الهتاف له، على أنه مخلِّص البلاد ومنقذها، فعمل هِرَقل على التّعجيل بإنهاء حكم فوكاس. وفي ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ٦١٠م، تلقى هِرَقل التّاج من يد البطريرك، ثم أمر بإعدام فوكاس وتحطيم تمثاله المقام في ميدان السباق.

وألَّف هِرَقل ومَنْ جاء بعده مباشرة من الأباطرة أسرة حاكمة ترجع ترجيحاً إلى أصل أرمني، وحكم هِرَقل من سنة ٦١٠م حتى ٦٤١م.

ويعتبر هِرَقل من أعظم الأباطرة في التاريخ البيزنطي، فهو على حدّ قول أحد المؤرخين الذي أنشأ بيزنطة في العصور الوسطى، والذي اتخذ رومة مثالاً له في الحكم، واتخذ اللغة والثقافة اليونانية، واتخذ المسيحية ديناً ومذهباً، وأجرى في داخل الإمبراطورية حركة تجديديّة ناشطة، وكانت بيزنطة قد ادّخرت في خزينتها من المواهب والموارد ما أسهمت بها في خلق نهضة اجتماعية سياسية ثقافية عسكريَّة.

وكان الصقالبة قد استولوا على معظم ممتلكات الإمبراطورية الأوروبية، وأصبح الجزء الأكبر من شبه جزيرة البلقان، لا سيما داخلها إقليماً صقلبياً.

أما الفرس، فأخذوا يتوغّلون في الشرق الأدنى منذ سنة ٦١١م،

فاستولوا على أنطاكية التي تعتبر من أكبر المدن في الأقاليم الشرقيَّة للدولة البيزنطية، ولم يلبثوا أن استولوا على دمشق، وشقّوا طريقهم شمالاً واستولوا على حصن طرسوس وطردوا البيزنطيين من إِرْمينِيَة. وجزعت نفوس المسيحيين وانهارت معنوياتهم حين استولى الفرس على بيت المقدس بعد حصار استمر ثلاثة أسابيع، فجعلوا المدينة نهباً للحريق والمذابح ثلاثة أيام، ودمّر الحريق كنيسة القيامة التي شيّدها قسطنطين الكبير، وكان لهذا العمل رد فعل خطير في بيزنطة، لاسيما أنّ الصليب المقدّس (صليب الصلبون) الذي يعتبر المسيحيون أثمن المقدسات الدِّينية، استولى عليه الفرس ونقلوه إلى عاصمتهم المدائن.

ولم تقتصر غارة الفرس على الشَّام وفلسطين، بل امتدّت سنة ٦١٢م إلى آسيا الصغرى حتى بلغت مضيق البسفور، وعسكر الفرس تجاه القُسْطَنْطينيَّة، وبذلك تعرّضت العاصمة لزحف العدو من جهتين، زحف عليها الفرس من الشرق، وزحف عليها من الشمال الصقالبة والآفار.

وشرع الفرس بغزو مصر، فسقطت في أيديهم الإسكندرية سنة ٦١٩م، ولم تلبث مصر بأسرها أن أصبحت بأيدي الفرس.

وبدأ هِرَقل بإجراء إصلاحات عسكريَّة وإدارية شاملة، وكان من نتائج هذه الإصلاحات تغلّب الصفة العسكريَّة على إدارة الإمبراطورية، وإعادة تنظيم القوات المسلحة، وكانت نتائج هذه الإصلاحات واضحة ملموسة، فنهضت الإمبراطورية من جديد، وهُزم الفرس هزيمة ساحقة منكرة بفضل جهود هِرَقل التنظيمية وقيادته المتميزة.

كما أنّ الكنيسة البيزنطية أسهمت بقدر كبير فيما أحرزته الإمبراطورية من الفوز والنجاح، إذ جعلت كل ما لديها من ثروة تحت تصرّف الحكومة، وما كان في كنائس العاصمة والأقاليم من التحف المصنوعة من الذّهب والفضّة جرى صهرها وسكّها نقوداً.

وقرر هِرَقل أن يقود بنفسه الحرب على الفرس، وطغى على الحرب في مستهلها جوّ من الحماسة الدِّينية التي لم تكن معروفة في العصور الماضية، فكانت حرباً صليبية سابقة على الحروب الصليبية المعروفة.

وفي يوم الإثنين ٣ نيسان (إبريل) سنة ٦٢٢م، غادر هِرَقل القائد العام للجيش البيزنطي العاصمة بعد أن أدّى القدّاس، وعبر البسفور إلى آسيا الصغرى حيث لجأ إلى جهات الثغور البيزنطية، فاجتمع له عدد كبير من الجند. وأمضى شهور الصيف في تدريب الجند، وعكف على دراسة الخطط العسكريَّة، فابتكر أساليب جديدة منها، فازدادت أهمية استخدام الفرسان في القتال، وأبدى هِرَقل اهتماماً كبيراً بالرماة من الفرسان.

وبدأ هِرَقل في الخريف حملته، فشقّ طريقه إلى إِرْمينِيَة، وتقابل الجيشان البيزنطي والفارسي على أرضها، فانتصر الرّوم على الفرس هناك انتصاراً حاسماً، وبذلك تحقّق أول هدف من أهداف هِرَقل، وهو تخليص آسيا الصغرى من العدو.

وفي سنة ٦٢٣م سار هِرَقل إلى إِرْمينِيَة، فأحرز انتصارات على الفرس هناك، ثم توجّه نحو الجنوب، فزحف على (جانزاك Ganzak) التي كانت عاصمة لأردشير - أول ملوك الساسانيين - وتعتبر من المراكز الدِّينية الرئيسة في فارس، فلاذ كسرى بالفرار من المدينة التي لم تلبث أن سقطت بيد الرّوم، فأشعلوا الحرائق في معبد زرادشت انتقاماً لمّا أنزله الفرس من قبل ببيت المقدس من نهب وتخريب، ووقع بيد هِرَقل عدد لا حصر له من الأسرى.

ودارت خلال سنتي ٦٢٤م و٦٢٥م معارك طاحنة في إرمينية بين الرّوم والفرس، كانت الكفّة راجحة فيها للرّوم على الفرس.

وفي سنة ٦٢٦م تعرضت القُسْطَنْطينيَّة لهجوم مزدوج من الفرس والآفار، ولكن لم ينجح الهجوم وانتصر الرّوم في نهاية المعارك.

وفي سنة ٦٢٧م، شرع هِرَقل بزحفه الكبير نحو الجنوب متّجهاً إلى

قلب بلاد الفرس، وفي ـ شهر كانون الأول (ديسمبر) من هذه السنة أحرز انتصاراً حاسماً على الفرس في معركة نِينَوَى الحاسمة التي قررت مصير النزاع بين الفرس والرّوم نهائياً في مصلحة الرّوم، إذ أحرز البيزنطيون انتصاراً باهراً على الفرس، وحلّت بالجيش الفارسي هزيمة ساحقة وخسائر فادحة.

وواصل هِرَقل زحفه المظفّر، وفي أول سنة ٦٢٨م استولى على داستاجرد مقر ملك فارس، فأسرع الملك بالخروج منها، ممَّا أدّى إلى عزل كسرى وقتله، فتولى الحكم بعده ابنه، وعقد الصلح مع هِرَقل.

وبمقتضى هذا الصلح، استردّ هِرَقل كل ما كان لبيزنطة من ممتلكات في الجزيرة وإِرْمِينِيَة وسوريَّة وفلسطين ومصر، وأعلن كسرى (شيرويه) أثناء مرضه الذي مات فيه، بأن يكون هِرَقل وصياً على ابنه، وكان سلفه كسرى الثَّاني قد أعلن أنّ الإمبراطور البيزنطيّ ليس إلاّ عبداً له، فتغيّر الزمن وانعكس الوضع، فأعلن شيرويه أنّ ابنه ووريثه في الحكم عبد للإمبراطور البيزنطي هِرَقل، وهكذا غيّر هِرَقل موازين القوى من حال إلى حال، فأصبح المغلوب غالباً، والعبد سيّداً.

وعاد هِرَقل إلى عاصمته، بعد أن غاب عنها ست سنوات، فاستقبله ابنه على شواطىء آسيا الصغرى، واستقبله البطريرك سرجيوس ورجال الدِّين وأعضاء مجلس الشيوخ وجموع الشّعب، يحملون أغصان الزيتون والشموع الموقدة، يرتّلون المزامير، ويهتفون باسمه فرحاً وسروراً.

ولما تحررت الأقاليم البيزنطية من الفرس، ارتحل هِرَقل وبصحبة زوجته، سنة ٦٣٠م، قاصداً بيت المقدس، حيث أعاد في ٢١ آذار (مارس) سنة ٦٣٠م، وفي وسط مظاهر الفرح الغامر، إقامة الصليب الذي كان قد غنمه الفرس في موضعه، كما أعاد إلى مواضعها كل ما جرى سلبه من الكنيسة، واعتبر المؤرخون أنّ هذه الحرب أول حرب مقدّسة شنّها العالم المسيحي ضد غيرهم من غير المسيحيين.

وتعتبر الحرب الفارسية البيزنطية مرحلة مهمة من مراحل التاريخ البيزنطي والفارسي أيضاً، إذ أنّ معركة نِينَوَى حطّمت قوة الفرس، ولم يعد لفارس ما كان لها من الأهمية. أما الآفار، فإنّ كبرياءهم هوت إلى الحضيض بفضل ما أحرزه عليهم البيزنطيون من انتصارات في معركة القُسْطَنْطينيَّة. وبلغت بيزنطة بما أحرزته من النصر، ذروة القوّة والمجد، فذاع اسمها فيما وراء الحدود، فأرسل ملك الهند إلى هِرَقل يهنئه بالنصر، وبعث له بهديّة حافلة من الأحجار الكريمة، وأنفذ دابوجرت ملك الفرنجة السفراء لعقد صلح دائم مع الإمبراطورية البيزنطية، وأرسلت بوران ملكة فارس مبعوثاً خاصاً إلى هِرَقل ليبرم معاهدة الصلح.

ويعتبر عهد هِرَقل نقطة تحوّل في تاريخ الدَّولة البيزنطية من النَّواحي الحضارية والسياسية والعسكريَّة، إذ انتهت المرحلة الرومانية من التاريخ، وبدأ ما يصحّ اعتباره التاريخ البيزنطي، وقد اتَّحد ظهور العنصر اليوناني وقوة المؤثر الكنسي، فوهبا الإمبراطورية مظهراً جديداً.

وحين بدأ الصراع بين العرب المسلمين من جهة والرّوم من جهة، كان الرّوم أقوى دولة في العالم دون منازع، يقودهم هِرَقل أعظم أباطرة الرّوم وقادتهم، وكانت معنويات الرّوم قادة وجنوداً عالية جداً بعد انتصارهم على الفرس والآفار، وكانوا أكثر حضارة من العرب المسلمين القادمين من الصحراء وأعرف بأساليب القتال وأعظم تجربة عملية في الحرب، وأكثر عدداً وأغنى مدداً ولكنهم اندحروا أمام العرب المسلمين بالرغم من قوّة في جيوشهم وقيادتهم لا من ضعف بهما كما يزعم قسم من المستشرقين وقسم من المستغربين.

وقد حاولت أن أسجّل سيرة حياة هِرَقل الذي أرسل إليه النبي ﷺ رسولاً يدعوه وقومه إلى الإسلام، لكي أظهر تهافت ادعاء أولئك المستشرقين والمستغربين الذي يزعم أنّ انتصار العرب المسلمين كان لضعف الرّوم قيادة وجيشاً، ولم أعتمد على المصادر العربيّة والإسلاميّة

في تسجيل هذه السيرة، بل اعتمدت المصادر والمراجع الأجنبيَّة، حتى أبطل مزاعم المستشرقين والمستغربين، وأبطل ما يمكن أن يزعمه المقلدون لهم من انحياز المصادر العربيَّة والإسلاميَّة للعرب المسلمين على الرّوم وتحيّزهم لبني جلدتهم عقيدتهم على الرّوم، وعلى كل فالحق ظاهر ولا يمكن كتمانه ولو بعد حين.

وفي ١١ شباط (فبراير) سنة ٦٤١م، مات هِرَقل، فارتجّت القُسْطَنْطينيَّة لموته، وارتجّت الإمبراطورية البيزنطية خاصة والعالم المسيحي عامَّة لرحيله، إذ فقدت المسيحية بموته بطلاً من أبطالها المعدودين، منقذ القدس من الفرس.

المراجع:

1. Baynes, N. H: The Byzantine Empire. London 1926.
2. Ostrogorowski, G: History of the Byzantine. Trans. Joan Hussey, Oxford 1956.
3. Vasiliev, A: The Byzantin Empire. Madison 1952.

الفهرس